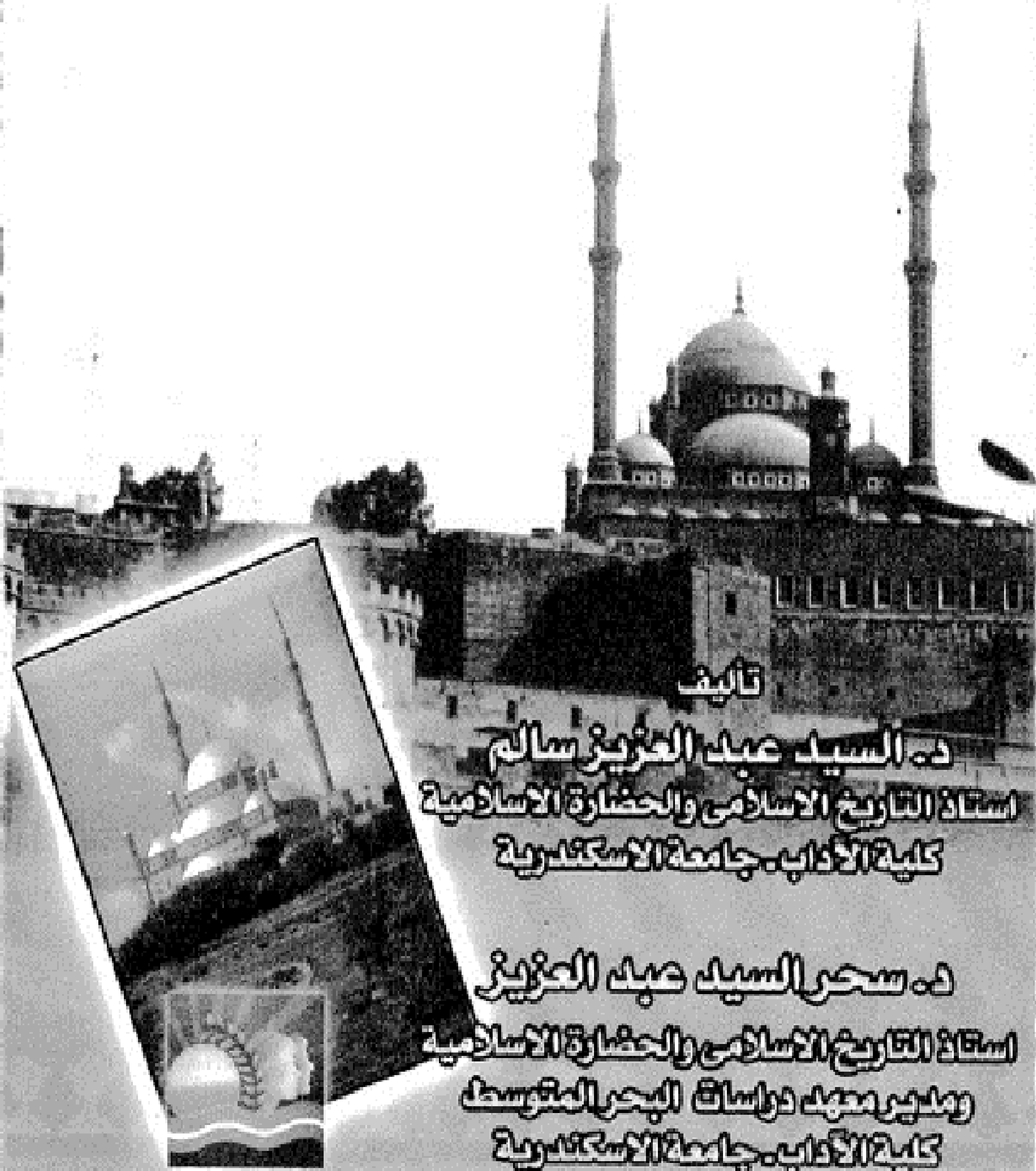
تاريخ
الأيوبيين والمماليك



تأليف

د. السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

د. سحر السيد عبد العزيز
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
ومدير معهد دراسات البحر المتوسط
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ شارع د. مصطفى مشرفة
تليفاكس : ٤٨٧٩٤٧٢ - إسكندرية

دراسة فى

تاريخ الأيوبيين والمماليك

دراسات فى

تاريخ الأيوبيين والمماليك

تأليف

الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الدكتورة سحر عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

٢٠٠٤

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة
ت : ٤٨٣٩٤٧٢ - اسكندرية

فهرس الكتاب

القسم الثانى

عصر المماليك البحرية

الخرائط

مقدمــة

يشغل التاريخ الأيوبى والمملوكى جانبا هاما من التاريخ الاسلامى العام، بالاضافة الى أنه يشكل القسم الأعظم من تاريخ مصر الاسلامية (٣٥٥سنة) ، فالقسم الأول من هذا التاريخ الأيوبى والمملوكى تناول الصراع القائم بين قوى المسلمين فى جزء هام من أجزاء العالم العربى (مصر والشام) ، والقسم الثانى منه يمثل فترة حاسمة من التاريخ الاسلامى .

شهدت الفترة موجات الغزو المغولى المتتابعة (هولاكو – غازان – تيمورلنك) وهذه الموجة الأخيرة هددت كيان دولة المماليك فى مصر والشام وكذلك الدولة العثمانية، كما شهدت الفترة انتقال الخلافة العباسية من بغداد الى القاهرة. ويعتبر القرن التاسع الهجرى (السادس عشر الميلادى) من هذا القسم من الفترات الهامة، اذ شهد تحرير الشام من بقايا الصليبيين، وتصفية الحروب الصليبية تصفية نهائية بالاستيلاء على جزيرة قبرص ومحاولة الاستيلاء على رودس، وفيه يكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح ويتصلون مباشرة بالهند. ولذلك كله كان من الضرورى الاهتمام بهذا التاريخ والعناية بسرده ودراسة تفاصيل أحداثه .

وبالاضافة الى ماسبق أن ذكرناه، يمثل العصر الأيوبى والمملوكى فترة من أزهى فترات الحضارة المصرية، فقد ترك الأيوبيون والمماليك

فى مصر والشام تراثا هائلا من العلوم والفنون ، وكانت مصر فى هذا العصر أهم مراكز الحضارة الاسلامية فى العالم ، وليس أدل على ذلك من تلك المنشآت المعمارية الجليلة التى شيدها أمراء المماليك وسلاطيهنم فى كل حواضر دولة المماليك فى مصر والشام، وتتضمن أنواعا متعددة من العمائر كالقلاع والأسوار والمساجد والمدارس والأضرحة والأربطة والخانقاوات والزوايا والقصور، أما الفنون الصناعية فقد تقدمت تقدما يشهد به ما وصل الينا من التحف النحاسية والزجاجية والخشبية والخزفية التى تزخر بها المتاحف الاسلامية فى القاهرة ودمشق، وتعكس زخارفها مدى تفاعل الفنون الشرقية والمغربية فيما بينها، أما التطور العمرانى فى هذا العصر فقد بلغ الغاية ويتمثل ذلك فى التوسع العمرانى الذى شهدته بعض المدن المصرية كالاسكندرية والقاهرة وطرابلس الشام التى اعاد انشاءها المنصور سيف الدين قلاوون على مقربة من طرابلس القديمة .

وبعد فتاريخ الايوبيين والمماليك يمثل صفحة مشرقة ومشرفة فى تاريخ الاسلام ، ويشتمل على فترات من الازدهار لم تشهدها البلاد من قبل ، ثم انه يتضمن من الأمجاد والبطولات ماتعبر عنه الانتصارات الحاسمة التى أحرزها الناصر صلاح الدين فى موقعة حطين على قوى الصليبيين مجتمعة ، وانتصار المصريين على قوى الفرنجة فى موقعة فارسكور، وانتصار المماليك على قوى المغول فى موقعة عين جالوت.

وقد حرصت على عرض صورة متكاملة بقدر الامكان عن هذا التاريخ واعتمدت فى ذلك على مكتبة غنية بالمصادر التاريخية والمراجع المتخصصة .

وفيما يلى عرض موجز لبعض مصادر هذا التاريخ ومراجعه .

١- بعض مصادر التاريخ الأيوبى :

أسامة بن منقذ ،كتاب الاعتبار،

هو أبو المظفر أسامة بن رشد بن على بن مقلد بن نصر الملقب بمؤيد الدولة مجد الدين، وينتسب لبنى منقذ أصحاب قلعة شيزر ببلاد الشام ، وقد عاش أسامة فى القاهرة فى الفترة من ٥٣٩هـ الى ٥٤٩هـ (١١٤٤م -١١٥٤م) وتوفى سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م) . وقد تعرض فى كتابه لحوادث الشام فى القرن الأول للحركة الصليبية، ونشر هذا الكتاب لأول مرة فى باريس ١٨٨٦ ، ١٨٨٩ ، نشره هارتويج درنبرج .

ويسجل المؤلف فى هذا الكتاب حوادث مصر التى عاصرها وشاهدها فى مصر ما بين عامى ٥٣٩ و ٥٤١هـ، فيتحدث عن وصوله الى مصر فى عهد الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى ، ويذكر ما وقع فيها من فتن بسبب مؤامرات الجند ،أما القسم الأيوبى من الكتاب فهام للغاية اذ يتضمن وصفا للحياة الاجتماعية والاقتصادية وتفاصيل عن العلاقات بين المسلمين والصليبيين .

أبو المكارم أسعد بن مماتي ،قوانين الدواوين،

ينحدر ابن مماتى من أسرة مسيحية معروفة ببلدة أسيوط ، وكان

جده قد خدم بدر الجمالي ، أما أبوه فكان وزيرا في عهد الخليفة العاضد وفي عهد السلطان الناصر صلاح الدين .

وقد كان لنشأة ابن مماتي في هذه الأسرة التي تقلدت أرفع المناصب أعظم الأثر في ثقافته الواسعة، وهي ثقافة أهلته لأن يتقلب في دواوين الادارة الحكومية وانتهى به الأمر الى أن تقلد منصب الوزارة بدوره. وتوفي ابن مماتي في حلب في ١٨ جمادى سنة ٦٠٩ هـ (١٢٠٩م). ويعتبر كتابه وثيقة تاريخية هامة للنظام الادارى للدولة الأيوبية، ففيه تفصيلات عن النظام الادارى في مصر في عصر الدولة الأيوبية، وفصل عن الجيش الجيوشى وقد تناول فيه بالحديث النواحي التي تخصص ايرادها للجيوش السلطانية وما يزرع بمصر من مختلف المحاصيل ، ويتضمن الكتاب فصلا أخر عن القواعد الشرعية المتعلقة باقطاعات الجند . هذا وقد تعرض المؤلف لجغرافية مصر الأيوبية، وتحدث عن نهر النيل وعن أعمال مصر وأسماء ضياعها وكفورها وجزائرها، وعن خلجانها وترعها وجسورها. ثم عالج المسائل الخاصة بنظم الحكم في أيام الأيوبيين وخاصة الوظائف الهامة بالدولة واختصاص كل منها، والدواوين المختلفة ، ودور الحكومة والموارد المالية للدولة. ثم أفاض الحديث عن الأحوال الزراعية في البلاد، فأورد تفاصيل عديدة عن أنواع الأراضي والفصول الزراعية وأنظمة الرى وأنواع المحاصيل وأوقات غرس البذور وأوقات حصاد المحاصيل ، وعن البساتين وأوقات تقليم الأشجار .

والكتاب على صغر حجمه يزخر بمختلف الموضوعات المتعلقة بالاقتصاد المصرى فى العصر الأيوبى ، وقد نشر الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية هذا الكتاب وعلق عليه فى سنة ١٩٤٣، وتولت طباعته الجمعية الزراعية الملكية .

وكانت قد نشرت من هذا الكتاب قطعة صغيرة، صدرت بالقاهرة فى رجب سنة ١٢٩٩هـ .

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق :

يعتبر هذا الكتاب تتمة لكتاب دمشق لابن عساكر، وهو مصحوب بشذرات من تواريخ ابن الفارقى وسبط ابن الجوزى والذهبى. ويعتبر تاريخ ابن القلانسى من أهم مصادر تاريخ مصر والشام فى القرن السادس الهجرى، وقد رتب المؤلف الحوادث والوقائع على حسب السنين ، حتى وفاته فى ٥٥٥هـ (١١٦٠م) .

أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين :

هو أبو القاسم عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن شهاب الدين المقدسى ، ولد فى دمشق سنة ٥٩٩هـ (١٢٠٢م) واشتغل معلما للقراءات والنحو، ومات مقتولا سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٧م)، وكتابه الروضتين فى أخبار الدولتين (دولة نور الدين محمود بن زنكى ودولة الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب) يتناول الفترة الواقعة بين تاريخ وفاة عماد الدين زنكى والد نور الدين محمود فى سنة ٥٤١هـ حتى أواخر سنة ٥٨٩هـ، وهى السنة التى توفى فيها صلاح الدين، وقد رتب

المؤلف أحداث هذه الفترة حوليا أى حسب السنين . والكتاب طبع فى القاهرة فى جزأين سنة ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م)، ثم طبع مرة ثانية فى جزأين بالقاهرة بتحقيق قام به الأستاذ الدكتور محمد حلمى أحمد وصدر فى ١٩٥٦ .

وقد استعان أبو شامة فى مصنفه بالمصادر والوثائق الرسمية التى سجلها رجال مشهورون ذوو صفة رسمية فى الدولة من أمثال القاضى الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦هـ ، وعماد الدين الأصفهانى المتوفى ٥٩٧هـ (وكتابه الفتح القدسى) وكلاهما تقلد منصب الوزارة فى عهد صلاح الدين ، كما أخذ أبو شامة أيضا عن يحيى بن طى الشيعى المذهب (ت ٦٣٠هـ) وعن ابن شداد (ت ٦٣٢هـ) فى كتابه النوادر السلطانية .

ولكتاب الروضتين ذيل وضعه أبو شامة ويتناول حوادث الفترة ما بين سنتى ٥٩١هـ ، ٦٦٥هـ ، وتوجد منه نسخة خطية بمكتبة بلدية الاسكندرية برقم ٣٥٥٣، ويقع فى ثلاثة أجزاء، كما توجد منه نسخة خطية أخرى فى برلين باسم Sprenger 53 وفى كوبنهاجن تحت رقم ١٥٦ . وقد نشر هذا الذيل بالقاهرة، نشره عزت العطار بعنوان تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ، ويعتبر هذا الذيل فى غاية الأهمية لأن أبا شامة كان مقيما بدمشق ابان الاحتلال المغولى لها سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م). ولذلك فقد تضمن هذا الذيل وصفا تفصيليا لهذا الغزو المغولى .

القاضي بهاء الدين بن شداد، كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

اتصل ابن شداد بخدمة الناصر صلاح الدين، فكان قاضي العسكر، ثم تقلد منصب الوزارة، ثم منصب قاضي القضاة معا في عهد السلطان الظاهر بن صلاح الدين، سلطان حلب، ولذلك يعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر لدراسة تاريخ صلاح الدين، لأنه يشتمل على أدق التفاصيل عن حياة هذا السلطان، تناول فيه مولده وشمائله ووقائعه وفتوحاته، وقد توفي ابن شداد في ٦٣٢هـ (١٢٣٤م).

ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب:

هو القاضي جمال الدين محمد بن سالم الحموي الشافعي، ولد في حماة سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٨م) وفي هذه المدينة قضى أيام طفولته، حيث تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن، ثم صحب أباه مسجد المدينة ومدارسها الدينية وحضر معه مجالسها العلمية، ثم صحبه بعد ذلك في رحلاته خارج حماة، وأتيحت له بذلك الفرصة للاحتكاك بشيوخ عصره والسماع عليهم والاتصال بالأحداث المحيطة، وسجل ذلك في كتابه مفرج الكروب، وقد وصف فيه مشاهداته لهذه الحوادث واشتراكه فيها، وكثيرا ما أشار في كتابه الى الزمان والمكان والى اتصاله بالشخص الذي يعرض له بالحديث. وتنقل ابن واصل بين حماة والمعرة والكرك وحلب، وحضر مجالس صاحب حماة، وهي مجالس علم وحكم، اذ كان أبوه يتولى أنذاك منصب القضاء في

حماة، ثم تولى هذا المنصب فى المعرة، فانتقل معه اليها ابنه جمال الدين حيث قضى فترة ولاية أبيه قضاء هذه المدينة فى الدراسة وتحصيل العلم، وكانت المعرة وقتئذ من أهم المراكز العلمية فى العالم الاسلامى .

ثم عاد مع أبيه الى حماة، ومنها انتقل مع ابيه الى الكرك فى خدمة الملك لناصر داود ، ثم انتقل ابن واصل بعد ذلك الى دمشق واستقر بها منذ سنة ٦٣٥هـ واشتغل بطلب العلم ، والتحق بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأقام بعد ذلك بحلب ، وعكف فيها على دراسة التاريخ، كما عنى بالعلوم العقلية والفلسفية، والف بعض الكتب فى المنطق والطب. على ان أهم ماصنفه ابن واصل هو كتاب مفرج الكروب ، ابتدأ فى تأليفه سنة ٥٣٠هـ، ووصل فى كتابته حتى سنة ٦٦١هـ وهى السنة التى أرسله فيها السلطان الظاهر بيبرس رسولا من قبله الى جزيرة صقلية، ولذلك فان كتابه يعتبر مصدرا رئيسيا لتاريخ الدولة الأيوبية من قيامها حتى سقوطها. وقد عاصر ابن واصل سقوط هذه الدولة وشاهد بنفسه شجرة الدر ، وأطلق عليها اسم شجر الدر ، وتوفى فى ٦٩٧. وكان الكتاب مايزال مخطوطا حتى عهد قريب، ثم قام المرحوم الاستاذ الدكتور جمال الدين الشيال بنشر جزء من القسم الأول صدر فى ثلاثة أجزاء بالقاهرة ١٩٥٣، ١٩٥٨، ١٩٦١ ، ويتضمن هذا القسم الأحداث من سنة ٥٣٠هـ الى ٦٣٢هـ أما القسم الثانى ويشتمل على أحداث الفترة من ٦٣٢ حتى ٦٨٠هـ فكان مخطوطا عنوانه «تاريخ الواصلين فى أخبار الخلفاء والملوك والسلاطين»

وأصل المخطوط محفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس وتوجد نسخة مصورة منه بدار الكتب المصرية برقم ٥٣١٩ت . وقد قام بنشر القسم الثانى من هذا الكتاب كل من الأستاذين الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور والدكتور حسنين ربيع فى مركز التراث ، أما الجزء الرابع فقد صدر بالقاهرة فى ١٩٧٢ ، والخامس ظهر فى ١٩٧٧ .

٢- بعض مصادر تاريخ المماليك

تقى الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك :

هو تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد بن ابراهيم البعلبكى الأصل المصرى المولد ، ولد بحارة برجوان من القاهرة سنة ٧٦٦هـ (١٣٦٤م) فى أسرة اشتهرت بمشاركاتها العلمية فى الشام ومصر ، وشهد فى صباه الحوادث الدامية والاضطرابات العنيفة التى شملت الثلث الأخير من القرن الثامن الهجرى ، وقد تركت هذه الحوادث بصماتها فى كتاباته . ومنذ نشأته الأولى عكف المقريزى على تحصيل العلوم الدينية واللغة ودراسة الفقه والتفسير والحديث هذا بالاضافة الى التاريخ والجرافيا والأدب ، وقد تفاعل المقريزى مع أحداث عصره، وتأثر تأثرا عميقا بمآسى عصره وانعكس ذلك فى كتاباته التاريخية والاقتصادية . وتدرج المقريزى فى شبابه فى سلك الادارة فاشتغل بادىء ذى بدء فى ديوان الانشاء بالقلعة كاتبا، ثم عمل نائبا عند قاضى قضاة الشافعية ثم اماما للجامع الحاكمى ، ثم مدرسا للحديث بالمدرسة المؤيدية . ثم اشتغل بالحسبة فى القاهرة

والوجه البحرى زمن السلطان برقوق، وأتاح له عمله الاحتكاك بأخلاط غير منظمة من المجتمع المصرى فى الأسواق ،فاكتسب خبرة بالأحوال الاقتصادية كالنظر فى الاسعار والعملات والموازين والمكاييل والمقاييس وغير ذلك مما يقتضيه عمله كمحتسب ، وقد سجل ذلك فى كتابه شذور العقود فى ذكر النقود ،وكانت لوفاة ابنته فى سن السادسة بطاعون اجتاح القاهرة والديار المصرية فى سنة ٨٠٦هـ أثر عميق فى حياته، ودفعه ألمه لفقدها الى تأليف كتابه إغاثة الأمة بكشف الغمة . والمقريزى من عمالقة المؤرخين المصريين فى عصر المماليك، وهو صاحب مدرسة تاريخية لها طابعها الخاص فى الكتابة . وكتابه السلوك يعتبر أهم المصادر لتاريخ الايوبيين والمماليك حتى عصره ، وتتسم كتابته فى هذا المصنف بالدقة والعمق والأمانة فى تصوير الوقائع والأحداث ، ولاتخلو من ملاحظات دقيقة عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ترفع من قيمة الكتاب وتجعل من مؤلفه شاهد عدل يروى ما شاهده وعاينه دون تحيز ، وتوفى المقريزى بالقاهرة فى سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١م) .

بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة :

هو ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصورى الدوادار ، عاش فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى والربع الأول من الثامن ، وتوفى سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٥م) ، وكان بيبرس الدوادار من مماليك السلطان المنصور قلاوون ، وقد ولاه لذلك مناصب هامة أهمها نيابة السلطنة

بالديار المصرية . وقد عرف بيبرس الدوادار بميله إلى الكتابة التاريخية ، وله مصنفات فى التاريخ أهمها هذا الكتاب الذى يعد من أهم مصادر تاريخ دولة سلاطين المماليك البحرية، لاسيما مايتعلق بأسرة قلاوون بدءا من المنصور حتى فترة طويلة من سلطنة ابنه الناصر محمد، وقد أفاد بيبرس من عمله نيابة السلطنة فى تسجيل كثير من الحوادث التى عاصرها وعاينها واستطاع ان يميط اللثام عن خبايا المؤامرات التى كانت تدبر فى الخفاء للاطاحة بالسلاطين

ويؤلف كتاب زبدة الفكرة من ١١ مجلدا مازال مخطوطا، وكان المتحف البريطانى بلندن يحتفظ بها ولكن معظمها فقد، ولم يبق من هذا الكتاب سوى أربعة اجزاء : الرابع والخامس والسادس والتاسع . وتحتفظ مكتبة جامعة القاهرة بالجزء التاسع من هذه الأجزاء، ويشتمل على حوادث مصر من ٦٥٦هـ الى سنة ٧٠٩هـ . ويعتبر الكتاب من أهم مصادر تاريخ دولة سلاطين المماليك الأولى ، لأن مؤلفه كان شاهد عيان للحوادث المصر ، كما كان يكتب عن قلاوون وولده الناصر محمد متأثرا بما منحه هو وأبوه من نعم ، وقد حرص المؤلف على مدح المنصور قلاوون فى كثير من المواضع .

أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر :

هو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسماعيل صاحب حماة، بن على بن محمود بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، يرتفع نسبة الى نجم الدين أيوب ، توفى فى سنة ٧٣٢هـ (١٣٣١م)، عرف بغزارة علمه وفضله ، وقد عاصر أبو الفداء كثيرا من أحداث مصر فى

عصر دولة المماليك الأولى وعاين بعض الوقائع كفتح عكا على يد الأشرف خليل بن المنصور قلاوون ، كما شهد ثورة الناصر محمد فى الكرك واستعادته للسلطنة للمرة الثالثة، وشارك فى كثير من أحداث هذه الفترة. وكان من بين الأمراء والنواب الذين قدموا الى الناصر محمد بعد نزوله دمشق قادما من الكرك سنة ٧٠٩هـ (١٣٠٩م) وقد كافأة الناصر محمد على اخلاصه له بأن أعاد اليه حماة فى سنة ٧١٠هـ ، وكان أبو الفداء قد أكرم الناصر محمد أثناء اقامته بالكرك منذ أن اغتصب العادل زين الدين كتبغا ملكه هو وحسام الدين لاشين وبيبرس الجاشنكير ويعتبر كتاب المختصر من أهم مصادر تاريخ دولة المماليك الأولى ، وقد طبع الكتاب فى أربعة أجزاء مرتين ، الأولى فى القسطنطينية سنة ١٢٨٦هـ والثانية فى القاهرة سنة ١٣٢٥ ، ثم طبع أخيرا طبعة ثالثة فى جزأين ، وصدرت طبعة أخرى فى بيروت ١٩٥٦ فى مجلد واحد. ويمتاز الكتاب بأن مؤلفه اشترك بنفسه فى موقعة مرج الصفر على مقربة من حمص ودارت بين الناصر محمد وغازان خان ايلخان مغول فارس سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٣م) .

العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار :

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محيى الدين بن يحيى بن فضل الدين بن مجلى بن دعجان العمرى المتوفى سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) صاحب الموسوعة العظمى الموسومة بمسالك الأبصار فى ممالك الأمصار . ولد العمرى فى ٣ شوال سنة ٧٠٠هـ ونشأ فى أسرة

متمرسة فى العلم والأدب ، والتحق بوظيفة ناظر ديوان الانشاء فى مصر والشام ، واضطلع هو واسرته بمهام هذا الديوان فترة طويلة فى دولة المماليك ،وكان العمرى واحدا من الكتاب العظام الذين أسهموا بنصيب وافر فى الأدب وكان يحرر التفاويض التى كان الخليفة يمنحها للسلاطين عند اعتلائهم دست السلطنة، ولم تخرج رئاسة ديوان الانشاء عن بيت ابن فضل الله العمرى الا مرات قليلة على الرغم من أن عصر دولة سلاطين المماليك كان عصرا زاخرا برجال العلم والأدب ، مما يدل على مكانة هذا البيت فى هذا المصر . وكتاب مسالك الأبصار موسوعة ضخمة تتألف من عشرين جزءا أشبه ما تكون بدائرة معارف تاريخية وجغرافية وعمرانية وأدبية، وهو من المصادر الهامة فى التاريخ الاسلامى بوجه عام ،وقد ابتداء المؤلف بأقاليم المشرق واختتمه بأقاليم المغرب ، ويعبر الصفدى عن اتساع معارف العمرى بقوله :

«ولم أر من يعرف تواريخ ملوك المغل من لدن جنكيز خان وهلم جرا معرفته وكذلك ملوك الهند والأتراك ، وأما معرفة الممالك والمسالك وخطوط الأقاليم ومواقع البلدان وخواصها فانه فيها امام وقته . وقد التزم ابن فضل الله العمرى بالدقة فى تحرى الحقائق مع تقصى التفاصيل ، وهذا المنهج سجله فى مقدمة كتابه فقال :« ولم أنقل الا عن أعيان الثقات من ذوى التدقيق فى النظر والتحقيق للرؤية، واستكثرت ما امكننى من السؤال عن كل مملكة لآمن من تغفل الغفلاء ، وتخيل الجهالات الضالة ، وتحريف الأفهام الفاسدة» : لذلك اعتبر كل من كتب فى التاريخ الاسلامى لاسيما فى عصر المماليك

هذا الكتاب مصدرا أساسيا لتاريخ مصر والشام والمغرب الاسلامى لاسيما ما يتعلق بالعمران والتجارة ،وقد نشر أحمد زكى باشا الجزء الأول من الكتاب وصدر بالقاهرة فى ١٩٢٤، وللعمرى كتاب آخر على جانب كبير من الأهمية عنوانه: التعريف بالمصطلح الشريف ، وقد نشر هذا الكتاب فى القاهرة سنة ١٣١٢هـ ، وينقسم إلى سبعة أقسام الأول فى رتب المكاتبات ، والثانى فى العهود والتقاليد والتواقيع والتفاويض والمراسيم والمناشير ،والثالث فى نسخ الايمان والرابع فى الأمانات والهدنات والمواصفات والمناسخات ، والخامس فى نطاق كل مملكة وماهو مضاف اليها من المدن والقلاع والرساتيق والسادس فى مراكز البريد والحمام وغير ذلك والسابع فى أوصاف ماتدعوا لحاجة الى وصفه. ويتضمن الكتاب دراسة عن دولة المماليك والدول التى كانت ترتبط معها بعلاقات سياسية ، وأورد فيه معلومات هامة وتفاصيل قيمة عن نظم الحكم والادارة فى دولة المماليك .

القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الانشا :

هو شهاب الدين أحمد بن عبد الله القلقشندى، ولد ببلدة قلقشنده فى سنة ٧٥٦هـ وتوفى سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م)، وهو صاحب الموسوعة الكبرى « صبح الأعشى فى صناعة الانشا » التى تضم قدرا هاما من المعارف الانسانية، اعتمد فى كثير من فصوله على كتاب مسالك الأبصار للعمرى ، فنقل منه كثيرا، ولكنه يفوق كتاب المسالك فيما اشتمل عليه من العلوم والمعارف والمراسلات والعهود

والتواقيع والمراسيم، واهتم بالتقسيمات الادارية والوظائف بأنواعها وسجل من خلال ما جمعه من مادة تاريخية وجغرافية وعمرانية صورة واضحة للمجتمع المصرى فى عصر المماليك

العينى، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان:

هو بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد المعروف بالعينى ولد فى بلدة عينتاب وتقع بين حلب وأنطاكية، وكان أبوه يشتغل قاضيا لهذه المدينة، فنشأ العينى فى بيئة علمية، فسمع على شيوخ بلده ثم رحل سعيا للعلم والتماسا لتحصيله من منابعه، واستقر مطافه بالقاهرة حيث عمل بالتدريس، وتولى الحسبة فى سنة ٨٠١هـ (١٣٩٩م)، وللعينى العديد من المصنفات والتواليف فى التفسير والحديث والفقه وفى التاريخ والمنطق واللغة، ويعتبر كتابه نظم الجمان على رأس مؤلفاته التاريخية، وقد تناول فيه دراسة للتاريخ العام العالمى منذ بدء الخليقة حتى سنة ٨٥٠هـ (١٤٤٦م). والكتاب يتألف من ٢٣ جزءا فى ٦٩ مجلدا. والكتاب ثروة تاريخية كبرى اذ أمكنه بحكم اتصاله بالبلاط السلطانى الاطلاع على وثائق نادرة جعلت من هذا الكتاب من أهم مصادر التاريخ المملوكى .

ونضيف الى هذه المصادر الهامة عددا آخر له أهميته بالنسبة لتاريخ دولة سلاطين المماليك لا محال لعرضها والتعريف بها، ونكتفى بذكر أسماء بعضها وهى :

كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، لجمال الدين

يوسف بن تغرى بردى المتوفى ٨٧٤ (١٤٦٩م) وكان تلميذا للمقريزى والعينى وشارك فى كثير من الأحداث التى جرت فى عهده .

وكتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المعروف بالنويرى المتوفى سنة ٧٣٣ (١٣٣٢م)، عاش النويرى فى عصر دولة المماليك الأولى ، وحظى بمكانة سامية لدى السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى رفع منزلته وأدناه اليه وأسند اليه مناصب رفيعة، أفاد منها النويرى فى كتاباته، التى تتسم بالدقة والأمانة والواقعية، اذ كان معاصرا للأحداث معاينا لها ، واشترك فى ثورة الناصر محمد بالكرك ، وكتاب البداية والنهاية لعماد الدين اسماعيل بن أبى حفص عمر بن كثير الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤هـ (١٣٧٢م) وكان على حد قول أبى المحاسن « قدوة العلماء والحفاظ وعمدة أهل المعانى والالفاظ » ، وكان متبحرا فى علوم الحديث والتفسير ، ملما بأخبار الأمم وتواريخها، والتزم فى كتابته التاريخية بالمنهج الحولى متأثرا فى ذلك بابن الأثير .

ومن المراجع الهامة فى تاريخ الأيوبيين والمماليك نذكر على سبيل المثال كتاب مصر فى عصر الأيوبيين للدكتور السيد الباز العرينى ، ومصر فى عصر دولة المماليك البحرية للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، والعصر المماليكى فى مصر والشام لنفس المؤلف ، ودراسات فى تاريخ المماليك البحرية للدكتور على ابراهيم حسن، والظاهر بيبرس

وحضارة مصر فى عصره للدكتور محمد جمال الدين سرور ، ونظم المماليك ورسومهم فى مصر للدكتور عبد المنعم ماجد ، ودولة المماليك الأولى للدكتور أحمد مختار العبادى ، ومصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة للدكتور على ابراهيم طرخان ، ودولة بنى قلاوون فى مصر للدكتور جمال الدين سرور ، والمماليك والفرنج للدكتور أحمد دراج .

تمهيد تاريخي

لم يكد القرن الخامس الهجرى يشرف على منتصفه حتى كانت الدولة العباسية تبدو على وشك الانهيار ، فقد توالت الانفصالات ، وتعددت الخلافة فأصبحت ثلاثا : واحدة سنية فى الاندلس ، وخلافة شيعية فى مصر وخلافة سنية فى بغداد ، أما خلافة الاندلس فلا تعنينا فى شىء ، وكل ما يعنينا خلافتى مصر والعراق ، وكانتا قد نال منهما الضعف والأعياء فى أواخر القرن الخامس ، وكان مصيرهما ينتظر أحد أمرين لابد منهما ، إما دم حربى جديد يبدل هذا الضعف قوة ويوحد ماتبعثر ، ويقود الى النصر، وإما غزو اجنبى يقضى على البقية الباقية من قواهما الخائرة، ويرث هذا المجد الذى جهدت الأجيال السابقة فى تأسيسه ودعمه. وقد كان ممثلو هذين الاحتمالين يتراءون أنذاك فى الأفق التاريخى ، ويمثل الأول الأتراك السلاجقة، ويمثل الثانى الصليبيون . وقد كان من حسن طالع العالم الاسلامى ان سبق السلاجقة الى الظهور، ولو أن الصليبيين سبقوهم فى الظهورلتغير وجه التاريخ .

وعلى الرغم من استبداد السلاجقة بسلطان الخلافة السياسى، فقد عمل سلاطين السلاجقة على لم شمل المسلمين جميعا، ففى عهد السلطان ألب أرسلان الذى تولى السلطنة بعد عمه طغرلبك سنة ٤٥٥هـ ، انساح السلاجقة من العراق الى شمال الجزيرة، وتمكنوا من

السيطرة على قبائل الكرد والأرمن، وأصبحت دولة السلاجقة القوة الاسلامية الحقيقية التى كانت تبسط سلطانها على الشرق الأدنى فى أواخر القرن الخامس الهجرى، واوائل السادس، وكان ملكها يمتد أنذاك من حدود بلاد الأفغان شرقا الى حدود الدولتين البيزنطية والفاطمية غربا، وبرز من سلاطين السلاجقة الأوائل ثلاثة سلاطين عظام هم على التوالى: طغرلبك، ألب أرسلان، ملكشاه. وقد قنع هؤلاء فى سياستهم الداخلية بالسلطان الدنيوى وتركوا للخليفة لعباسى السلطان الروحى [1]. أما فيما يتعلق بسياستهم الخارجية وخاصة مع دولة الروم أو الدولة البيزنطية، فقد لجأوا الى السيف وواصلوا الزحف الى أبواب آسيا الصغرى، وحاربوا بيزنطة فهزموا جيوشها وأسروا أحد أباطرتهم وهو الامبراطور رومانوس ديوجانيس Romanos Diogenes الذى يسميه العرب ارمانوس فى موقعة ملاذكرد على الفرات الأعلى سنة ٤٦٣هـ (١٠٧١م)، فجاءوا به منبطحا على وجهه ليضع ألب أرسلان قدمه على رقبته على العادة التركية.

وهكذا تقدم المسلمون لأول مرة فى أملاك الدولة البيزنطية، وضموا أجزاء واسعة من أراضى آسيا الصغرى لأملاكهم، ثم أن

(١) لم يعد للخليفة العباسى من سلطان سوى ذكر اسمه فى الخطبة ونقش اسمه على السكة، ومما يروى عن ضعف الخليفة ماذكره السيوطى من أن ملكشاه السلجوقى أصر على طرد الخليفة المقتدى بأمر الله (٤٦٧هـ) من بغداد فى سنة ٤٨٥هـ لتدخله فى شئون الحكم فأرسل اليه يقول «لابد أن تترك لى بغداد وتذهب الى أى بلد شئت» فانزعج الخليفة وقال: امهلنى ولو شهرا، قال: «ولا ساعة واحدة. فأرسل الخليفة الى وزير السلطان يطلب المهلة الى عشرة أيام، فاتفق مرض السلطان وموته، وعد ذلك كرامة للخليفة»

السلاجقة فتحوا أبواب آسيا الصغرى الشرقية أمام هجرات الترك، وفى عهد ملكشاه الذى خلف أباه ألب ارسلان فى سنة ٤٦٥هـ (١٠٧٢م) استولى السلاجقة على حلب والموصل وقضوا على سيطرة القبائل العربية فى اقليم الجزيرة، ثم زحفوا الى سورية بقيادة تتش بن ألب أرسلان الذى أذن له أخوه ملكشاه بفتح الشام ومصر والمغرب، فاستولى على دمشق والقدس، ووصلت طلائعه الى حدود مصر الشرقية.

غير أن هذه الدولة السلجوقية لم تلبث بعد وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) ان تفككت أوصالها وتمزقت الى دويلات صغيرة، فقد ترك ملكشاه من الأبناء أربعة انقسمت دولة السلاجقة بينهم فى العراق والجزيرة وخراسان وفارس، ثم تنافس أعمام ملكشاه وأبناؤهم فى ولايات المشرق بكرمان وبلخ وخوارزم وطخارستان. هذه هى الظاهرة الأولى الواضحة فى تاريخ الشرق الأدنى فى أواخر القرن الخامس وأوائل السادس، وهى ظهور الأتراك السلاجقة وسيادتهم على بلدان الشرق الأدنى وتقدمهم فى قلب آسيا. أما الظاهرة الثانية فتتمثل فى ظهور الأتابكة، وكلمة أتابك تركية، تتكون من مقطعين أطا بمعنى مربى أو أب، وبك بمعنى الأمير، وأصبحت اللفظة تطلق على الأمراء أو القواد الذين كان يعهد اليهم بتربية أمراء السلاجقة حديثى السن، وتدريبهم على شؤون الحكم والسلطان، وذلك أن الدولة السلجوقية لما تفككت وحدتها وانفصلت الى دويلات، كان يليها بعض الأمراء صغار السن، فكان سلاطين السلاجقة يعهدون الى كبار أمراء جيوشهم وقوادهم

بالاشراف على شؤون هؤلاء الصغار وتربيتهم ، لم استبد بعض هؤلاء الأتابكة بالحكم، واستقلوا ببعض اجزاء الدولة ، وكونوا دويلات كثيرة متحاسدة ومتنافرة في القرن السادس الهجرى ، وورث بعض ملك السلاجقة أهمها :

١ - أتابكية دمشق (٤٦٧ - ٥٤٩) :

وتنسب الى طغتكين أحد قواد الجيش السلجوقي ، وكان مملوكا للسلطان تتش بن ألب أرسلان الذى كان واليا على دمشق عندما توفى ملكشاه ،واستمرت هذه الأتابكية تحت نفوذ أسرة طغتكين الى أن آل أمرها الى أسرة زنكي سنة ٥٤٩هـ عندما استولى عليها نور الدين محمود ليقوى بها نفوذه ضد الصليبيين، ثم انتقلت بعد ذلك الى الأيوبيين .

٢ - أتابكية الموصل (٥١٦ - ٦٦٠هـ) :

وكانت هذه الأتابكية أهم دول الأتابكية جميعا نظرا لاتساع رقعتها بحيث شملت بلاد العراق وبلاد الشام، وتنسب هذه الأتابكية الى عماد الدين زنكي بن أقسنقر . وكان أقسنقر مملوكا تركيا من مماليك ملكشاه، تربى معه منذ صغره ، فلما تولى ملكشاه السلطنة قربه اليه ورفع مكانته، وأصبح له من المنزلة ما كان لنظام الملك. حتى انه سماه قسيم الدولة وأقطعه حلب وأعمالها وحماة ومنبج واللاذقية بالاضافة الى مدينة تكريت التى ضمها الى ممتلكاته بعد وفاة ملكشاه

ثم قتل أقسنقر فى حروب الوراثة السلجوقية سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) وترك ابنا صغيرا عمره عشر سنوات هو عماد الدين زنكى ، وأقام عماد الدين فى كنف أحد أصحاب أبيه اسمه قربوجا أمير الموصل ، فعاش فيها زنكى عيشة أبناء الأمراء ، وشارك فى أحداثها ووقائعها حتى قيل أنه رافق قربوجا عند غزوه لمدينة طبرية التى كانت تتبع الفرنجة أنذاك ، وبذل جهودا هائلة فى مهاجمة قلعة طبرية مع بعض رجاله ، وأبدى من ضروب الشجاعة والاقدام ما جعله يلقب باسم زنكى الشامى [1] وبفضل شجاعته أخذ يتولى حكم كثير من المدن، ففى سنة ٥١٦هـ تولى شحنكية مدينة واسط ، وفى سنة ٥١٨ أضيفت اليه البصرة، فأظلها بحمايته ومنعها من دسائس العرب ، وانتهى به الأمر أن أصبح أميرا على الموصل وما حولها من مدن كالجزيرة ونصيبين فى الوقت الذى استفحل فيه الخطر الصليبى فى بلاد الشام. وحدث ان تنازع السلطان مسعود السلجوقى ضد أخيه سلجوق شاه، واستعان بزنكى صاحب الموصل، غير أن زنكى انهزم بمن معه قرب تكريت ، فلجأ الى واليها نجم الدين أيوب الذى كان يتولاها من قبل بهروز الرومى، فسهل عليه نجم الدين عبور نهر دجلة ليصل سالما الى الموصل مقر دولته. وقد تسبب ذلك فى غضب بهروز عليه، فعزله من منصبه، واضطر نجم الدين الى الرحيل هو وآله من تكريت الى الموصل حيث نزل فى كنف زنكى وكان زنكى يسعى جاهدا لتكوين جبهة اسلامية متحدة لدفع الصليبيين ، من الشام وفلسطين وكان يحدوه

(١) سيد الباز العرينى ، مصر فى عصر الايوبيين ، سلسلة الألف كتاب رقم ٢٦٩ ، ص ١٥

الأمل فى أن يتم تخليص الشام من السيطرة الصليبية على يديه، وتمكن من الاستيلاء على حلب سنة ٥٢٢هـ (١١٢٨م) وأنقذها بذلك من التهديد الصليبي المتواصل لها، ثم حاول الاستيلاء على امارة دمشق وما حولها، لاسيما بعلبك التى تسيطر على اقليم البقاع، وقد نجح زنكى فى تحقيق هدفه بفضل مساعدة نجم الدين أيوب وأخيه شيركوه، ولم يتردد زنكى فى تحقيق هدفه بفضل مساعدة نجم الدين أيوب وأخيه شيركوه، ولم يتردد زنكى فى تقليد أكبر الأخوين على بعلبك سنة ٥٣٣هـ واختتم زنكى حياته الحربية باجلاء الصليبيين عن الرها قاعدة الامارة الصليبية الرابعة فى سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م)، وكان استيلاؤه عليها انتصارا ساحقا للمسلمين [١] وبما يدل على أهمية هذه المدينة فى نظر الصليبيين أنهم اعتبروا ضياعها من أيديهم بداية لنهاية النفوذ الصليبي فى بلاد الشام أو كما يقول باركر بداية النهاية، ثم قتل عماد الدين زنكى سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) على يد أحد غلمانه فى أثناء نومه وخلفه ابنه سيف الدين غازى على الموصل، بينما ولى ابنه الأصغر نور الدين محمود على حلب .

٢- أتابكية أرمينية (٤٩٣ - ٦٠٤هـ) :

اسسها سقمان القطبى مملوك قطب الدين اسماعيل الحاكم السلجوقى فى مدينة مرند بأذربيجان .

(١) عن سقوط الرها انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج١ ص ٩٤ .

٤- أتابكية خوارزم (٤٧٠-٦٢٨هـ):

كانت احدى دويلات الأتابكية التى كان لها شأنها قبيل الغزو المغولى، وتنسب الى توشتكين التركى الساقى فى بلاط السلطان ملكشاه، وكان لابنه محمد شهرة واسعة فى العلوم والآداب، فأقامه السلطان بركياروق بن ملكشاه حاكما على اقليم خوارزم، ومنحه لقب شاه، وقد سقطت هذه الدولة على أيدى المغول.

xxx

والحديث عن دولة الأتابكة فى الموصل وحلب وجهادهم ضد القوى الصليبية فى الشام يقودنا الى الظاهرة الثالثة الواضحة فى تاريخ الشرق الأدنى أنذاك وهى الصليبيون، ففى أواخر القرن الخامس الهجرى وبالذات فى سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٦م) أغار الصليبيون على سواحل الشام فى حملتهم الأولى، واستطاعوا أن يقتطعوا هذه السواحل ويؤسسوا بها دويلات لاتينية ثلاثة بالإضافة الى امارة الرها هى: امارة أنطاكية وامارة طرابلس ومملكة بيت المقدس. وقصة الحروب الصليبية فى بدايتها تتلخص فى أن أباطرة القسطنطينية عندما ضاقوا ذرعا بحملات السلاجقة وانتصاراتهم أرسلوا يستغيثون بالمسيحيين فى الغرب، أرسل هذه الصرخة الأمبراطور الكسيوس كومنين الى البابا أوربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩م) وهو أول البابا يلتجىء من ايطاليا الى فرنسا ويعهد الى بطرس الراهب بالدعوة للحرب المقدسة ضد المسلمين لتخليص الأماكن المقدسة، وكانت فرنسا بذلك أول داعية

لحرب المسلمين . فانعقد فى كليرمون فران (بجنوبى فرنسا) مجلس دينى برئاسة ارمان الثانى اجتمع فيه الفرنجة من جميع انحاء أوربا وذلك فى سنة ١٠٩٥م . وفى هذا المجلس خطب البابا وقال : انه من الواجب على النصارى أن يحموا أرواحهم بالذهاب فى طريق المسيح، وإذا لم يستطيعوا الى ذلك سبيلا فليقدموا أموالهم. وقال بطرس الناسك : انى نظرت قبر المسيح محتقرا مهانا وزواره مضطهدون » فارتفع صوت الحاضرين يطالبون بالحرب وهم يرددون « الله يريد ذلك » . تحرك الصليبيون عبر وسط أوروبا، ولكنهم انهزموا فى آسيا الصغرى على أيدى السلاجقة وقتل منهم عدد هائل . وفى نفس الوقت قامت تجمعات كبيرة،أخرى معظمها من فرسان الفرنجة أكثر تنظيما من الحشود السابقة، واشترك فيها قواد ذوو أسماء لامعة ومنهم جود فروا دى بويون Godfroi de Bouillon دوق اللورين الادنى ، ويسميه العرب كندفرى، ومنهم أيضا بودوان Baudouin ويسميه العرب بغدوين ، وكذلك بوهمند النورمندى Bohemond ويعرف فى المصادر العربية باسم بيمند وابن أخيه تنكريد وريمون دى سان جيل . وعبرت هذه الحشود بحر مرمرة الى بلاد السلاجقة، واستولوا على نيقية، ثم حاصروا أنطاكية واستولوا عليها سنة ٤٩٢هـ وذبحوا معظم سكانها المسلمين، ويرجع السبب فى سقوطها الى تراخى أمراء الشام المسلمين فى نجدتها [1] ثم تمكن جماعة من أتباع الكونت ريمون دى سان جيل

(١) يذكر الدكتور عمر كمال توفيق أن بوهمن تواطأ مع أحد قواد الحامية الاسلامية بأنطاكية الذى أدلى له سلما تسلقه بوهمند ورجاله الى برج المدينة وفتحوا أحد أبوابها (انظر عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية ، الإسكندرية ، ١٩٥٨ ، ص ١٥).

المعروف بالصنجيلي كونت دى تولوز من الاستيلاء على قلعة تل مسى، وسرعان ما توغلت قوات ريمون الصنجيلي في الأراضي الاسلامية واستولت على بلدة البارة[1] ، وعجز الفاطميون عن ايقاف من تدفق من الفرنجة في عمق البلاد. وتابع الصليبيون زحفهم واستولوا في طريقهم الى بيت المقدس على معرة النعمان وارتكبوا فيها من الفظائع وسفك الدماء، ماتجزع له النفوس ، وأذعن لهم أمير شيزر بالطاعة، كما عقد معهم صاحب قلعة مصياف اتفاقا في ٤٩٣هـ (٢٢ يناير ١٠٩٩م) وتابعوا زحفهم الى بعرين ورفنية والبقيعة وحصن الاكراد ثم الى عرقة وانطرطوس التي سقطت في ١٧ فبراير سنة ١٠٩٩م، ثم سلكوا الطريق المارة بطرابلس والبترون وجبيل وبيروت في طريقهم الى بيت المقدس ، ومن بيروت تابع الصليبيون تقدمهم نحو الجنوب مرورا بصيدا وصور وعكا ثم انحرفوا شرقا قرب ارسوف نحو بيت المقدس التي وصلوا أمام أسوارها في ٧ يونيو ١٠٩٩ وشرعوا على الفور في حصارها ، ثم اقتحموا المدينة ودخلوها في ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢ (١٤ يوليو ١٠٩٩) ويذكر ابن الأثير انهم قتلوا كل من كان في المدينة، ولبث الفرنج يقتلون المسلمين أسبوعا ، وقتلوا بالمسجد الاقصى مايزيد على سبعين الفا، وأخذوا من الصخرة أكثر من بعين قنديلا من الفضة وأخرى من الذهب[2] ولم ينكر وليم الصوري وقوع هذه المذبحة. فقد وصف المدينة بأنها أصبحت «مخاضة

(١) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة وتعليق الدكتور حسن حبشي القاهرة ١٩٥٨ ص ١٠٦ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جـ٨ حوادث سنة ٤٩١هـ ص ١٨٩ .

٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٢٤٤ .

واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم » . ومن الجدير بالذكر أن الصليبيين حولوا جميع المساجد ببيت المقدس الى كنائس، وتحول المسجد الأقصى الى كنيسة للداوية سميت قصر سليمان، وذكر روسيه Rousset استنادا الى ماتيو الرهاوى أن جودفروى ذبح ٦٥ ألف مسلم فى المعبد [1] أثارت هذه الجرائم مشاعر المسلمين فى الشرق الأدنى الاسلامى، ولم تكن الخلافتان العباسية والفاطمية من القوة بحيث تستطيعان رد هذا العدوان، وعلى الرغم من ذلك فان الأفضل لم يسكت على هذا العدوان أكثر مما سكت ، فحشد قواته وتقدم على رأس جيش كثيف الى عسقلان لاسترداد بيت المقدس فى رمضان سنة ٤٩٢هـ ، وأقام فى عسقلان انتظارا للنجدات التى وعده بها عرب فلسطين ، وأرسل الى الصليبيين ينكر عليهم مافعلوه ويتهددهم ، ولكنه أخطأ بهذا الانتظار الطويل ، اذ أتاح للصليبيين الفرصة لتجميع شتاتهم ومباغتته بالهجوم ، وأوقعت به الهزيمة فى عسقلان، ويذكر ابن القلانسى أن سيوف الفرنج تمكنت من المسلمين فأتى القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس، ونهب العسكر » [2] .

ولم تنته سنة ٤٩٦هـ (١١٠٣م) حتى كان الملك جودفروى [3] قد ملك كل فلسطين ماعدا عسقلان التى بقيت وحدها تجاهد الفرنج

(1) Rousset, Histoire des Croisades, Paris, 1957, p. 103.

(٢) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧

(٣) كان جودفروى قد اختير ملكا على بيت المقدس فى ٢٢ يوليو سنة ١٠٩٩، كما اختير أرنولف مالكورن بطريقا لبيت المقدس فى أول أغسطس من السنة ولم يطل العهد بجودفروى اذ توفى فى العام التالى وخلفه أخوه بلدوين على مملكة بيت المقدس

حتى سقطت بدورها في سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م). واستولى الفرنج على طرابلس في ١١ من ذى الحجة سنة ٥٠٢هـ (١١٠٨م)، ونهبوا ما فيها، وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها، وملأوا أيديهم بما غنموه من أمتعتها وذخائرها ودفاتر دار علمها[1]. كما سقطت بيروت في سنة ٥٠٣هـ (١١٠٩م) وصيدا في ٥٠٤هـ (١١١٠)، وصور في ٥١٨هـ. ولم تتوقف مطامع الصليبيين عند هذا الحد، بل انهم تطلعوا الى فتح مصر بسبب ضعف الجبهة الاسلامية. وكان هم بلدوين غزوها فمضى بقواته ليستكشف طريق الغزو، وتوغل فى سيناء ودخل الفرما على الساحل وافتتحها سنة ٥٠٩هـ (١١١٥م)، ولكن عسكر الفاطميين المرابطين في الشرقية حاربوه، كما أسرع الافضل شاهنشاه بتوجيه العساكر الرئيسية من القاهرة، فاضطر بلدوين الى الانسحاب[2]، ومات في طريق عودته، وحملت جثته لتدفن في كنيسة القيامة.

ولم يقف في وجه الفرنج من ملوك المسلمين وأمرائهم سوى أتابكة الموصل وعلى رأسهم عماد الدين زنكي الذى تمكن من استرداد الرها في سنة ٥٣٩هـ، وكان لاسترداد المسلمين للرها رد فعل قوي في أوربا، فكان حافزا لارسال الحملة الصليبية الثانية، ووصلت هذه الحملة وقد مات عماد الدين زنكي، وخلفه على حلب ابنه نور الدين محمود، وكانت سياسة نور الدين أن يوحد البلاد الشامية تحت سلطانه ويركز قواه ضد الصليبيين. أما هؤلاء فقد حاولوا

---

(١) ابن القلانسي، ص ١٦٣ - ابن الاثير، ج٨ ص ٢٥٩.

(٢) ترك بلدوين اسمه على بحيرة البردويل

استرداد الرها، منتهزين فرصة استشهاد عماد الدين زنكى ، ولكن نور الدين محمود تصدى لهم واحبط محاولتهم ، ثم نزلت الحملة الصليبية الثانية على بلاد الشام، وكان هدفها الأول استخلاص الرها من أيدي المسلمين ، غير أن زعماءها انحرفوا عن هدفهم الأصلى واتجهوا الى دمشق ، وارتكبوا بذلك خطئا سياسيا كبيرا ، اذ كان صاحب دمشق الحليف الوحيد للصليبيين ضد نور الدين ، وقد فشلت الحملة الصليبية، ووجد نور الدين نفسه مضطرا الى الاستيلاء على دمشق ليتحصن بها ضد الصليبيين ، وتم له ماأراده سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) بفضل جهود نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه ، وفى دمشق قضى صلاح الدين يوسف شبابه، أما أسد الدين شيركوه عمه فقد ظل فى خدمة نور الدين بحلب .

بينما كان الصليبيون يثبتون أقدامهم فى الشام بعد أن أسسوا مملكة صليبية فى بيت المقدس وامارات صليبية فى طرابلس وأنطاكية كانت الدولة الفاطمية تسير بخطى حثيثة نحو نهايتها المحتومة، بعد أن حكمت مصر ما يقرب من قرنين من الزمان ويرجع هذا الضعف والاضمحلال الى العوامل الآتية :

١ - تعدد الأجناس التى يتألف منها الجيش الفاطمى :

كان الجيش الفاطمى يتألف من عناصر متباينة ومتنافرة فى آن واحد، فقد اعتمد الفاطميون عند بداية دولتهم فى مصر على المغاربة فى تكوين هذا الجيش ، فكان من قواده جعفر بن فلاح الكتامى، وسعادة بن حيان، فلما اعتلى العزيز بالله دست الخلافة ، اصطنع عسكره من الأتراك، فى حين استكثر الحاكم بأمر الله من العنصر السودانى فى الجيش ، وازداد عددهم زيادة هائلة فى عهد المستنصر بالله لكون أمه سوداء، وقد غلب هذا العنصر السودانى فى الجيش الفاطمى منذ النصف الثانى من عصر المستنصر . وترتب على تعدد العناصر المكونة للجيش الفاطمى أن قام النزاع بين مختلف أجناسه، وأصبحت شوارع القاهرة مسرحا لمعاركهم ومرتعا للفوضى والاضطرابات واختل ميزان الأمن فى طول البلاد وعرضها، فبينما كان الاتراك يسيطرون على القاهرة فى أيام المستنصر بالله كان السودانيون

يحكمو، الصعيد، وق قا، يين الفريقين معارك طاحنة وقف فيها عسكر المغاربة الى جانب لاتراك، فأوقعوا الهزيمة بالسودانيين في موقعة كوم ،ريش بالصعيد سنة ٤٥٤هـ، واستقر من السودان نحو ١٥ الفا في الصعيد حتى اتخذوه قاعدة يشنون منها غاراتهم المتواصلة على القاهرة، أما الأتراك فقد استفحل عتوهم بعد أن خلالهم الجو، فلجأوا الى القوة في سبيل الحصول على أرزاقهم، ونهبوا القصور والدور، وفي نفس الوقت استبد أبو محمد ناصر الدولة الحسن بن حمدان بأمور الدولة، وزادت مطالبته بالاموال، وأخرج جميع مافي القصر من ثياب وأثاث وباعها بأبخس الأثمان، وحالف الاتراك سرا على المستنصر، وحارب العبيد السودان بالقرب من الاسكندرية في موضع يعرف بالكرم فقتل منهم أعدادا كبيرة ثم حاصر فلهم بالاسكندرية وألح في مقاتلتهم حتى سألوه الامان، فأخرجهم منها ثم استبد بسلطة البلاد، واصطدم مع قوات الاتراك برئاسة الدكز الملقب بأسد الدولة شيخ الاتراك والمقدم عليهم واشتبك هذا مع قوات ابن حمدان بالباب الجديد في القاهرة، وأسفرت الوقعة عن هزيمة ابن حمدان وفراره الى الاسكندرية في سنة ٤٦١ حيث نزل في حي من أحياء عرب البحيرة وهم بنو سنبس، وتزوج منهم، ثم شرع في شن الغارات على أعمال مصر، واشتد خطره حتى انتهى الأمر الى محاصرة القاهرة، وقطع الميرة والأرزاق عنها، ونهب أكثر الوجه البحري وقطع منه الخطبة للمستنصر،ودعا للقائم بأمر الله العباسي في الاسكندرية ودمياط وجميع منابر الوجه البحري، فاضطر المستنصر الى تسليم قياده له. ثم انقلب ابن حمدان على الدكز،فوثب

عليه الدكز وقتله سنة ٤٦٥هـ ، وتتبع اقاربه وذويه بالقتل، واستبد الدكز بدوره، مما اضطر المستنصر الى الاستنجاد ببدر الجمالي والي عكا ، فقدم الى مصر في سنة ٤٦٧ ، وقبض على الدكز وقتله وقد تسبب النزاع بين طوائف الجيش المختلفة واحتدام المعارك بينها في حلول النكبات بالدولة الفاطمية، وشلل الاقتصاد المصري ، واختلال ميزان الأمن في البلاد .

٢- الشدة المستنصرية والأوبئة :

منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري حلت بالبلاد أزمة اقتصادية طاحنة بسبب نقص مياه النيل بدرجة مخيفة وحلول الجفاف بالاراضي الزراعية، هذا الى كثرة الشغب واندلاع نار الفتن في البلاد، فانتشرت المجاعات، وعم القحط أنحاء البلاد ، وانقطع الغذاء والاقوات عن أسواق القاهرة، وتفشى الوباء ، وكثر عدد الموتى حتى تكدست جثثهم في الطرقات - ويطلق المؤرخون على هذه الفترة السيئة من تاريخ مصر اسم الشدة العظمى أو الشدة المستنصرية بسبب ماجرى فيها من كوارث وما ترتب عليها من مصائب ونكبات كانت من أسباب زوال هيبة الخلافة ، وقد استغرقت هذه الشدة نحوا من سبع سنوات ولم تنته الا بعد وصول بدر الجمالي الى القاهرة وشروعه في انقاذ البلاد من محنتها .

٣- منازعة أهل السنة للفاطميين :

على الرغم من اتساع أملاك الدولة الفاطمية في مصر والشام وافريقية بالمغرب ، وعظم سلطانها وكثرة ما كانت تنفقه من أموال

لنشر المذهب الاسماعيلي في البلاد فانها لم تستطع أن تجتذب اليها أهل السنة لاسيما في الاسكندرية التي لم يتحول أهلها عن مذهبهم السني، كما نلاحظ أنه أقيمت بالاسكندرية مدرستان سنيتان قبل أن ينتشر نظام المدارس السلجوقية في مصر، أقدمها المدرسة العوفية أو الحافظية التي أسسها الوزير رضوان بن ولخشي سنة ٥٣٢هـ (١١٣٨م) في خلافة الحافظ لدين الدين وتولى التدريس فيها الفقيه أبو الطاهر بن عوف شيخ المالكية في الاسكندرية، أما الثانية فهي المدرسة السلفية نسبة الى مدرسها الحافظ أبي الطاهر أحمد بن محمد السلفي وسميت أيضا بالعادلية نسبة الى مؤسسها الوزير علي بن السلار الذي أنشأها سنة ٥٤٤ هـ.

ونلاحظ أيضا أن بعض وزراء الدولة الفاطمية كانوا من السنة، ومنهم على بن السلار ورضوان بن ولخشي اللذان أنشأ المدرستين المذكورتين لمحاربة المذهب الاسماعيلي برغم أن ذلك الاتجاه يتعارض مع مذهب الدولة ويثير في نفس الوقت العجب، اذ كيف يتولى الوزارة وزير سني في دولة مذهبها شيعي ؟ وقد أطاح ذلك بما بقي من هيبة الخلفاء «عجل بانهيار الدولة «ولايفوتنا أن نذكر في هذا الصدد الوزير الافضل شاهنشاه وما فعله في خلافة الآمر بأحكام الله، فقد أصبح يميل للسنة ويتعصب لهم، ويتجلى ذلك في الغائه الاحتفال بمولد النبي ومولد ابنته فاطمة الزهراء ومولد الخليفة الآمر، واغلاقه لدار العلم التي كان قد أنشأها الحاكم بأمر الله لنشر المذهب الشيعي، ولايخفى علينا أن عمله هذا كان كافيا في حد ذاته لهدم دعائم الحكم الفاطمي الذي يعتمد في الدعوة الفاطمية على كون الفاطميين من

سلالة على وفاطمة الزهراء .

٤ - تأليه الدروز للحاكم بأمر الله :

فقدت الدولة الفاطمية كثيرا من هيبتها فى قلوب المصريين بعد أن ادعى الحاكم الالوهية لنفسه، واعتبر الناس ذلك الحادا وكفرا وخروجا عن الدين، فكرهوا الخليفة الحاكم وأبغضوا حكمه، ومما زاد النار اشتعالا ظهور طائفة الدروز الذين نادوا بألوهية الحاكم وعلى رأسهم حمزة بن على الدزرى ومحمد بن اسماعيل الدرزى . والواقع أن فكرة تأليه الحاكم فى حد ذاتها كانت كفيلة وحدها بهدم كيان الدولة الفاطمية، ولولا أن ست الملك أخت الحاكم عجلت بقتله على يد رجل سنى فى صحراء المقطم، ولولا أن ابنه وخليفته من بعده الظاهر لاعزاز دين الله قد تولى مهمة إبعاد الشبهة عن نفسه، بأن أعلن براءته من دعوى الالوهية، وتلقب بهذا اللقب تعبيرا عن استنكاره لما أقدم عليه أبوه من خروج عن الدين ، وعن خطته التى سيعمل على تحقيقها بالنسبة للدروز وهى تطهير مصر من حركتهم ومطاردتهم خارج البلاد اعزازا لدين الله، لولا ذلك كله لكانت الدولة الفاطمية قد سقطت فى ذلك الحين .

٥- استبداد الوزراء بشئون الحكم دون الخلفاء :

كان معظم خلفاء الفاطميين فى النصف الثانى من عصر الدولة الفاطمية أطفالا صغار السن، ضعاف الشخصية كالآمر بأحكام الله الذى تولى الخلافة فى سن الخامسة، والفائز بنصر الله بن الظافر وكان

عمره يوم توليه الخلافة ثلاث سنوات، والعاضد لدين الله، وكان عمره عشر سنوات . ولذلك استهان الوزراء بالخلفاء في العصر الفاطمي الثاني واستبدوا بالحكم دونهم، وأصبح منصب الوزارة منذ أيام الافضل شاهنشاه محط أطماع قادة الجيش وكبار رجال الدولة، وفي سبيله قامت الحروب والمعارك في شوارع القاهرة بين أنصار هذا الوزير وأنصار ذاك ،كل ذلك أخاط العصر الفاطمي الثاني بسلسلة ممتدة من الفوضى، وجعل القاهرة أشبه ببلد رزئت بالهزيمة، وتدفقت فيها الغزاة، فاختلطت الجماهير بالاجناد، وأعملوا السلب والنهب في الحوانيت والمتاجر والدور ، ويصف ابن واصل صاحب مفرج الكروب هذه الحالة بقوله . « والحكم للوزراء ، من قهر بالسيف أخذها، والخلفاء بمصر تحت قهرهم» ومن بين الوزراء المستبدين بالحكم الافضل شاهنشاه الذى وقع اختياره على أبي القاسم أحمد الملقب بالمستعلي بالله الابن الاصغر للمستنصر بالله ليكون خليفة بدلا من أبي منصور نزار الابن الأكبر ، مما أتاح للأفضل فرصة السيطرة على الدولة الفاطمية في عهد المستعلي بالله، وظل نفوذ الافضل قويا راسخا حتى بعد وفاة المستعلي بالله في سنة ٤٩٥هـ ، فقد اجلس على دست الخلافة المنصور بن المستعلي وكان مايزال طفلا لايتجاوز من العمر خمس سنوات ، ولقبه بالآمر بأحكام الله. واستمر الافضل يحكم مصر وحده طوال عشرين سنة حتى قتله المأمون البطائحي سنة ٥١٥هـ .

ومن أمثلة التنافس والتصارع على الوزارة، الصراع بين بهرام الأرمني ورضوان بن ولخشي في خلافة الحافظ لدين الله، ثم النزاع

بين على بن السلار وابن مصال فى خلافة الظافر، والصراع بين أبى شجاع شاور وأبى الأشبال ضرغام فى أيام العاضد، وكان هذا النزاع الأخير آخر حلقة من حلقات التنافس بين الوزراء ، اذ انتهى بسقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية .

٦- اضطراب الموقف الداخلى فى مصر فى أيام العاضد :

ازداد موقف الدولة الفاطمية سوءا منذ أن أخذت مملكة بيت المقدس الصليبية تطمع فى مصر نفسها ، فى الوقت الذى آلى فيه الأتابك نور الدين محمود بن زنكى صاحب حلب ودمشق على نفسه أن يمنع الصليبيين من مد نفوذهم الى مصر، ثم تطور الأمر الى تنافس بين مملكة بيت المقدس الصليبية والدولة النورية وذلك عندما طلب الوزير ضرغام من الصليبيين التدخل فى شئون الدولة الفاطمية بل رضى بأن يدفع لهم الجزية سنويا ضمانا لمساعدتهم له على منافسه فى الوزارة شاور بن مجير السعدى، وانتهى النزاع بين الرجلين بانتصار ضرغام وتوليه الوزارة، وفرشاور الى الشام، ولجأ الى نور الدين محمود فى ذى الحجة سنة ٥٥٨هـ (١١٦٣م) واستنصر به فى نضاله ضد خصمه ضرغام واعادته الى منصب الوزارة، وعرض عليه مقابل هذه المساعدة ثلث ايراد مصر وأن يدين له بالولاء ان عادت اليه مقاليد الحكم والوزارة وتذكر المصادر العربية أن نور الدين رحب بشاور واستضافه ، وأنه تردد أول الأمر فى اجابته الى طلبه، ولكنه لم يلبث ان وافق ، تحقيقا لخطته التى كان يهدف من ورائها الى توحيد الجبهة الاسلامية تمهيدا لمواجهة الخطر الصليبى والقضاء عليه .

الحملة الأولى :

أرسل نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب ودمشق مع شاور جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه [1] ، وصحب أسد الدين معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب [2] ، وعلم ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله الى مصر ، فأصابه الهلع والفزع اذ لم يكن الجيش الفاطمي في ذلك الوقت في حالة تمكنه من أي مواجهة عسكرية، وأرسل ضرغام الرسائل الى عموري الذي يعرف أيضا في المصادر العربية باسم مرى Amaleric I ملك بيت المقدس يطلب مساعدته ضد قوى نور الدين على أن يدفع له مقابل ذلك مبلغا سنويا من المال، ووافقت هذه الدعوة هوى في نفس عموري ، فبدأ يعد العدة للسير الى مصر ، غير أن أسد الدين شيركوه سبقه في الوصول اليها وفي صحبته شاور، فلما وصل شيركوه الى بلبيس خرجت عساكر البرقية من قبل ضرغام بقيادة أخيه ناصر الدين لقتال الجيوش النورية بقيادة شيركوه، ودارت الدائرة على عساكر البرقية فانهزموا الى القاهرة ، وعلى أبواب هذه المدينة خرج ضرغام لملاقاة شاور ودار قتال عنيف،

---

(١) اتصل شيركوه بخدمة نور الدين بحلب بعد استشهاد عماد الدين زنكي في قلعة جعبر سنة ١١٤٦م، وقد شرك شيركوه في كثير من الحملات التي وجهها نور الدين ضد الفرنج كما أنه يرجع اليه الفضل في استيلاء نور الدين على دمشق في سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) .

(٢) استخدم عماد الدين زنكي نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف بالموصل منذ سنة ٥٢٦هـ ، ولما افتتح زنكي بعلبك في سنة ٥٣٣هـ (١١٣٩م) قلد أيوبا على ولايتها وظل متولاها الى أن قتل عماد الدين زنكي ثم انتقل نجم الدين الى دمشق والتحق بخدمة أمر وزير دمشق ، وظل مقيما بدمشق الى أن استولى عليها نور الدين ، فقلده نور الدين ولاية دمشق

وكاد النصر يكون من نصيب ضرغام لولا كراهية جنده له لأمور منها قتله لقوادهم وأعيان البلاد مما جعلهم ينحرفون عنه، وأمكن لشاور وقوات شيركوه أن توقع الهزيمة بضرغام، ويسقط أخوه ناصر الدين قتيلا وتمكن من قتل ضرغام فى جمادى الآخرة ٥٥٩ ، وعلى هذا النحو أعيد شاور الى دست الوزارة ، وتلقب بالملك المنصور، وكتب له العاضد سجلا له بتفويض الوزارة . فلما تحقق لشاور هدفه من الظفر بالوزارة ظهرت منه بوادر الغدر بالجيش النورى الذى كان معسكرا بظاهر القاهرة، فحنث بوعده لشيركوه، ورفض أن يدفع له المال المتفق عليه، بل أقدم على أن يطلب منه الانسحاب بجيشه والعودة الى الشام وآلم هذا التصرف المخزى مشاعر شيركوه، وامتنع عن تنفيذ ما طلبه منه شاور ، ومضى بجيشه الى بلبيس وتحصن بأسوارها، وقيل أنه فعل ذلك بناء على اقتراح قدمه صلاح الدين ابن أخيه الذى بدأت تظهر كفايته العسكرية ، وعندئذ لم يتردد شاور فى الاتصال بالفرنج ، ودعاهم الى اخراج شيركوه وجيشه بالقوة، ووعدهم بأموال ضخمة اذا نجحوا فى ارغام شيركوه على الانسحاب من مصر، ولعل شاور كان يستهدف من وراء ذلك أن يستفيد من التنافس بين الفرنج والنوريين بالانفراد بالبلاد. ورحب عمورى بالدعوة وأسرع هذه المرة بالخروج بجيشه اذ كان يخشى خطورة قيام اتحاد بين مصر والشام اذا ما نجح نور الدين فى السيطرة على مصر ، فيصبح الصليبيون فى هذه الحالة بين فكى نور الدين ، يطبق عليهم من الشمال ومن الجنوب. ويعبر ابن واصل عن ذلك بقوله : « انهم خافوا خوفا شديدا اذا ما تحقق ذلك، وأيقنوا

بالهلاك، وأن بلادهم تستأصل، فاجتمعت جيوش الصليبيين بقيادة عموري ملك بيت المقدس، واتجه بها في سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م) نحو مصر، وحاصرت قوات الفرنج جيش شيركوه وصلاح الدين في بلبيس، وساعد هذه القوات عسكر شاور من العربان والسودان، فقاومهم جيش شيركوه مدة ثلاثة أشهر، وأحس نور الدين محمود بن زنكي بما يهدد جيشه في مصر من أخطار فبدأ يحكم الضغط على أملاك الصليبيين في الشام، وأرسل الاعلام التي غنمها في معاركه مع الفرنج الى شيركوه فأمر بنصبها على أسوار بلبيس، وعندما شاهدها عموري فكر جديا في الانسحاب الى بلاده، وانتهى الأمر باتفاق أبرم بين الطرفين بمقتضاه يجلو الفرنج والنوريون في آن واحد عن مصر.

الحملة الثانية:

عادت القوتان الصليبية والنورية الى الشام، وكل منهما تنوى جديا العودة الى مصر من جديد، فشيركوه تبين له حالة الضعف التي آلت اليها مصر الفاطمية بحيث وصفها بأنها بلاد بغير رجال، وأخذ يستحث نور الدين من جديد لكي يبعث به على رأس حملة ثانية الى مصر. وعموري، كان يطمع في امتلاكها ليؤمن دولته من أي هجوم مرتقب من جهة مصر، وكان نور الدين شغوفا بالجهاد راغبا في الذب عن الاسلام والتصدى لقوى العدوان، فوافقت دعوة شيركوه اليه بالتدخل السريع في مصر هوى في قلبه، وأدرك مدى ما يتهدد الاسلام لو أن الفرنج سبقوه الى التحرك الى مصر، فاستجاب لالحاح شيركوه

وزوده من جديد بقوة وافرة العدد والعدة، وخرج أسد الدين شيركوه فى سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م) ومعه فى هذه المرة أيضا صلاح الدين ابن اخيه، ودخل جيشه مصر من معبرها الشمالي الشرقى عن طريق ساحل البحر الأحمر من ناحية الصعيد، ثم نزل الجيزة قبالة مصر الفسطاط، وعسكر بالبر الغربى للنيل حتى لايتعرض للحصار مرة أخرى كما حوصر من قبل فى بلبيس. وعندئذ بادر شاور بالاستنصار بعمورى مرة أخرى، وللمرة الثانية يستجيب عمورى لندائه، وأسرع على رأس جيشه لملاقاة جيش شيركوه، وانضم جيش شاور مع الفرنج وعسكروا عند الفسطاط على البر الشرقى قباله جيش شيركوه، وعز على شيركوه أن يستعين شاور بالفرنج أعداء الاسلام، فحاول أن يقنع شاور بأن يكون يدا واحدة ضد الفرنج الذين لايسعون الا لتملك مصر واحتلالها، غير أن شاور لم يكن يعنيه سوى كرسى الوزارة والابقاء على سلطانه، فلم يستجب لعروض شيركوه ونصائحه، أما عمورى وشاور فقد عبرا بجيشيهما النيل وتتبعا أسد الدين، واشتبك الفريقان عند قرية البابين بالمنيا (قرب ديروط) فى ١٨ مارس سنة ١١٦٧م (٥٦٢هـ)، وعلى الرغم من تفوق الفرنج وشاور من حيث العدد والسلاح فقد انتصر شيركوه فى هذه الموقعة انتصارا حاسما، ونجا عمورى بحياته بمعجزة، وعادت فلول الفرنج وقوات شاور الى القاهرة لتتجمع من جديد، أما شيركوه فقد آثر أن يتوجه الى الاسكندرية استجابة لدعوة أهلها وليتخذها قاعدة له حيث رحب أهلها السنيون به لكراهيتهم للمذهب الاسماعيلى.

كان أهل الاسكندرية يميلون الى المذهب السنى [(1)] ، وعرفوا بوطنيتهم وغيرتهم على الدين والوطن ولذلك كرهوا شاور لخيانته لبلده وتحالفه مع الصليبيين ضد المسلمين، ولذلك لم يترددوا فى فتح أبواب مدينتهم لقوات شيركوه، فنصب شاور صلاح الدين نائبا عنه فى حكمها، ومضى هو مع نصف جيشه الى الصعيد ليشرف على شؤونه ويجمع بعض المال ، وأحكم شاور وحلفاؤه الفرنج الحصار حول الاسكندرية مدة أربعة شهور عانى خلالها صلاح الدين ورجاله كثيرا غير أن أسد الدين شيركوه عندما بلغه شدة حصار الفرنج لابن أخيه، لجأ الى حيلة مضادة فاتجه بجيشه شمالا ليوهم شاور وحلفاءه الفرنج بأنه ينوى محاصرة القاهرة، ونجحت الحيلة، واضطر شاور وحلفاؤه الى

---

(١) كان أهل الاسكندرية يميلون الى المذهب السنى ويبغضون المذهب الاسماعيلى (بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية، القاهرة ١٩٦٤ ، ص٤٨-٤٩ أبو شامة، الروضتين فى أخبار الدولتين ،ج٢ ص ٥٩٨، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢ ص١١-١٦ المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك،ج١ ص٥٦) ويعبر عن هذا الشعور ثوراتهم العديدة ضد الفاطميين ومساعدتهم للخارجين على الحكم المركزى، وواضح ان سبب ذلك يرجع الى تأصل جذور السنية وعلى الاخص المذهبين المالكى والشافعى بها وقد ساعد على ذلك ما كان يبذله فقهاء الاسكندرية من جهود لمناهضة التشيع، وأبرز فقهاء المالكية فى الثغر السكندرى الفقيه أبو بكر الطرطوشى الاندلسى نزيل الاسكندرية وتلميذه سند بن عنان الازدى (ت ٥٨١) والحافظ السلفى (ت ٥٧٦هـ) ومن فقهاء الشافعية بها يوسف بن عبد العزيز اللخمى الميورقى (ت ٥٢٣) وابن عين الدولة السكندرى (ت ٦٣٩هـ) (انظر السيوطى، حسن المحاضرة ج١ ص ٢١٣، ٢١٤، ١٨٩، ١٩٢) وقد كان لهؤلاء الفقهاء أثر كبير فى تمسك أهل الاسكندرية بالمذهب السنى وكان لوجود مدرستين سنيتين بالاسكندرية يقوم بالتدريس فيهما فقهاء وشيوخ سنيون اعظم الاثر فى انتشار المذهب السنى كما أن تردد المغاربة وعلماء الاندلس على الاسكندرية باعتبارها باب المغرب كان له أثر كبير فى وجود جالية مغربية سنية، وقد حمل رسوخ المذهب السنى فى الاسكندرية صلاح الدين على احترام أهل الاسكندرية وتقدير ما قدموه له من عون اثناء حصار الفرنج لها فكان يتردد على زيارتها كما انه زودها بمدرسة للمغاربة .

رفع الحصار عن الاسكندرية والاسراع بالعودة الى العاصمة خشية أن ينجح شيركوه فى الاستيلاء عليها .

وأدرك كل من الفريقين فى النهاية صعوبة الانفراد بأمر مصر، وبدأت المفاوضات بينهما، وكان من بين شروطها أن يخرج الصليبيون والنوريون من مصر كما حدث فى المرة الأولى ، وان تعاد الاسكندرية الى تبعيتها للدولة الفاطمية . وافق الصليبيون فى الظاهر على ذلك، ولكنهم اتفقوا فى الباطن مع شاور أن يكون لهم بأبواب القاهرة حامية، وأن يدفع لهم شاور بعض المال (مائة ألف دينار) سنويا ، أما النوريون فقد وافقوا على الشروط الأولى نظير قدر من المال (٥٠ ألف دينار) وتم جلاء الفريقين عن مصر .

الحملة الثالثة :

خرج الفريقان من مصر هذه المرة، ولكن موقف الصليبيين كان أفضل بكثير من موقف النوريين ، فان الحامية الصليبية التى تركها عمورى فى القاهرة بقصد الدفاع عنها اذا أغار عليها أى مغير من الخارج أخذت تدرس الاحوال الداخلية فى مصر، فأدركت مدى الضعف والانحلال الذى آلت اليه البلاد المصرية ، وفى ذلك يقول المقريزى : « ثم رحل (مرى) الى بلاده، وترك بالقاهرة من يثق به من الفرنج، وسار شيركوه الى الشام، فتحكم الفرنج فى القاهرة حكما جائرا، وركبوا المسلمين بالاذى العظيم ، وتيقنوا عجز الدولة عن مقاومتهم، وانكشفت لهم عورات الناس الى أن دخلت سنة أربعة وستين» ويبدو أن قائد الحامية الصليبية أرسل أنذاك الى عمورى

يستحثه على القدوم الى مصر بجيشه للاستيلاء عليها قبل أن يسبقه شيركوه اليها، وهون عليه أمرها ورأى عموري أن يحتاط هذه المرة اذا زحف الى مصر، لأنه لاقبل له وحده على الانتصار على اعدائه النوريين، ثم انه لم يكن يضمن مشاعر أهل مصر نحوه اذا ما دخلتها قواته، وكان الأمر يستلزم محالفة قوة جديدة، وكانت الأحوال في أوروبا وقتئذ لاتساعد على ارسال نجدة سريعة اليه، فاتجه بنظره الى الدولة البيزنطية ، وسعى الى مصاهرة الامبراطور البيزنطي حتى يستطيع أن يعتمد عليه مستقبلا في اللحظات الحرجة، وكان قد أرسل سفارة من قبله الى الامبراطور مانويل كومنين في سنة ٥٦٠هـ (١١٦٥م) برئاسة المؤرخ الصليبي وليم الصوري ، واقامت السفارة في القسطنطينية مدة سنتين، وانتهى الأمر باختيار الأميرة مارى بنت أخي الامبراطور لتكون زوجة لعموري وملكة لبيت المقدس ، كما انتهت المفاوضات الى الاتفاق بين عموري وكومنين على ارسال حملة مشتركة من الجيشين البيزنطي والصليبي ، وقد ترك لنا المؤرخ الصليبي وليم الصوري صورة الاتفاقية التي وقعها هو بنفسه نيابة عن عموري، وتتضمن صورة الاتفاقية على أن تكون رئاسة الحملة لعموري على أن يطيع القائد البيزنطي في كل ما يأمر به ، غير أن الأمور جرت على عكس ماتم الاتفاق عليه، وكان هذا من حسن طالع مصر وأتابكية حلب، فقد رضخ عموري لرأى فرسان مملكته وذوى الرأى فيها، اذ أشاروا عليه بسرعة الاستيلاء على مصر لحساب مملكتهم خوفا من مشاركة البيزنطيين لهم في خيرات مصر، واعتمادا على الحامية الصليبية

المرابطة بالقاهرة وكان قائد هذه الحامية يكتب اليه تباعا يستحثه للسير اليها، وعلى هذا النحو قرر عمورى التحرك السريع منفردا وبجيوشه فخرج في ٥٦٤هـ (اكتوبر ١١٦٨م) في جيش كثيف وحشود ضخمة نحو مصر واتجه الى شرقى الدلتا أو مايعرف بالحوف الشرقى، ثم وصل إلى بلبيس أهم مدن الحوف، فتحصن أهلها داخل أسوارها، وأبدوا مقاومة عنيفة، ولكنه تمكن اخيرا من الاستيلاء عليها، وانتقم من أهلها انتقاما شديدا لتصديهم لقواته، وارتكبت عساكره فظائع تقارن بما ارتكبه الصليبيون عند دخولهم بيت المقدس، فقد ذبحوا الرجال والنساء والشيوخ ونهبوا وسبوا وسلبوا ما شاءوا، واتجه عمورى بعد ذلك نحو القاهرة وعسكر بقواته عند بركة الحبش جنوبى الفسطاط . خاف شاور من الفرنج فأرسل الى عمورى يسأله عن سبب سيره الى مصر فجأة وخرقه للمعاهدة : فتعلل بأن الفرنج فى بلاده حملوه على السير اليها وأنه يريد مليونى دينار يسترضيهم بها، فأدرك شاور سوء نواياه وأصابه الخوف والذعر لأن الصليبيين لم يقبلوا هذه المرة أصدقاء مستجيبين لدعوته، وانما أتوا من تلقاء أنفسهم طامعين فى احتلال مصر، عندئذ قرر شاور العمل على التصدى للفرنج، فأتى بحامية الفرنج فى مصر فقتل جماعة كبيرة منهم، ثم حفر خندقا وبنى حصنا، وأمر الفقهاء بحث الأهالى على القتال، ثم أمر باخلاء مدينة الفسطاط من أهلها، وأحرق بيوتها بقصد عرقلة زحف الصليبيين الى القاهرة، وفى ذلك يقول المقريزى فى الخطط : « وسار (مرى) يريد أخذ مصر فبعث اليه شاور يسأله عن سبب مسيره، فاعتل بأن الفرنج غلبوه على

قصد ديار مصر، وأنه يريد ألفي دينار يرضيهم بها، وسار فنزل على بلبيس وحاصرها حتى أخذها عنوة في صفر (سنة٥٦٤هـ) فسبى أهلها، وقصد القاهرة، فسير العاضد كتبه الى نور الدين وفيها شعور نسائه وبناته يسأله انقاذ المسلمين من الفرنج، وسار مرى من بلبيس فنزل على بركة الحبش وقد انضم الناس من الأعمال الى القاهرة، فنادى شاور بمصر ان لايقيم بها أحد ، وأزعج الناس في النقلة منها، فتركوا اموالهم وأثقالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم، وقد ماج الناس واضطربوا كأنما خرجوا من قبورهم الى المحشر لايعبأ والد بولده ولايلتفت أخ الى أخيه، وبلغ كراء الدابة من مصر الى القاهرة بضعة عشر دينارا، وكراء الجمل الى ثلاثين دينارا، ونزلوا بالقاهرة في المساجد والحمامات والأزقة وعلى الطرقات ، فصاروا مطروحين بعيالهم وأولادهم، وقد سلبوا سائر أموالهم وينتظرون هجوم العدو على القاهرة بالسيف كما فعل بمدينة بلبيس، وبعث شاور الى مصر بعشرين الف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار، فرق ذلك فيها، فارتفع لهب النار ودخان الحريق الى السماء فصار منظرا مهولا فاستمرت النار تأتي على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوما، والنهابة من العبيد ورجال الاسطول وغيرهم بهذه المنازل في طلب الخبايا ، فلما وقع الحريق بمصر (يقصد الفسطاط) رحل مرى من بركة الحبش ونزل بظاهر القاهرة مما يلي باب البرقية (أحد الابواب الشرقية في سور القاهرة) وقاتل أهلها قتالا شديدا، وضعفت نفوسهم وكادوا يؤخذون عنوة، فعاد شاور الى مقاتلة الفرنج، وجرت أمور آلت

الى الصلح على مال، فبيناهم فى جبايته اذ بلغ الفرنج « أسد الدين شيركوه بعساكر الشام من عند السلطان نور الدين محمود، فرحلوا فى سابع ربيع الآخر الى بلبيس» . وكان العاضد ابن "الد بعد أن علم بحريق الفسطاط قد أدرك خطورة الموقف وأيقن بأن القاهرة على وشك التسليم للصليبيين، فكتب الى نور الدين يستصرخه قائلا : « أدركنى واستنقذ نسائى من أيدى الفرنج » وبعث فى طى رسائله شعور نسائه وبناته كما ورد فى النص السابق، وهذا أقصى مايستطيع ان يفعله المستجير طلبا للنجدة، كما عرض عليه فى رسالة أن يبذل له ثلث خراج البلاد وأن يوافق على بقاء شيركوه فى مصر، ولم يتردد نور الدين محمود لحظة بعد وصول رسائل العاضد اليه فى تلبية استصراخه نقاذا للاسلام، فأرسل يستدعى شيركوه من اقطاعه بحمص، ثم طلب منه أن يعد جيوشه بأسرع ما يمكن والخروج الى مصر، فامتثل شيركوه وامر سيده وشارك فى حملته عدد كبير من الفرسان والتركمان، سطحب معه هذه المرة أيضا صلاح الدين ابن أخيه الذى قبل مكرها 'م يكن قد نسى بعد ما عاناه فى حصار الفرنج للاسكندرية . ولم س الـ ير مع عمه الا بعد أن أمره نور الدين محمود بذلك، فأذعن يته »[1] . ومضى الجيش النورى الى وجهته وتمكن من النزول مس حـارج القاهرة وعندئذ تحرج موقف عمورى ، اذ وجد بين عدوين واحد من الداخل وآخر من الخارج فآثر الانسحاب ، نى بلبيس ، ومنها الى فاقوس ثم أسرع بالعودة الى بلاده بعد أن

صل ، مفرج الكروب ، ج١ ص ١٦٠

يئس تماما من الاستيلاء على مصر

أما شاور فقد استاء لهذه النتيجة ، اذ أيقن بضياع سلطانه، وعمد الى التظاهر بالورع والتقوى ، وأخذ يتردد على ضريح الامام الشافعي ليتقرب بذلك الى أهل مصر، ولكنه في الواقع كان يضمر السوء بشيركوه ففكر في قتله وقتل من معه واخراج الجيش النورى من مصر ولكنه سئ كراهية المصريين له لتحالفه السابق مع الفرنج ضد المسلمين، ولما سببه بحريق الفسطاط من نكبات ، وتشريده لاهالى الفسطاط في طرقات القاهرة، ففكر في أن يولم لشيركوه وقواد جيشه وليمة ثم يثب عليهم ويقتلهم، وأسر بهذه الخطة الى ابنه الكامل، فنهاه عن ذلك وقال له : « والله لئن عزمت على هذا الأمر لاعرفن أسد الدين » ، فقال شاور : « والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعا » ، فقال الكامل : « صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكتها الفرنج » وقبل أن ينفذ شاور مؤامرته كان أسد الدين شيركوه وصلاح الدين يتآمران مع الخليفة العاضد على قتله والتخلص منه ، فشيركوه لم ينس ما سببه شاور من كوارث على الأمة الاسلامية باستعانته بالصليبيين ، وصلاح الدين لم ينس حصار شاور له مع الصليبيين في الاسكندرية مدة أربعة شهور ، والعاضد ضاق ذرعا بخيانة شاور للمسلمين وممالاته للفرنج واستبداده بشؤون البلاد واحراقه للفسطاط

ولتنفيذ خطته عمد شاور الى التودد لصلاح الدين وعمه شيركوه

تظاهرا منه بالموادعة حتى يستدرجهما الى الفخ الذى ينصبه لهما، ويذكر المؤرخون أن شاور ذهب مرة كعادته لزيارة شيركوه فى مخيمه، فقيل له أنه ذهب لزيارة قبر الامام الشافعى ، فأبدى رغبته فى أن يذهب لرؤيته هناك، وذهب معه صلاح الدين وعز الدين جرديك أحد قواد أسد الدين، وفى الطريق قبضا عليه وأودعاه السجن ، وعندما بلغ الخليفة العاضد ذلك ، أرسل يطلب الى أسد الدين قتل شاور، فاستجاب للأمر، وحمل رأسه الى القصر .

ولم يجد العاضد من بين رجاله من يصلح للوزارة، فاختار لذلك أسد الدين شيركوه ليكون وزيرا له، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش إما مكافأة له على ما قدمه لمصر من خدمات جليلة بتخليص البلاد من الاحتلال الصليبى والقضاء على شاور الخائن وأذنابه، وإما تحت ضغط شيركوه نفسه اذ لم يكن العاضد يستطيع أن يرفض له طلبا لضعفه. وأيا ما كان سبب اختياره للوزارة ، فقد لقبه بالملك المنصور وهو نفس لقب شاور، وخرج له سجل خلافى بالوزارة كتبه القاضى الفاضل وجاء فيه : « من عبد الله ووليه ، عبد الله أبى محمد الأمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين ، الى السيد الاجل ، الملك ، المنصور ، سلطان الجيوش ، ولى الأمة فخر الدولة، أسد الدين ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، أبى الحارث شيركوه العاضدى ، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته

(١) مجموعة الوثائق الفاطمية، جمعها وحققها الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣٨٣

وأعلى كلمته» [1]، ثم أوضح كاتب السجل أسباب انعام العاضد على شيركوه بهذا المنصب ويعدد مآثره ثم أن الخليفة العاضد كتب بخط يده فى طرة عهد الوزارة على شيركوه الى أسد الدين شيركوه، ونطالع فى هذا العهد مايلى: «هذا عهد لاعهد لوزير بمثله، وتقليد أمانة رآك الله تعالى وأمير المؤمنين أهلا لحمله، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبيله، فخذ كتاب امير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك الى البنوة واتخذ امير المؤمنين للفوز سبيلا، ولاتنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا» [2]، ومن الجدير بالملاحظة أن الخليفة لقب شيركوه بسلطان الجيوش وليس «بأمير الجيوش» لقب الوزراء السابقين، ولعل ذلك يرجع الى تقديره الكبير لما قدمه شيركوه من خدمات وما بذله فى سبيل نصرة الاسلام والمسلمين، وربما كان تعبيرا عن سيطرة شيركوه على أجناد الفاطميين وأجناد النوريين.

أخذ شيركوه يحقق بالتدريج آمال نور الدين محمود، فبدأ يحجر على الخليفة العاضد ويستبد بالسلطان دونه، ولكن الموت لم يلبث أن عاجله بعد شهرين فقط من توليه الوزارة، وقيل قتل بالسم بايعاز من الخليفة، فخلفه على دست الوزارة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الذى تلقب فى العهد الذى صدر له بالملك الناصر وذلك فى

(1) المصدر سابق، ص ٤٠١

(2) راجع نص التقليد فى مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٤٠٥ -٤١٥، وكذلك توقيع العاضد على طرة السجل بنفس المصدر ص ٤١٩

٢ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ (٢٦ من مارس سنة ١١٦٩م) وكتب العاضد له سجل الوزارة بخط يده ، مع أن الخلفاء الفاطميين كانوا لايكتبون السجلات الا نادرا، وخرج سجله في قماش أبيض، وألبسه العاضد أمام حشد كبير من موظفي الدولة خلعه الوزارة في يوم مشهود، وهي جميعها بيضاء شعار الفاطميين، وتتكون من عمامة لها دؤابة، وثوب مطرز بالذهب ، وجبة مزينة بطراز من الذهب ، وعقد جوهر، وطيلسان وخيل وسروج، هذا وقد رويت حول تولية صلاح الدين الوزارة روايات كثيرة، منها أنه تولاها بناء على توصية سابقة من شيركوه، وقيل أن العاضد منحه الوزارة باعتباره أصغر قواد الجيش سوري سنا حتى يصبح صلاح الدين طوع يده. وكان صلاح الدين يبلغ من العمر وقتئذ ٣٢ سنة، وبتولية صلاح الدين الوزارة الفاطمية بدأ صفحة جديدة في تاريخ مصر والشام .

أولا - الدولة الأيوبية

(١)

الناصر صلاح الدين يوسف ونهاية الدولة الفاطمية

١- صلاح الدين وزيرا للعاضد لدين الله :

لم يكن جديدا أن يتولى الوزارة سني لخليفة شيعي ، فقد سبقه في ذلك علي بن السلار ، ورضوان بن ولخشى ، وقد اعترضت صلاح الدين أثناء توليه الوزارة صعوبات في الداخل والخارج نلخصها فيما يلي:

١- حقد قواد جيش نور الدين لصلاح الدين :

كان الجيش النوري المرابط في مصر يضم عددا من القادة الذين يكبرون صلاح الدين سنا ومكانة، نذكر منهم على سبيل المثال : عين الدولة الياروقي وسيف الدين علي بن المشطوب وشهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين ، وكان كل منهم يطمع في منصب الوزارة. كما أنهم لتقدمهم في السن كانوا يأنفون ان يتولى الوزارة شاب لايتجاوز عمره ٣٢ سنة، يختاره الخليفة الفاطمي دونهم ، وكادت تحدث فتنة لولا أن تدخل الفقيه عيسى الهكاري في هذا النزاع ، وسعى لاقناع كل منهم على حدة، ونجح في خطته، اذ أقنعهم جميعا بأحقيه صلاح الدين باستثناء عين الدولة الياروقي الذي أنف أن يكون

أدنى مقاما من صلاح الدين ، وقال : « أنا لا أخدم يوسف أبدا »[1] وترك مصر وعاد الى دمشق .

٢- مؤامرة مؤتمن الخلافة جوهر :

كان نور الدين محمود بن زنكي يستحث صلاح الدين باعتباره برا للعاضد ، وقائدا عاما على الجيش النورى ، ونائبا عن نور الدين بمصر على المبادرة باسقاط الدولة الفاطمية واعادة المذهب السنى فى البلاد، ولكن صلاح الدين رغم صغر سنه اصطنع الحذر والروية لأنه وزير للخليفة الفاطمى ولأنه محاط بأنظار العاضد والموالين للحكم الفاطمى ، وربما لأنه كان حريصا على انتهاز الفرصة المواتية لاعلان سقوط الدولة الفاطمية، أو لطموحه فى ألا يكون مجرد نائب لنور الدين فى مصر ، وأيا كان سبب تباطئه فيما كان يدعوه اليه سيده نور الدين، فقد كان مصيبا فى ترويه وابطائه، وجاءت الحوادث التالية مصداقا لمخاوفه، اذ تعرض لمؤامرة خطيرة أو مايشبه الانقلاب العسكرى وهى مؤامرة دبرها مؤتمن الخلافة جوهر من زعماء العسكريين السودان فى الجيش الفاطمى[2] وكان يطمع فى أن يظفر بالوزارة بعد شاور لاسيما وقد ثبت أنه صاحب الخنجر الذى قتل به شاور ، ولذلك ساءه أن يتقلدها صلاح الدين يوسف ، وكان جند السودان يشكلون الاغلبية العظمى فى الجيش الفاطمى . فدبر مؤتمن الخلافة مؤامرة بمقتضاها يقوم بالاتصال سرا بالصليبيين فى بيت

(١) أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين ، جـ١ قسم ٢ ص ٤٠٧ .
(٢) كان مؤتمن الخلافة جوهر أحد الأستاذين المحنكين بالقصر الفاطمى .

المقدس يدعوهم لنصرته، فاذا ما أقبلت قواتهم وخرج صلاح الدين بقواته لمواجهتهم، يقوم هو - أى مؤتمن الخلافة - وأتباعه باعلان الثورة فى الداخل ويسيطرون بذلك على الموقف ويتخلصون فى نفس الوقت من صلاح الدين، وقواته، وعندئذ تصبح البلاد غنيمة بينهم وبين الصليبيين. ولم يتردد مؤتمن الخلافة فى أن يكتب بذلك الى عمورى ويبعث بالرسالة مع رسول اليه، ولكن جند صلاح الدين قبضوا على الرسول عند بلبيس فى طريقه الى فلسطين وعثروا معه على الرسالة، وأمكن لصلاح الدين الوقوف على تفاصيل المؤامرة، فأمر بالقبض على مؤتمن الخلافة وقتله [1]، ولكن الجند السودان [2] ثاروا لمقتل زعيمهم، وكانوا يتجاوزون الخمسين ألفا، واشتبكوا مع قوات صلاح الدين بقيادة أخيه توران شاه فى ساحة ما بين القصرين، واستمر القتال مدة يومين، وتمكن توران شاه الأخ الأكبر لصلاح الدين من ايقاع الهزيمة بالسودان وذلك بأن أوعز صلاح الدين الى النفاطين باشعال النيران فى محلة السودان الواقعة على مقربة من باب زويله، فلما بلغهم الخبر ولوا منهزمين، وفر عدد كبير منهم الى الجيزة، فطاردتهم قوات توران شاه، وقضت عليهم ومنذ ذلك الحين اتخذ صلاح الدين حيطته، فنصب خصيا من قواد جيشه زماما للقصر الخلافى أى مشرفا عليه هو بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الاسدى [3]

(١) تم ذلك فى ٢٤ من ذى القعدة سنة ٥٦٤، واحتز رأسه وحملت الى صلاح الدين.

(٢) كان عسكر السودان يتألف من الطائفة الريحانية، والطائفة الجيوشية والطائفة الفرحية.

(٣) كان بهاء الدين قراقوش أبيض اللون، ولعله كان تركيا، وكان مملوكا لشيركوه ثم اعتقه وسماه قراقوش أى الطائر الأسود، ولقبه بهاء الدين.

الذى أصبح مؤتمنا للخلافة . وعن قراقوش يقول ابن واصل : « فما كان يدخل الى القصر شيء ولايخرج منه شيء الا برأى منه ومسمع، فضاق خناق أهل القصر بسببه » .

ويذكر المقريزى ان من غرائب الاتفاقات أن «الدولة الفاطمية كان الذى افتتح لها بلاد مصر وبنى القاهرة جوهر القائد ، والذى كان سببا فى ازالة الدولة وخراب القاهرة جوهر المنعوت بمؤتمن الخلافة ».

٢- حملة الفرنج على دمياط :

بدأ الصليبيون يحسون بالخطر يهدد دولتهم بعد أن استولت قوات نور الدين محمود بن زنكى على مصر ،فقد فكر عمورى فى اعداد حملة صليبية شاملة لمهاجمة مصر ، وأرسل سفراءه الى ملوك أوربا يستنصرخهم ويستنجد بهم، غير أن هذه السفارة لم تلق أى نجاح بسبب انصراف ملوك أوربا وقتئذ الى مشاكلهم الخاصة بهم، وعندئذ اضطر عمورى الى التطلع مرة أخرى الى الدولة البيزنطية، وتناسى الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين الخطأ الذى ارتكبه عمورى من قبل عندما أسرع بالهجوم وحده على مصر، واستجاب كومنين هذه المرة لدعوته لأنه كان يحس هو الآخر بالخطر الذى يهدد دولته من جهة أتابكية حلب ودمشق ، بعد أن اتسعت أملاكها وتضخمت قوتها بضم مصر .

أرسل مانويل الى عمورى اسطولا ضخما يقوده أندرونيك كونستفانوس ، ومر هذا الاسطول بجزيرة قبرص وهناك انضمت اليه ستون قطعة بحرية بيزنطية، وتجمعت عند الفرما قوى الفرنج البحرية مع

قوى الروم، ومن هناك أبحرت نحو ثغر دمياط ، وأرست السفن البيزنطية والصليبية على الساحل، ونزل عسكرهم أمام أسوار المدينة. وبلغ الخبر صلاح الدين ، فانزعج لذلك وارتبك ارتباكا شديدا ، ولم يستطع أن يقطع برأى فيما يمكن أن يفعله، فلو أنه خرج الى دمياط للدفاع عنها فقد يثير رجال القصر واتباع الفاطميين الفتن والاضطرابات وينقضوا على بقية جيشه ، ويستعيدوا بذلك ما كان لهم من سلطان، ولو أنه بقى فى القاهرة، فقد ينجح الصليبيون فى الاستيلاء على دمياط، ولم يجد أنسب من كتابه الى نور الدين محمود يصف له هذا الموقف ، ويذكر ابن واصل فى كتابه مفرج الكروب أن نور الدين جهز اليه العساكر ارسالاء كلما تجهزت طائفة ارسلها، فسارت اليه يتلو بعضها بعضا، ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر، ودخل بلاد الفرنج فنهبها، وأغار عليها واستباحها، لتتحرك الفرنج الى حفظ البلاد الشامية، ويشتغلوا عن دمياط. وفى نفس الوقت سير قسما من جيشه الى دمياط بقيادة تقى الدين عمر بن شاهنشاه وخاله شهاب الدين الحارمى . وهكذا تجمعت النجدات القادمة من الداخل والوافدة من الخارج، وأمكن لدمياط أن تتصدى للحصار الصليبى البيزنطى الذى استغرق خمسين يوما ، وقاومه أهلها مقاومة باسلة ، وأنزلوا بالمعتدين خسائر فادحة ، وفى الوقت نفسه أسهمت الطبيعة فى مساعدة المحصورين ، فقد هطلت الامطار ليلا ونهارا عدة أيام متصلة، فتحولت معسكرات الصليبيين الى مستنقعات، وبدأ القلق يشتد بالفرنج لاسيما بعد أن تناقصت الاقوات والمؤن ، ولم يكن من اليسير عليهم الحصول على

مزيد من المؤن من المنطقة المحيطة بدمياط ، وبدأ الجوع يفتك بالعسكر البيزنطي الصليبي، وأدرك القائد البيزنطي صعوبة استمرار قواته البقاء على الحصار أكثر مما أقاموا مع ماهم عليه من جوع وجهد ، فعرض على عموري أن يهاجم الجيش المشترك دمياط دفعة واحدة، فاذا ما تغلبوا على دمياط أمكنهم الزحف الى القاهرة، ولكن عموري رفض هذا العرض خشية التعرض للهزيمة فاستاء القائد البيزنطي من هذا التصرف ، وعقد مجلسا من قواده لبحث الموقف، وانتهى الرأى بينهم على أن ينفردوا هم بمهاجمة المدينة، وهكذا بدأ الانقسام في معسكر العدو ، وكان ذلك أول مظهر من مظاهر الفشل ، ثم بدأ كل من الحليفين يشك في الآخر ويخشى أن ينفرد وحده بالهجوم حتى لايستأثر وحده بالاستيلاء على مصر . ولهذا بدأ الفرنج يتصلون بالمصريين ليفسدوا على البيزنطيين خطتهم ثم أن عموري أصبح يحس بالقلق على أملاكه في فلسطين من هجمات نور الدين، فقد انتهز نور الدين الفرصة وسار بقواته الى بلاد الفرنج فنهبها واستباحها، وخلاصة القول أن الحملة الصليبية البيزنطية منيت بالفشل بعد هذا الانقسام، وانتهى الأمر بعقد اتفاقية بين الفريقين المتحاربين ، وعاد الصليبيون الى بيت المقدس كما رحل البيزنطيون الى بلادهم بعد أن تعرضوا لخسائر فادحة، فقد هبت على أسطولهم عاصفة عاتية أثناء ابحارهم في طريق عودتهم، قضت على معظم سفنهم وأهلكت الكثيرين من عسكرهم، ويشبه ابن الاثير هذه الحملة بالنعامة خرجت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين . ويعتبر فشل هذه الحملة المشتركة على دمياط نقطة

تحول في تاريخ الشرق الادنى الاسلامي، فقد ثبتت هذه الحملة الفاشلة من أقدام صلاح الدين في مصر ودعمت مركزه أمام نور الدين.

ب - سقوط الخلافة الفاطمية :

كان موقف صلاح الدين منذ توليه الوزارة غريبا للغاية، فقد كان وزيرا لصاحب مصر الشيعي ، وهو في نفس الوقت قائدا لجيش نور الدين صاحب الشام السنى ونائبا عنه في مصر ، وهو على هذا النحو كان موزع الولاء، وعلى الرغم من اهتمامه الكبير بالقضاء على الخلافة الفاطمية بحكم كونه سنيا متعصبا لمذهبه فقد اتبع ازاء الرجلين سياسة قوامها الحكمة والحذر ، فلم يبادر العاضد بالعداء السافر ، ولهذا السبب لم يتردد العاضد قط في بذل العون له أثناء الحصار الصليبي البيزنطي لدمياط ، كما أن صلاح الدين لم يشأ استثارة رجال القصر الموالين للدولة الفاطمية- وكلهم كان ناقما عليه لتوليه الوزارة وهو أخطر مناصب الدولة- ان هو بادر بقطع الخطبة للعاضد، ولهذا السبب كان صلاح الدين كلما استحثه نور الدين على اسقاط الخلافة الفاطمية، كلما سوف وتلكأ حتى تتاح له الفرصة المواتية. وكان نور الدين مدفوعا في ضغوطه على صلاح الدين أولا لتعصبه لسنيته، وثانيا لرغبته في اجابة الخليفة العباسي الى طلبه، اذ كان دائم الالحاح على نور الدين في أن يلغى الخلافة الفاطمية ، ويزيل رسومهم في مصر ، ويقضى على آثارهم ولكن صلاح الدين كان أعرف بأحوال مصر من نور الدين ، ولهذا السبب آثر التمهل

وتمهيد الطريق قبل أن يضرب ضربته الأخيرة، فعلى الرغم من أن معظم أهل مصر كانوا شافعية أو مالكية الا أن السياسة التى اتبعها العزيز بالله فى مصر وتقوم على دعوة المصريين دون أى الزام باعتناق مذهبها عن طريق شرح نصوص التشريع الشيعى ، ثم النظام الدقيق الذى وضعه الحاكم بأمر الله من بعده لتحويل المصريين الى المذهب الرسمى وذلك باقامة مشرفين فى أنحاء البلاد للدعوة الهادية حسب تسميته لها، ومنهم داعى الدعاة وقاضى القضاة والنقباء، وبتحويله الازهر الى جامعة لهذا الغرض ، وباقامته دار الحكمة ملحقة بهذا الجامع. وهكذا كان المذهب الفاطمى قرب نهاية الدولة الفاطمية قد انتشر بين المصريين، لذلك كله كان صلاح الدين يخاف أن يثور عليه أهل مصر اذا هو بادر باعلان سقوط الخلافة الفاطمية، وفى ذلك يقول ابن واصل : « كان العادل نور الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد ويخطب للخليفة من بنى العباس، فاعتذر صلاح الدين بن أيوب بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة لذلك لميلهم الى العلوية، فلم يصغ نور الدين الى قوله، وأرسل اليه يلزمه ذلك الزاما لا فسحة فيه » .

وعلى هذا الاساس بدأ صلاح الدين بالخطوات الأولى لتقليم أظافر الخليفة العاضد وقواد جيشه ورجال قصره، فقد كان لهؤلاء نفوذ واسع فى أيام العاضد، وكانوا يتدخلون فى سياسة الدولة بحيث تمكنوا من قتل الوزير الصالح طلائع بن رزيك، ويذكر المقريزى أن عددهم كان كبيرا عند سقوط الدولة الفاطمية [1]، وكانوا يعرفون بالأستاذين

(١) أورد المقريزى فى الخطط نصا جاء فيه أن القصر « أغلق على ثمانية عشر ألف نسمة ، عشرة آلاف شريف وشريفة وثمانية آلاف عبد وخادم وأمة ومولدة ومربية ».

وهي كلمة فارسية بمعنى عبيد القصر الذين يقومون بأعماله المختلفة، وكان يشرف على هذا الجهاز الضخم رؤساء يعرفون بالمحتكين .

عمل صلاح الدين على محاربة هؤلاء القادة ورجال القصر، فبدأ يضايقهم ويستبد بهم، وقد رأينا كيف أنه أمر بقتل مؤتمن الخلافة جوهر وأقام مكانه بهاء الدين قراقوش ، وأبعد القواد السودان عن القاهرة الى الصعيد، واستولى على اقطاعاتهم وقصورهم ومنحها لقواده [illegible] ليضمن ولاءهم ، ثم ان صلاح الدين أخذ يصادر مخصصات العاضد ويمنعه من المال والخيل والرقيق ، وحجر عليه ومنعه من الركوب فى المواكب والجلوس العام فى القصر الكبير، ثم اعتقل اقرباءه، وألغى من نقش العملة كلمة المعزية، ثم أرسل الى نور الدين يستأذنه فى أن يرسل اليه أباه نجم الدين وأهله، فأرسلهم اليه، ولما قدم أيوب فى سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩م) أخرج صلاح الدين الخليفة العاضد لاستقباله، وفى هذا التصرف ما يشير الى تسلط صلاح الدين على الخليفة وامتهانه لشخصه .

ولم يكتف صلاح الدين بذلك بل عمل على محاربة المذهب الشيعي نفسه بمصر، وساعده على ذلك انه كان له الاشراف على القضاء والدعوة معا، اذ كان يلقب بكافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين . فبدأ صلاح الدين معركته ضد التشيع بعزل قضاة الشيعة فى مصر وقطع أرزاقهم وتشريد دعاتهم والغاء مجالس دعوتهم، كما

أقدم على الغاء بعض العبارات الشيعية الشائعة عند الأذان مثل عبارة « حي على خير العمل » واستبدلها بعبارة « حي على الفلاح ». وحذف من نقوش العملات عبارة « على ولى الله » ، ثم أشاع أن نسب الفاطميين الى على غير صحيح وأنهم من نسل المجوس أو اليهود ، ومنع الصلاة بالجامع الازهر وجامع الحاكم، ثم عمل على تعميم المدارس السنية فى مصر، وقد كان الهدف من حركة انشاء المدارس منذ شرع فيها السلاجقة وتابعهم فيها الأتابكة، هو محاربة المذهب الشيعي ، وكانت أول مدرسة أسسها صلاح الدين هي المدرسة الناصرية التى أقيمت فى الفسطاط لتدريس المذهب الشافعي، ثم أنشأ مدرسة أخرى لتدريس المذهب المالكي . كذلك تقدم صلاح الدين خطوة أخرى الى الامام، فنصب صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي قاضيا للقضاة فجعل القضاة فى سائر الديار المصرية شافعية، وفى ذلك يقول ابن واصل : « فاشتهر مذهب الشافعية واندرس مذهب الاسماعيلية بالكلية، وانمحى أثره ، ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به ».

ولما تم له ذلك كله، جمع أمراء جيشه يستشيرهم فى مسألة قطع الخطبة فترددوا كثيرا، وأخيرا تقدم فقيه أعجمي يدعى الخبوشاني تطوع بالبدء فى تنفيذ هذا القرار، وخطب الرجل فى أول جمعة من شهر المحرم سنة ٥٦٧هـ (١٠ سبتمبر ١١٧١م) دون أن يدعو للخليفة العاضد، وانما دعا للخليفة العباسي المستضيء بنور الله، فلم

بنك عليه أحد ذلك، فلما كانت الجمعة التالية أمر صلاح الدين بتعميم الخطبة للمستضيء في جميع مساجد مصر والقاهرة، وبذلك انتهى آخر خيط يربط مصر بالدولة الفاطمية. أما الخليفة العاضد فيقال انه اغتم ومات بعد عشرة أيام في يوم عاشوراء، وقيل أنه كان بيده خاتم فيه سم، فمصه ومات. وبذلك سقطت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت مصر قرابة قرنين من الزمان، وأمر صلاح الدين على أثر ذلك بالاستيلاء على كنوز الفاطميين، وذكر المؤرخون أن صلاح الدين أمر باعتقال افراد أسرة العاضد وكانوا أكثر من مائة، وفرق الرجال من النساء لئلا يتناسلوا، واستمروا معتقلين طوال عصر الدولة الايوبية، وكانت تصرفات بهاء الدين قراقوش الجائرة نحو سكان القصور الفاطمية سببا في أن يسخر منه الكتاب، فألفوا كتابا سموه « الفاشوش في حكم قراقوش » .

ويعبر المقريزى عن سقوط الخلافة الفاطمية بقوله :« ولما مات العاضد لدين الله في يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة احتاط الطواشي قراقوش على أهل العاضد وأولاده، فكانت عدة الاشراف في القصور مائة وثلاثين ، والأطفال خمسة وسبعين ، وجعلهم في مكان أفرد لهم خارج القصر ، وجمع عمومته وعشيرته في ايوان بالقصر، واحترز عليهم، وفرق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا وليكون ذلك أسرع لانقراضهم، وتسلم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب القصر بما فيه من الخزائن والدواوين وغيرها من الاموال والنفائس

، وكانت عظيمة الوصف، واستعرض من فيه من الجوارى والعبيد، فأطلق من كان حرا، ووهب واستخدم باقيهم، وأطلق البيع فى كل جديد وعتيق ، .. ثم قسم القصور فأعطى القصر الكبير للأمراء فسكنوا فيه ، وأسكن أباه نجم الدين أيوب بن شادى فى قصر اللؤلؤة على الخليج (١).

وأحدث سقوط الخلافة الفاطمية دويا هائلا فى العالم الاسلامى السنى ، وزينت بغداد يومها وأغلقت الاسواق، وأقيمت الاحتفالات لاستقبال رسول نور الدين محمود وقراءة المنشور، وأسرع الخليفة المستضىء بارسال الخلع من ملابس وغيرها لنور الدين وصلاح الدين وكلها سوداء شعار العباسيين، واحتفلت مصر بوصول خلعة الخليفة العباسى الى صلاح الدين .

أما المصريون فبقدر ما رحب الكثيرون منهم بسقوط الخلافة الفاطمية بقدر ما أسف معظمهم لزوالها ، وحزنوا لوفاة العاضد تحسرا لما آل إليه حاله، فهذا ابن تغرى بردى يعبر عن هذه المشاعر بقوله : « أن نفوس المصريين كادت تزهق حزنا لانتهاء دولة الفاطميين » (٢)، والواقع أن الدولة الفاطمية جعلت من مصر دولة مستقلة تماما لايتولاها ولاة لا من دمشق ولا من بغداد ، وانما كان يحكمها خلفاء من بيت الرسول منافسون لخلفاء بنى العباس ، ومن هنا كان سر العداء القديم

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج٢ ص ٣٩٩

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج٥ ، ص ٣٥٧

بين بغداد والقاهرة . وقد اتضح للمصريين ان سقوط الخلافة الفاطمية أصبح يعرض استقلال بلادهم للخطر اذا صارت تابعة للخلافة العباسية وعندئذ يتولى حكمها الاتراك الغز وهو أمر لم يكن من السهل على المصريين قبوله بعد أن نعموا فى ظل الفاطميين بالاستقلال، ومن الملاحظ أن الفاطميين كانوا يعتزون بمصريتهم، ويتمثل ذلك فى وصف أسطولهم عند ابن القلانسى بأنه الاسطول المصرى، ووصف عسكرهم بالعسكر المصرى والمصريين .

(٢)

المرحلة الانتقالية بين سقوط الدولة الفاطمية ووفاة نور الدين محمود

(٥٦٧ - ٥٦٩هـ) (١١٧١ - ١١٧٤م)

كان صلاح الدين يوسف بعد قضائه على الخلافة الفاطمية يتولى مصر باعتباره نائبا عن نور الدين محمود ، ولهذا السبب لايجوز القول بأن قيام الدولة الايوبية يرتبط بالسنة التى سقطت فيها الخلافة الفاطمية . اذ كان صلاح الدين فى السنوات التى تولى فيها حكم مصر من قبل سيده نور الدين مجرد تابع له يلبى أوامره ويحقق كل مطالبه، وان كان قد عبر عن استيائه من هذا الوضع بعدة مخالفات وترت العلاقات بين السيد والتابع، اذ اعتبر نور الدين هذه المخالفات نزوعا الى الاستقلال عن الدولة النورية، ولم يسيطر صلاح الدين على الموقف وتتأكد له السيطرة الفعلية على مصر الا بعد وفاة نور الدين محمود فى سنة ٥٦٩هـ ، وتسجل هذه السنة البداية الحقيقية لقيام الدولة الايوبية .

وقد شهدت هذه السنوات الانتقالية الثلاث حادثين هامين : الأول غزوة نورمندية تعرضت لها الاسكندرية بالاتفاق مع مؤامرة مدبرة فى الداخل ، والثانى تدهور العلاقات بين نور الدين وصلاح الدين .

١- حملة صاحب صقلية على الاسكندرية والمؤامرة الشيعية فى الداخل :

شهدت الاسكندرية بعد عامين من سقوط الدولة الفاطمية غزوة قام بها وليم الثانى النورمندى ملك صقلية كذيل لمؤامرة واسعة النطاق دبرها جماعة من أنصار الفاطميين فى مصر لاحياء الخلافة الفاطمية بالاتفاق مع أعداء صلاح الدين من الفرنج والاسماعيلية الحشيشية فى جبال الدعوة بالشام، واتفق هؤلاء المتآمرون فى مصر وعلى رأسهم عمارة اليمنى ، وعبد الصمد الكاتب ، والقاضى العويرس على استدعاء الفرنج من صقلية والشام الى مصر بعد ألا بذلوا لهم شيئا من المال ووعدوهم ببعض البلاد، وكاتبوا راشد الدين سنان بن سلمان مقدم اسماعيلية الشام، وكان فى نيتهم أنه اذا قدم الفرنج، وخرج صلاح الدين لردهم ثاروا هم بالقاهرة ومصر، وأعادوا الدعوة الاسماعيلية، ولكن واحدا من الفقهاء الذين ادخلوهم معهم فى مؤامرتهم واسمه زين الدين على بن نجا داخلهم وأفضى الى صلاح الدين بتفاصيل المؤامرة [١] فأمر بالقبض عليهم وصلب ثمانية من رؤسائهم بين القصرين فى ٢ رمضان سنة ٥٦٩هـ . ولم يكن وليم الثانى ملك صقلية قد علم بعد بفشل الشق الثانى من المؤامرة، ولم يعلم أن صلاح الدين وضع يده على المتآمرين ، ولذلك سير وليم أسطولا ضخما الى الاسكندرية بقيادة رجل من دولته يقال له أكيم مؤذقة [٢] تنفيذا لما تم الاتفاق عليه مع

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ص ٢٤٣ - ٢٤٦ .
(٢) المقريزى ، السلوك،ج١ ، ص ٥٦- النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الادب ،ج ٦ ص١٩ .

المتآمرين في الداخل . ويذكر المؤرخون أن اسطول صقلية وصل بغته الى ثغر الاسكندرية قبل ظهر الأحـد ٢٦ ذى الحجة [١] على غفلة من المتوكلين بالنظر لاعلى حين خفـاء من الخبر، فأمر ذلك الاسطول كان قد اشتهر ، ورست قطعه على البر مما يلى البحر والمنارة، وكان يتألف على جد قول ابن شداد من ستمائة قطعة ما بين شيني وطرادة وبطسة وغير ذلك [٢] ، منهـا ٣٦ طريدة تحـمل من الخـيل ١٥٠٠ فرس،ومائتا شيني تحمل من المقـاتلة ثلاثين ألف مقـاتل ، فى كل شيني ١٥٠ رجـلا، وست سفن تحمل آلات الحرب والحصـار من الاخشاب كالمجانيق والدبابات والابراج ، وأربعون مركبا حمالة تحمل مؤونة الجيش والازواد والخدم وغلمان الخيالة وصناع المراكب وأبراج الزحف والدبابات بحيث أصبح مجموع من اشترك فى هذه الحملة من الفرنج خمسين ألف مقاتل ، من بينهم الف فارس ، وما ان اكتمل نزول الفرنج على البر حتى خرج اليهم أهل الثغر بعددهم واسلحتهم، فمنعهم المتولى عليهم وأمرهم أن يقاتلوا من وراء السور، فقاتلهم أهل الاسكندرية قتالا شديدا ، ثم حمل الفرنج على المسلمين حملة عنيفة دفعتهم الى أسوار الاسكندرية، وقتل فى هذا الهجوم من أهل الثغر فى قول سبعمائة شخص [٣] ، وفي قول آخر سبعة فقط [٤]، وقـد أورد أبو شامة اسم أحدهم هو محمود بن البصار، ومن المرجح ان هذا القول

(١) أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين ، ص ٥٩٨
(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٤٩ .
(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ص ١٣ ،
(٤) أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ص ٥٩٩

الثاني أقرب الى الصواب لأنه لم تحدث موقعة حاسمة بين الفرنج والمسلمين تؤدى الى مثل هذا العدد الهائل من القتلى ، أضف الى هذا أن أهل الاسكندرية كانوا يتوقعون طروق الفرنج لمدينتهم حتى على الرغم من قدوم هؤلاء بغته أو على غفلة من المتوكلين بنظرها، ثم أن الفرنج لم يكونوا قد اقتربوا بعد من المدينة، وانما نزلوا على مقربة من ساحل المنار أى في المنطقة المعروفة ببحر السلسلة ثم جذفت مراكب الفرنج بقصد دخول الميناء الغربية، وكان بهذا الميناء مراكب مقاتلة وأخرى معدة للاقلاع راسية، فعندما فطن المسلمون الى قصد الفرنج من دخولهم الميناء خافوا أن تقع السفن بما فيها في أيدى الفرنج وتصبح غنيمة باردة لهم ، فسبقوهم اليها وأغرقوا ، وأحرقوا بعضا منها، ثم إشتبك الفرنج مع المسلمين في قتال عنيف استمر حتى المساء، وعندئذ ضرب الفرنج خيمائهم بالبر ، وكانت عدتها ٣٠٠ خيمة، ولما أصبحوا نصبوا ٦ دبابات بكباشها وثلاثة مجانيق ضخمة تضرب بحجارة صلبة جلبوها معهم من صقلية، وكانت دباباتهم مصنوعة من خشب شديد الصلابة ، وتشبه الابراج في عظم الارتفاع والاتساع وكثرة ما تحمله من المقاتلة، وزحف الفرنج بهذه الآلات واقتربوا من السور، وبدأوا يحكمون الحصار حول سور الاسكندرية من جهة البحر، وقضوا نهار ذلك اليوم في قتال مع المسلمين

لم تكد أخبار نزول الفرنج بالاسكندرية تصل عن طريق الطير الى صلاح الدين حتى بادر بتسيير العسكر على الفور الى ثغر الاسكندرية،

كما أمر بتجهيز عسكر آخر الى دمياط، اذ كان يتوقع قدوم حملة أخرى الى هذا الثغر .وفى هذه الاثناء اشتد القتال ، واستبسل أهل الاسكندرية فى الدفاع عن مدينتهم مع قلة من كان لديهم من العسكر، ولكن الامدادات بدأت تتلاحق من القاهرة، فاشتد بها أزرهم، وتقوت نفوسهم ، وفى اليوم الثالث من الحصار، فتح أهل الاسكندرية فجأة أبواب مدينتهم وانحطوا كالبواشق على أعدائهم وتعالى الصياح من كل جانب ، وتكاثروا على الفرنج ، فأحرقوا الدبابات المنصوبة، ومزقوا أعدائهم شر ممزق وفى اليوم الرابع وأصل المسلمون القتال بضراوة وعنف ، وأحرقوا معدات الحصار التى كان قد نصبها الفرنج. ثم تظاهروا بالكف عن القتال، ودخلوا مدينتهم لقضاء فريضة الصلاة وهم ينوون المباكرة، فانخدع الفرنج بذلك. وظنوا أن القتال فى ذلك اليوم قد توقف ، وما كادوا يخلعون جواشنهم، ويلقون بدروعهم، ويأوون الى خيامهم التماسا للراحة بعد قتال عنيف حتى كر عليهم المسلمون، وخيوط الظلام قد بدأت تنتشر فى الأفق، ففتكوا بهم فى داخل خيامهم، وقتلوا منهم اعدادا هائلة، ولم يسلم من خيالة الفرنج الا من نزع عنه لباسه ورمى نفسه فى البحر، وقبض المسلمون على الباقين باليد، واقتحموا البحر على من فر بالمراكب فخسفوها وأغرقوها. أما بقية مراكب الفرنج فقد ولت هاربة "[1] .

ثم أقلع الاسطول الصقلى بالناجين منهم من الثغر فى اليوم الخامس من بدء حصارهم للاسكندرية، أى فى مستهل المحرم سنة ٥٧٠هـ .

---

(١) راجع التفاصيل فى أبو شامة، الروضتين ،ج٢ ص ٦٠٠ – ابن واصل ، مفرج الكروب ج٢ ص ٦٠،٦٥م – السلوك، ج١ ص ٥٧ .

ب - الجفوة بين السيد والتابع (أو تدهور العلاقات بين نور الدين وصلاح الدين) :

من العدل التاريخي أن تنسب الدولة الجديدة الى نجم الدين أيوب مع أن مؤسسها الفعلي هو صلاح الدين، ذلك أن أيوبا كان القوة السياسية المحركة لصلاح الدين ، وهو الذى رتب لصلاح الدين الخطوات التى أدت الى تأسيس دولة مستقلة عن أتابكية حلب ودمشق، والواقع أن الدور الذى قام به أيوب يستحق الدراسة، لأنه دور كبير وهام، اذ ليس من العدل أن يظل الرجل الذى كان السبب فى تسليم دمشق غنيمة باردة لنور الدين خامل الذكر منذ سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤) ،وفى التاريخ الاوربى فى العصور الوسطى أمثلة لهذا التجاوز فى التسمية، فقد عرفت الدولة الفرنجية التى أسسها كلوفيس فى اوائل القرن الثالث الميلادى باسم الدولة الميروفنجية نسبة إلى جده ميروفنج ، كما عرفت الدولة الكارولنجية بإسم كارى أو شارل مع أن مؤسسها الحقيقى هو أبوه ببين القصير فى القرن الثامن الميلادى ، وفى التاريخ الإسلامى أمثلة لهذه الظاهرة ، منها الدولة المؤمنية نسبة إلى عبد المؤمن بن على مع أن مؤسسها هو المهدى محمد بن تومرت. ومهما يكن الأمر فليس فى الامكان تسمية الدولة الايوبية بغير ماسميت به، واذا قيل ان فى الامكان اطلاق اسم الدولة الصلاحية عليها كما فعل أبو شامة فان التاريخ نفسه ينكر تلك التسمية، اذ أن صلاح الدين وأعقابه ليسوا وحدهم سلاطين الايوبية بل انتقلت الى الفرع الثانى من أبناء ايوب بعد وفاة صلاح الدين بعهد قصير ، كما حدث للدولة الأموية عندما انتقلت من فرع معاوية بن أبي سفيان الى فرع مروان بن الحكم .

ونتساءل ماهو وضع صلاح الدين بن أيوب بعد وفاة العاضد ، وللاجابة عن ذلك لابد من تتبع حقيقة الاوضاع السياسية فى مصر وعلاقة صلاح الدين بنور الدين محمود بن زنكى، ولقد وجد صلاح الدين نفسه بعد وفاة العاضد ممثلا لأكبر قوة فى مصر ، ولم ينتظر ليرى ما سوف يقدم عليه الفاطميون بالقاهرة بعد وفاة العاضد، بل بادر بالقاء القبض على جميع أبناء البيت الفاطمى كما سبق أن ذكرنا، وفرق بين الرجال منهم والنساء حتى لايتناسلوا ،ويكون ذلك أسرع لانقراضهم ،ووزع قصورهم وعبيدهم وحاشيتهم على رجاله وقادته وذويه [١] وفتح القصور الفاطمية ووزع ما بها من تحف ونفيس الجوهر والمتاع على رجاله وقادته، وأرسل منها كميات هائلة الى سيده نور الدين ، وفتح خزائن الكتب وأعطى محتوياتها الى القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى، وتجمع المصادر على أن صلاح الدين لم يختص لنفسه بشىء ، بل أنه ظل يقيم بدار الوزارة التى كان يسكنها منذ أن تولى منصب الوزير ، ولم ينتقل منها بعد أن صارت له قصور الفاطميين [٢] ، كما زهد فى الغنائم التى تدفقت عليه من مخلفات القصور الفاطمية .

كان صلاح الدين ملتزما بالولاء لسيده نور الدين ، وفيا له ،

---

(١) أعطى صلاح الدين القصر الشرقى الكبير لأمراء دولته وأنزلهم فيه فسكنوه، وأعطى القصر الغربى الصغير لأخيه الملك العادل سيف الدين أبى بكر فسكنه وفيه ولد له ابنه الكامل محمد، وأنزل والده نجم الدين أيوب فى منظره اللؤلؤة .

(٢) نزل السلطان صلاح الدين فى دار الوزارة الكبرى الى أن بنيت قلعة الجبل. فكان السلطان يتردد عليها ويقيم بها من وقت الى آخر وكذلك فعل ابنه الملك العزيز عثمان وجاراه فى ذلك ايضا الملك العادل سيف الدين أبو بكر أخ صلاح الدين . فلما كان الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر تحول من دار الوزارة الى القلعة وسكنها (المقريزى ، الخطط ، طبعة بيروت ج ٢ ص ١٨٠ ، ١٨١).

وكان يخطب باسمه الى جانب اسم الخليفة العباسي ، ويضرب العملات باسم نور الدين [1] ، ولكن العلاقات بينه وبين سيده لم تلبث أن توترت ، ووقعت الوحشة بينهما بعد وفاة العاضد ببضعة أشهر، ولم يكن صلاح الدين قد شرع بعد في التمكين لنفسه بمصر كما يزعم بعض المؤرخين ، فان انشاء القلعة انما شرع فيه صلاح الدين بعد سنة ٥٧٢هـ ولم يستكمل بناؤها في عهده اذ توفى قبل أن يتم بنيانها فأكملها العادل أبو بكر ثم الملك الكامل .

يزعم المؤرخ ابن الاثير أن جفوة وقعت بين نور الدين وصلاح الدين منذ أن أسقط الدولة الفاطمية ، وأن هذه الجفوة كادت تؤدى الى خروج نور الدين الى مصر والاقدام على اقصاء صلاح الدين عن ولايتها. وعن ابن الاثير نقل كثير من المؤرخين اللاحقين هذا القول، غير أن من الصواب أن نأخذ هذا القول بشيء من الحذر لان ابن الاثير متهم في بعض ما يكتبه عن صلاح الدين . فهو يلتمس المناسبات أحيانا لنقد صلاح الدين وتجريحه وخاصة عند المقارنة بينه وبين نور الدين ، وقد يكون لنشأة ابن الاثير في الموصل، موطن نور الدين والبيت الاتابكي الذي ينسب اليه، أثر في موقفه هذا .

أما أسباب الجفوة كما يرويها المؤرخون فتتلخص فيما يلي :

١- يزعم هؤلاء المؤرخون أن صلاح الدين خرج سنة ٥٦٧هـ

---

(١) كان نور الدين يقدر له ذلك وقد أنعم عليه بلقب الأمير الاسفهسلار ، وكان يكتب علامته على رأس الرسائل تعظيما له (ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج١١ ، حوادث سنة ٥٦٤هـ ، ص ٣٤٤)

(١١٧١م) لمحاصرة حصن الشوبك، وعلم نور الدين بذلك ، فأبدى رغبته فى مساعدته، وخرج من دمشق متجها نحو حصن الشوبك، غير أن صلاح الدين ترك الحصن عندما علم بقرب وصول نور الدين وعاد الى مصر ، وكتب الى نور الدين يعتذر اليه باضطراب الأمور فيها، ولكن نور الدين لم يقبل هذا العذر وعزم على الخروج الى مصر واخراج صلاح الدين منها (١) ، فجمع صلاح الدين أهله وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي وسائر الامراء واستشارهم فيما ينبغي أن يفعله، فأشار عليه البعض بالامتناع على نور الدين ومحاربته الا أن أباه نجم الدين أيوب عارض هذا الرأى معارضة شديدة، وقال انه وولده وجميع القواد ماهم الا قواد لنور الدين يجب عليهم طاعته (٢) ، وما كاد يخلو بصلاح الدين بعد انفضاض المجلس حتى عاتبه على تسرعه وقال له : « أنت جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على مافى نفسك ، فاذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك من أهم أموره وأولاها بالقصد ، ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحدا، وكانوا يسلمونك اليه، وأما

(١) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ج١١ حوادث ٥٦٧هـ ، ص ٣٧٢ - أبو شامة ج١ ص ٢٢٣.
(٢) ذكر ابن الاثير انه عندما اجتمع صلاح الدين بذويه وقواده وأمراء الجيش فى تلك الجلسة أعلمهم بما بلغه من عزم نور الدين وحركته اليه واستشارهم، فلم يجبه أحد بكلمة واحدة، فقام تقى الدين عمر ابن اخى صلاح الدين فقال: اذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد، ووافقه على هذا القول غيره من أهلهم، فشتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه، وشتم تقى الدين وأقعده، وقال لصلاح الدين : أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى ، ووالله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين لم يمكنا الا أن نقبل الارض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فاذا كنا نحن هكذا، فما ظنك بغيرنا ؟ »
(ابن الاثير ، المصدر السابق ، نفس الصفحة)

الآن بعد هذا المجلس سيكتبون اليه ويعرفونه قولي ، فتكتب اليه وترسل في هذا المعنى .. فهو اذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده، والأيام تندرج والله كل يوم هو فى شأن » [1] ، وختم قوله بالعبارة الآتية ما كان ينبغي أن تصنع ما صنعت ، فان الأخبار لاشك تبلغ نور الدين ،ألا فاعلم أننا لانسلم البلاد له ، ولو أراد قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل .

٢- جرت بعد ذلك مفاوضات بين نور الدين وصلاح الدين، وانتهى الرأى بأن يخرجا معا فى اوائل شوال عام ٥٦٨هـ (١١٧٢م) لحصار حصن الكرك والاستيلاء عليه، وخرج صلاح الدين وبدأ حصاره للحصن ، فلما بلغه قرب وصول نور الدين رفع الحصار وعاد الى مصر ، وأرسل الفقيه عيسى الهكارى الى نور الدين يعتذر عنه بأنه اضطر الى العودة لمرض والده، ولاختلال الاحوال فى مصر ، وأرسل اليه معه هدايا نفيسة من مخلفات وذخائر الدولة الفاطمية، وتقول الرواية أن نور الدين لم يقتنع بهذا الاعتذار [2] وبدأ يتوجس من نوايا صلاح الدين .

٣- أحس صلاح الدين بتغير نور الدين عليه وبرغبته فى المجيء الى مصر، بعد وفاة أبيه نجم الدين أيوب ، ويذكر ابن الاثير أن نور الدين كان قد شرع يتجهز للدخول الى مصر لأخذها من صلاح الدين يوسف بن أيوب، فانه رأى منه فتورا فى غزو الفرنج من ناحيته،

(١) أبو شامة ، ج١ ص ٢٢٣
(٢) ابن الاثير ، ج١١ حوادث ٥٦٨ ص ٣٩٣

وكان يعلم انه انما يمنع صلاح الدين من الغزو الخوف منه ومن الاجتماع به ، فانه يؤثر كون الفرنج في الطريق ليمتنع بهم على نور الدين ، فأرسل الى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر للغزاة، وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل بالشام ، ويسير هو بعساكره الى مصر ، فبينما هو يتجهز لذلك أتاه أمر الله الذي لامرد له»[1] .

ويقال أن صلاح الدين عندما أدرك أن نور الدين يسعى الى ازاحته عن مصر اراد أن يبحث لنفسه ولأسرته عن ملك جديد حتى اذا حقق نور الدين رغبته وأخرجه من مصر انتقل بأسرته الى هذا الملك الجديد، ولهذا أرسل أخاه شمس الدولة توران شاه في سنة ٥٦٨هـ لفتح بلاد النوبة، فوصل بجيشه الى ابريم واستولى على قلعتها ، ثم عاد ومعه الكثير من الغنائم والعبيد والجواري [2] .

٤ – ويزعم ابن الاثير أن توران شاه وصف بلاد النوبة بأنها بلاد قاحلة جرداء، فعلم صلاح الدين أنها لاتصلح لأن تكون مقرا لملك جديد، ولهذا السبب أرسل أخاه شمس الدولة توران شاه بجيش آخر في سنة ٥٦٩هـ الى اليمن لفتحها واتخاذها ملكا لبني أيوب اذا ما أقدم نور الدين على اخراجهم من مصر. فسار توران شاه في مستهل رجب الى مكة أولا ، ومنها توجه بقواته الى زبيد فملك البلد عنوة واستولى

(١) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٤٠٢ .

(٢) نفسه ، ج ١١ ، ص ٣٨٧

علي عدد وقلعه نحو الحصيب،

هذه هي الأراء المختلفة التي يوردها بعض المؤرخين لاثبات قيام الجفوة بين نور الدين وصلاح الدين ، وهي اراء يعوزها الدليل القوى ، ولكن من المؤكد أن العلاقات بين دمشق والقاهرة فترت فتورا واضحا في أواخر أيام نور الدين، بحيث فكر نور الدين في اخراج صلاح الدين من مصر بأى ثمن، فأرسل الى الخليفة العباسي يطلب منه تقليده ما بيده من البلاد المصرية والشامية والجزرية وغيرها [1] سنة ٥٦٨هـ (١١٧٢م)، فأجابه الخليفة الى ذلك، ثم بدأ يتحرش بصلاح الدين، فبعث اليه رسولا من قبله في عام ٥٦٩هـ (١١٧٣م) لاستيفاء حساب البلاد [2] وكشف أحوالها ومعرفة ما اذا كان ما يزال في طاعته، فغضب صلاح الدين ، ورد على الرسول بقوله «الى هذا الحد وصلنا ، وكاد يعلن تمرده على نور الدين ، ولكنه عدل عن ذلك واصطنع الحكمة فكظم غيظه ، وأمر باعداد ما طلبه نور الدين من حسابات حتى يسترضيه ويفوت عليه حجته في القدوم الى مصر لعزله ، وعمد الى مهاداته وموادعته، وكان نور الدين يعد العدة الا اذا كان يخفى وراءه رغبة أكيدة في تفادى هذا اللقاء، أما الحجة التي تذرع بها صلاح الدين فلا مجال للاقتناع بها، اذ كان من الممكن أن يعتمد صلاح الدين أثناء غيابه في غزوته على أبيه في المرة الأولى (الشوبك) أو على أخيه الأكبر توران شاه أو العادل سيف الدين أبي بكر أو طغتكين ،

---

(١) نفسه ، ج ١١ ، ص ٣٩٥

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ص ٢٣٢

وكلهم جاء الى مصر لشد أزر صلاح الدين .

٢ - يرى الدكتور الشيال أن قصة المجلس الذى عقده صلاح الدين مع ذويه وأمراء جيشه قصة أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة، ويتساءل قائلا: « كيف تسنى للمؤرخين أن يتعرفوا على الحديث الذى دار بين الأب وابنه فى خلوة خاصة لم يكن معهما فيها ثالث وهو من الاسرار الدقيقة التى لايجوز أن ينقلها أحد الرجلين الى ثالث حتى لايداع فتضيع الحكمة من اسداء النصيحة؛ ونرد على الدكتور الشيال بأنه من الممكن جدا أن يكون خبر هذه المحادثة السرية قد تفشى عن طريق صلاح الدين نفسه ، فليس من الضرورى أن يظل خبرا مثل هذا حبيسا فى قلب صلاح الدين ، ولا أستبعد انه قاله بعد ذلك عندما تمكن من توطيد دعائم دولته عقب وفاة نور الدين حتى يظهر نوايا أبيه فى المسالمة الصادقة .

ويستند الدكتور الشيال فى رأيه بأن ابن شداد مؤرخ صلاح الدين واحد المقربين اليه روى عن صلاح الدين رأيا آخر يدل على أن صلاح الدين لم يفكر يوما فى الخروج على نور الدين أو عصيانه، بل ذكر ان فكرة العصيان راودت بعض قواده فكان هو الذى عارضها وقاومها، يقول ابن شداد فى السيرة اليوسفية أنه سمع صلاح الدين نفسه يقول له « كان بلغنا عن نور الدين أنه يقصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه، ونلقى عسكره بمصاف نرده اذا تحقق قصده، وكنت وحدى أخالفهم

وأقـول : لايجـور أن يقـال شيء من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته [١] » .

ونرد على ذلك أيضا فنسأل : ماذا ننتظر من مؤرخ صلاح الدين ومن أخص المقربين اليه الا أن يكون مادحا للسلطان ، ثم أنه من الطبيعي لصلاح الدين أن يظهر غير ما يبطن ، فهو يظهر ولاءه لسيده حتى لايفسد ما بينه وبينه ، ويتجنب سخطه وغضبه ، يؤيد ذلك أن نور الدين كان يكتب لصلاح الدين بالامير الاسفهسلار ، بينما كان صلاح الدين يكتب عليه باسم مولانا دلالة على تبعيته له، كما كان يوادعه ويسعى الى كسب قلبه بمهاداته بنفيس التحف والجوهر والذخائر له ولأسرته .

٣- يرى الدكتور الشيال أن حملة النوبة لم يكن هدفها الحقيقي البحث عن ملك جديد يلجأ إليه صلاح الدين وأسرته اذا ما فكر نور الدين في اخراجهم من مصر، فقد قضى صلاح الدين أربع سنوات قبل خروج هذه الحملة قائدا ووزيرا وواليا، وعرف من أمورها الشيء الكثير ، وكان يعرف بدون شك أن بلاد النوبة قاحلة، ولم يكن سبب قيام توران شاه بهذه الحملة القوية رغبته في البحث عن ملك يلجأ اليه اذا ما أبعده نور الدين عن مصر، وانما السبب الحقيقي في رأى الدكتور الشيال رغبة صلاح الدين في تطهير الصعيد وبلاد النوبة من بقايا السودان أتباع الدولة الفاطمية البائدة، ممن فروا بعد ثورة مؤتمن الخلافة جوهر

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، طبعة مصر ، سنة ١٩٠٣ ، ص ٣٠

الى الجنوب ، وقد علم صلاح الدين فى سنة ٥٦٨هـ أن هؤلاء السودان يتأهبون لمهاجمة الصعيد والتقدم نحو الشمال لعزل صلاح الدين واستعادة سلطانهم ،والانتقام لأنفسهم ،واعادة الدولة الفاطمية. ويستند فى هذا الرأى بنص لابى شامة فى كتاب الروضتين نقله عن مؤرخ معاصر هو ابن أبى طى . «وفيها (أى فى سنة ٥٦٨هـ) اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة وخرجوا فى أمم عظيمة قاصدين ملك مصر وصاروا الى أعمال الصعيد، وصمموا على قصد اسوان وحصارها ونهب قراها، وكان بها الأمير كنز الدولة، فأنفذ يعلم الملك الناصر (صلاح الدين) وطلب منه نجدة، فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبكى ، فلما وصل الى اسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن خربوا أرضها، فأتبعهم الشجاع البعلبكى والكنز، فجرت حرب عظيمة قتل فيها من الفريقين عالم عظيم ، ورجع الشجاع الى القاهرة وأخبر بفعال العبيد، وتمكنهم من بلاد الصعيد، فأنفذ الملك الناصر أخاه شمس الدين (توران شاه) فى عسكر كثيف ، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة، فسار قاصداً بلادهم، وشحن مراكب كثيرة فى البحر بالرجال والميرة وأمرها بلحاقه الى بلاد النوبة ، وسار اليها ونزل على قلعة ابريم، وافتتحها بعد ثلاثة أيام وغنم جميع ما كان فيها ..»

أما حملة اليمن فقد كان الدافع الى ارسالها أسباباً أخرى خطيرة أهمها القضاء على الاوكار الشيعية التى تكونت هناك وتمثلها الدولة الصليحية ودولة بنى زريع ودولة بنى نجاح ودولة بنى مهدى ، وكلها دول شيعية كانت تتبع الدولة الفاطمية فى مصر، ومن تلك الاسباب

أيضا أنه أراد تأمين الطريق التجارى الى الهند بالسيطرة على مدخل البحر الأحمر الجنوبى بعد أن استولى على قلعة ايلة مدخله الشمالى ، ومنها كذلك أن عبد النبى بن مهدى صاحب زبيد كان قد ادعى النبوة فى ذلك الوقت ، وقيل أنه ادعى الالوهية ، فاستجاب صلاح الدين لرغبة الخليفة العباسى فى محاربته .ومن الادلة على أنه لم يفتتح اليمن بقصد الاقامة فيها اذا ما طرده نور الدين من مصر أن صلاح الدين استأذن نور الدين قبل أن يرسل هذه الحملة.

ومع هذا فلا يعنى ذلك فى رأينا أن اقدام صلاح الدين على غزو بلاد النوبة واليمن فى هذه الآونة بالذات كان مبررا كافيا لتشكك نور الدين فى نوايا صلاح الدين التوسعية رغم أن هذه النوايا فى حد ذاتها كانت حسنة

٤- فى نفس الوقت قامت فى مصر مؤامرة خطيرة ٥٦٩هـ سبق أن أشرنا اليها، ترتبط ارتباطا وثيقا بموضوع فتح اليمن ، فقد تجمعت القوى المناهضه لصلاح الدين ودبرت مؤامرة تستهدف القضاء عليه واعادة الدولة الفاطميه ، واشترك فى هذه المؤامرة أعوان الدولة البائدة من رجال القصر وأمراء الجيش واجناد السودان ونفر ممن قطعت رواتبهم أو أخذت اقطاعاتهم أو أصابهم ضرر نتيجة طبيعية لسقوط الدولة الفاطمية. وقد اتفقت كل هذه الاطراف على مكاتبة الاسماعيلية الحشيشية فى الشام بزعامة راشد الدين سنان ، وكذلك الفرنج فى الشام وصقليه ، وتتلخص المؤامرة كما سبق أن ذكرنا فى أن يأتى الفرنج

بأساطيلهم وجيوشهم الى مصر، فى نفس الوقت الذى نعلن العناصر المتذمرة المناهضة لصلاح الدين الثورة الداخلية، ويعاون العدو الخارجي مع الثوار فى الداخل للقضاء على أجهزة الحكم، ويقوم أحد كبار المتآمرين وهو الشاعر عمارة اليمنى بتحريض توران شاه على الخروج لفتح اليمن بهدف اضعاف قوة صلاح الدين بعد أن يرسل القسم الاعظم من جيشه مع أخيه توران شاه الى اليمن . وقد فشلت المؤامرة ، بعد أن نما الى علم صلاح الدين خبرها . كما فشلت الحملة النورمندية ، وانهزم الفرنج أمام مقاومة أهل الاسكندرية العنيفة للغزو ، وبالتالى فشلت المؤامرة بشقيها .

ولكن هذه المؤامرة رغم نجاح صلاح الدين فى اطفاء جذوتها واخمادها فى الوقت المناسب وجدت صدى لها فى الصعيد فى العام التالى ٥٧٠هـ (١١٧٤م) كان هدفها كذلك أحياء الخلافة الفاطمية، ذلك أن كنز الدولة بعد أن حارب العبيد السودان فى الصعيد، انقلب على صلاح الدين وثار على قواته ، وآزره فى ثورته عباس بن شادى والى قوص ، وانضم اليهما نحو مائة ألف من أهل الصعيد وبقايا السودان الذين كان صلاح الدين قد نفاهم الى الصعيد ، فأرسل صلاح الدين أخاه العادل أبا بكر الذى تمكن من ايقاع الهزيمة بكنز الدولة وعباس بن شادى ، وقتلهما ، وقتل نحو ثمانين الفا من رجالهما.

أما توران شاه فقد نجح فى فتح اليمن ، وقضى على عبد النبى

بن مهدى وأصبح اليمن تابعا لمصر الايوبية، وظل خاضعا لمصر قرابة نصف قرن وتوالى على حكمه خلال هذه الفترة عدد من أمراء الدولة الايوبية، الى أن خلفهم في حكم اليمن بنو رسول مماليك بني أيوب ..

xxx

مما سبق يتبين لنا أن صلاح الدين لم يحاول الخروج على نور الدين محمود أو يعصى أمره ، وإذا كانت هناك نمة وحشة بين السيد والتابع فان مصدرها كما نرجح حسد الحاسدين من قادة نور الدين على صلاح الدين .

(٢)

قيام الدولة الأيوبية

١- الموقف بعد وفاة نور الدين :

بموت نور الدين فى ٥٦٩هـ تأكدت سيطرة صلاح الدين على مصر، وأصبح وقد خلا له الجو الشخصية الكبرى فى الدولتين النورية والمصرية. وكان الملك الصالح اسماعيل قد خلف اباه نور الدين على دمشق ، غير أنه لم يكن عند توليه الملك يتجاوز من العمر ١١ سنة ، ولذلك تنازع القواد النوريون الوصاية عليه حتى تصبح لهم السيطرة على شؤون الدولة. وكان صلاح الدين بدوره يطمع فى الاستيلاء على الشام كى تتاح له تكوين جبهة اسلامية تستطيع أن تواجه قوى الصليبيين. وعلى هذا النحو تطلعت الى السيطرة على الشام أربعة عواصم فى الشرق الأدنى فى ذلك الوقت هى : الموصل وحلب ودمشق والقاهرة. أما الموصل فقد كان يمثل البيت الأتابكى فى الحكم الملك سيف الدين غازى الثانى بن قطب الدين مودود، وقد أسرع فضم اليه حلب لتعود حدود الأتابكية الى ما كانت عليه من قبل أيام عماد الدين زنكى، وأما حلب فقد كان أكبر القواد فيها شأنا هو شمس الدين على بن الداية، وقد أسرع فأرسل الى الملك الصالح اسماعيل وكان مقيما بدمشق عند وفاة أبيه - يستدعيه الىٰ حلب بحجة أنها المقر الاصلح للدولة ، ولكى يضع حدا لأطماع سيف

الدين غازى صاحب الموصل والجزيرة. وكان يهدف فى الواقع الى أن يكون الصالح اسماعيل فى حلب تحت اشرافه فيصبح له هو النفوذ والسلطان، وبالفعل انتقل الصالح اسماعيل الى حلب، غير أن قائدا آخر من كبار قواد نور الدين وهو سعد الدين كمشتكين انتهز الفرصة وقبض على ابن الداية، واستبد هو بأمر الصالح وانفرد بأتابكيته ، وأما دمشق فكان قائد الجيش فيها هو شمس الدين محمد بن المقدم، وكان الفرنج قد استغلوا فرصة وفاة نور الدين واضطراب أمور الدولة وهاجموا دمشق بقصد الاستيلاء عليها، فاضطر ابن المقدم الى مهادنتهم بصفة مؤقتة على أن يدفع لهم مبلغا من المال، وأن يطلق سراح من كان بدمشق من أسراهم. ثم أرسل الى صلاح الدين فى مصر يطلب مساعدته.

وخلاصة القول أن هذه العواصم الثلاثة كانت تتنافس فيما بينها لتحقيق هدف واحد هو ضم الصالح اسماعيل اليها لتصبح لها السيطرة على هذا الملك الشامى كله. أما العاصمة الرابعة وصاحبها صلاح الدين فقد كان لها هدف آخر أعظم وأسمى . فقد كان صلاح الدين يرغب رغبة صادقة فى توحيد مصر والشام فى جبهة اسلامية واحدة تستطيع أن تقف فى وجه الصليبيين ، وفى نفس الوقت تسعى الى القضاء عليهم، وهو فى ذلك كان يرتسم خطى نور الدين ويسير على نفس نهجه ، وكان يرى أن هذه المنافسات بين أمراء المسلمين وقادتهم كان هدفها المصلحة الشخصية البحتة، وأنها لن تخدم غير أعداء الاسلام لأنها ستساعد على تفتيت الجبهة الاسلامية فى الشام، ولكنه تظاهر بالدفاع عن حقوق الملك الصالح وأملاكه، فأعلن له

الخطبة بالديار المصرية، وبعث اليه دنانير نقش عليها اسمه، وكتب الى الامراء النورية بالشام يهددهم بخروجه اليهم لحماية مولاه من أطماعهم ويقول (وفقا لما أورده أبو شامة) : « ان الملك العادل سلم اليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد الى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سواى، وأراكم قد تفردتم بخدمة مولاى وابن مولاى دونى ، فسوف أصل الى خدمته وأجازى انعام والده » .

.. ومن حسن طالع المسلمين فى ذلك الحين أن تولى صلاح الدين يوسف القيام بنفس الدور الذى اضطلع به نور الدين محمود بن زنكى من قبل لتوحيد القيادة الإسلامية، وحسم أدواء الفتن ، تمهيدا لمواجهة القوى الصليبية .

وكانت مصر فى هذه المرة قاعدة النضال ضد الصليبيين ، والمركز الذى انطلقت منه حركة توحيد الصف الاسلامى وشرع صلاح الدين فى تنفيذ خطته للقضاء على أسباب الخلاف ووضع حد للفرقة والتمزق ، والعمل على جمع شمل المسلمين وتأليف كلمتهم تجنبا لما قد يقوم به الفرنج من حركات توسعية مستغلين اختلاف كلمة أمراء الشام [1] ؛ ففى سنة ٥٧٠هـ خرج صلاح الدين من مصر الى دمشق واتخذ طريقه متجنبا الاحتكاك بالفرنج. وفى ٣ من ربيع الأول من السنة المذكورة دخل دمشق بدون حرب (اكتوبر ١١٧٤) حيث قرب اليه الأمراء الذين كاتبوه وعلى رأسهم ابن المقدم الذى

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ص ٦٠٥

كافأه بأن منحه بعض الاقطاعات. وقد أعلن صلاح الدين لأهل دمشق أنه انما جاء لتربية الملك الصالح، وأنه يريد انقاذه من أطماع المحيطين به . وأنه يريد أن يتولى تدبير دولته نيابة عنه . ثم تركها واتجه شمالا واستولى في طريقه الى حلب على حمص في جمادى الأولى وهي المدينة التي كان نور الدين قد أقطعها لعمه شيركوه، ووكل صلاح الدين جماعة من عسكره بمحاصرة قلعتها، ثم استولى على الرستن وحماه وزحف بعد ذلك الى حلب ونزل على جبل جوشن ، وحاصر عسكره مدينة حلب ومن معسكره كتب صلاح الدين الى الملك الصالح كتابا يتواضع فيه ويخاطبه بمولانا وابن مولانا ويقول : « انما جئت خدمة لك ولأؤدى مايجب من حقك، فلاتسمع ممن حولك فيفسد حالك ». ولكن الملك الصالح كان كأبيه نور الدين لايطمئن مع صغر سنه لابن أيوب ، فرد عليه واصفا اياه بأنه كافر بالنعمة وباحسان نور الدين .

فكتب سعد الدين كمشتكين الى راشد الدين سنان زعيم الاسماعيلية الحشيشية بقلاع الدعوة بالشام، وأرسل اليه الأموال ووعده بالضياع نظير أن يعمل الحشيشية على اغتيال صلاح الدين عن طريق الفداوية [1] . ولكن جماعة الحشيشية الذين كلفهم سنان بهذه المهمة أخفقوا في مهمتهم، ولكنهم نجحوا في قتل حرسه، وتمكن جند صلاح الدين من القبض عليهم. فاضطر كمشتكين الى أن يكتب الى

(١) ابن واصل ، ج٢ ص ٢٤ - عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين الايوبي ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٩٢

ريموند الثالث صاحب طرابلس وكافل مملكة بيت المقدس وصاحب الكلمة العليا فى الامارات الصليبية بعد وفاة عمورى الأول يحثه على مهاجمة صلاح الدين ويعده بكثير من الوعود ، ويطمعه فى حمص . ولم يكن ريموند زاهدا فى حمص ، وأنما أراد استغلال النزاع القائم لكسب من ورائه أملاكا جديدة وقلاعا اسلامية، كما كان يدرك مدى الخطورة التى يمكن أن تنشأ عند قيام حلف اسلامى يضم القاهرة ودمشق وحلب[1] . وعلى هذا النحو لم يتردد ريموند فى الاستجابة الى طلب كمشتكين ، وزحف بجيشه الى حمص ليرغم صلاح الدين على رفع الحصار عن حلب ، ونجح فى تحقيق غرضه ، اذ انسحب صلاح الدين الى حمص [2] وحصنها فخاف ريموند من مواجهة قوات صلاح الدين وانسحب الى حصن الاكراد، وعندئذ تقدم صلاح الدين لى بعلبك واستولى عليها فى ٤ رمضان من نفس السنة. وكان صلاح الدين وهو فى حمص قد أرسل كتابا الى الخليفة العباسى فى بغداد ذكر له فيه جهوده الطويلة فى خدمة الخلافة العباسية السنية، ثم طلب منه أن يبعث اليه تقليدا بتولية كل ماتم له من فتوح فى مصر واليمن والشام وكل البلاد النورية.

وفى هذه الاثناء كان سيف الدين غازى الثانى صاحب الموصل يراقب الاحداث ، وكان الصالح اسماعيل قد كتب اليه يستنجد به ضد صلاح الدين فأخذ يعد العدة لتسيير قوة لمواجهة صلاح الدين، اذ

---

(١) سعيد عاشور ، الناصر صلاح الدين ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١١٦ .

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ص ٦١١ ، ٦١٤

كان قد استاء لاستفحال أمره وعلو كلمته وامتداد نفوذه، ووجد نفسه مرغما على التدخل لينال نصيبه من الغنيمة قبل أن تمتد اليها يد صلاح الدين ، فسير جيشا كثيفا قدم عليه أخاه عز الدين مسعود، وفي نفس الوقت زحف صلاح الدين الى حلب ليستأنف حصاره لها. وعند قرون حماة اشتبك المواصلة ومعهم الحلبيون مع عسكر صلاح الدين في ١٩ رمضان سنة ٥٧٠هـ (١١٧٥م)، ودارت معركة ضارية انتهت بانتصار صلاح الدين، ولم يكتف صلاح الدين بما أحرزه من انتصار فقد تتبع فلول المواصلة الى حلب وبدأ يحاصرها من جديد، فراسله الملك الصالح في الصلح، وتم الصلح بينه وبين صلاح الدين على أن يكون لصلاح الدين حكم بلاد الشام ابتداء من جنوب حماة بالاضافة الى المعرة وكفرطاب وتكون حلب ونواحيها للصالح اسماعيل". ولم يكتف صلاح الدين بذلك بل ضم اليه حصن بعرين"[1].

وتأهب صلاح الدين للعودة الى دمشق ، وفي أثناء عودته اليها، وعند مدينة حماه وصلته رسل الخليفة العباسي المستضئ، ومعهم الخلع والتشريفات والاعلام السوداء وكتاب من الخليفة الى صلاح الدين يتضمن تقليده السلطنة على مصر والشام واليمن، مستثنيا حلب وأعمالها للصالح اسماعيل بسبب مآثر أبيه وسابقته في الدفاع عن الاسلام وخاطب الخليفة صلاح الدين باسم الملك الناصر وبأنه خليل أمير المؤمنين، وسند الخلافة العباسية، وهادم الشيعة بمصر واليمن

---

(١) ابن شداد ، ص ٥٦ - ابن واصل ، مفرج الكروب، ج٢ ص ٢٤ - المقريزي ، السلوك ج١ ص ٥٠

فكان هذا التقليد أول مظهر شرعي لسيادة صلاح الدين. وعندئذ أمر صلاح الدين بازالة اسم الملك الصالح اسماعيل من الخطبة في المساجد ومن نقوش العملة التي نقش عليها منذ ذلك التاريخ اسم الملك الناصر يوسف بن ايوب بجانب اسم الخليفة العباسي أبو محمد المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين.

لم ترض هذه النتيجة التي أسفرت عنها معركة قرون حماة سيف الدين غازي أتابك الموصل. كما لم ترض الصالح اسماعيل نفسه، فلم يلبث هذا الاخير أن نكث بعهده، ونقض الصلح عندما قدم اليه سيف الدين غازي نفسه، كما اتفق هو وغازي مع ريموند الثالث على أن يطلق من كان في اسره من أمراء الفرنج بحلب ومن جملتهم أرناط صاحب الكرك وجوسلين الثالث مقابل أن يحالف ريموند الحلبيين والمواصلة ويساعدهم على صلاح الدين.

فاضطر صلاح الدين الى السير الى حلب عندما بلغه في دمشق خبر هذا الحلف في بداية سنة ٥٧٧هـ، وعند تل السلطان دارت معركة عنيفة بين قوات صلاح الدين وبين المواصلة والحلبيين، وعلى الرغم من كثافة جيش هؤلاء، وتفوقه على جيش صلاح الدين في العدد فقد تمكن صلاح الدين من انزال الهزيمة بهم [١]، واستغل صلاح الدين هذا الانتصار الحاسم واستولى على بزاغة ومنبج وأعزاز، ثم تأهب لحصار حلب للمرة الثانية. وحدث أن حاول الاسماعيلية

---

(١) ابن شداد، ص ٥٢ - أبو شامة، ج٢ ص ٦٥١ - ابن واصل، ج٢ ص ٣٨ وما يليها

الحشيشيه اغتيال صلاح الدين أثناء حصاره لأعزاز، فضربه أحد الفداوية على رأسه ضربة كادت تقتله لولا أنه كان يضع على رأسه خوذة وعلى رقبته كزغند ، فحمته الخوذة من الضربة، ولكنه أصيب بجرح غائر فى خده ، وتم القبض على المعتدين ، واستمر صلاح الدين يحكم الحصار حول حلب حتى بداية سنة ٥٧٢هـ فاضطر أهلها الى طلب الصلح ، وأجابهم صلاح الدين الى طلبهم بنفس الشروط الأولى .

ولم ينس صلاح الدين للاسماعيلية الحشيشية فعلتهم ومحاولتهم الغادرة لقتله، فاتجه بجيشه الى مصياف حصنهم الامنع ، ونصب عليها المجانيق فى سنة ٥٧٢هـ (١) ،كما خربت قواته المناطق المحيطة بها وقتل كثيرا من سكانها. فاضطر راشد الدين سنان مقدمهم الى أن يوسط خاله شهاب الدين الحارمى صاحب حماة، وتشفع لهم شهاب الدين، فقبل صلاح الدين شفاعته ، إما لخوفه من عودة الحشيشية الى بذل الموت للصالح اسماعيل، أو لصعوبة الارتقاء الى معاقلهم بجبال الدعوة الحصينة، وعاد صلاح الدين الى دمشق ، ثم رحل منها الى مصر بعد أن تزوج من الخاتون عصمة الدين أم اسماعيل أرملة نور الدين ، إما طمعا فى حكم مملكة ابنها، أو لأنه كان يحبها منذ أن كان فى بلاط نور الدين بدمشق ، وأنها كانت فى رأى جاستون فييت السبب فى وفاة نور الدين ، وهو أمر نستبعده لأن نور الدين مات بالخوانيق . ولم يعد صلاح الدين للتدخل فى شؤون حلب الا بعد وفاة

(١) ابن واصل، ج٢ ص ٤٧ المقريزى السلوك ج١ ص ٦٤

الملك الصـــــالح فى سنة ٥٧٧هـ (١١٨١م) على الرغم من الاضطرابات التى وقعت فيها بسبب الصراع بين كمشتكين وابن المقدم، وبسبب غارة الصليبيين عليها. وفى أثناء تلك الفترة شغل صلاح الدين باصلاحاته فى مصر وتنظيماته لادارتها وشؤونها .

ب - أعمال صلاح الدين الداخلية فى مصر :

تنحصر أعمال صلاح الدين الداخلية فى مصر فى مجالين : الأول المجال الحربى والثانى المجال المذهبى .

١- المجال الحربى :

بناء قلعة الجبل وسور القاهرة والفسطاط :

على الرغم من اعتزاز صلاح الدين بقوته، واستقرار حكمه فى مصر، فقد فكر فى أن يكون له حصن فى القاهرة يستطيع أن يلجأ اليه وقت الحاجة، وأن يحمى نفسه من أية محاولة لاعادة الخلافة الفاطمية أثناء غيابه عنها، فقد كان يعلم أن اقامته فى مصر مؤقتة وأنه لابد له من العودة الى الشام لاستكمال مشروعه فى توحيد الجبهة الاسلامية أولا، ولاستئناف الجهاد الاعظم ضد الصليبيين ثانيا، والمعروف أن انتصارات صلاح الدين فى الشام على الحلبيين والفرنج والمواصلة قد أثارت مخاوف الصليبيين، وكان لذلك أعظم الاثر فى قدوم حملة صليبية جديدة الى الشام فى ٥٧٣هـ (١١٧٧م) يقودها فيليب الالزاسى دى فلاندر (كند أقلندس) ولكن هذه الحملة فشلت فى مهمتها شأنها فى ذلك شأن الحملات السابقة ، وتحول هدفها من مهاجمة مصر إلى مهاجمة حماة وحارم ، غير أن

بلدوين الرابع استطاع أن يتغلب على المسلمين فى موقعة دارت عند نهر تل الصافية على مقربة من الرملة فى أول جمادى سنة ٥٧٣هـ "(١)، وأدى ذلك إلى تعديهم على أراضى المسلمين فى حماة وشيزر وحارم، وعندئذ اضطر صلاح الدين الى التزام سياسة هجومية على مملكة بيت المقدس، وانتصر على الصليبيين انتصارات متواصلة فى ظاهر بانياس وفى حصن بيت الاحزان، وفى مرج عيون فى سنه ٥٧٥هـ (١١٧٩م). وفى مخاضة بيت الاحزان تمكن المسلمون من قتل الهنفرى صاحب حصن بانياس، كما هاجم المسلمون صيدا وصور وبيروت فى المحرم سنة ٥٧٥هـ "(٢)، فاضطر بلدوين الرابع الى عقد هدنة مع صلاح الدين فى مايو سنة ٥٧٦هـ (١١٨٠م).

من جهة ثانية رأى صلاح الدين ضرورة تحصين القاهرة لتأمين الجبهة الداخلية من أى تحركات مضادة لدولته وكذلك ثغور مصر المطلة على البحر المتوسط والاحمر كالاسكندرية ودمياط وأيلة لدعم النظام الدفاعى أمام أى غزو صليبى مرتقب، ولعل ما كان يعرفه عن النظم الدفاعية ببلاد الشام وعن احاطة مدنها الهامة بأسوار قوية لحمايتها من الاعداء، وتزويدها بحصن يأوى اليه الجيش عند انهيار تلك الاسوار أمام المعتدين، لعل فى ذلك كله ما دفعه الى التفكير فى تدعيم أسوار القاهرة الفاطمية واتمامها، وتزويد عاصمة مملكته فى مصر بقلعة، ولهذا رأى صلاح الدين ضرورة بناء سور ضخم يحيط

(١) أبو شامة، الروضتين، ج٢ ص ٧٠٠.
(٢) المقريزى، السلوك، ج١ ص ٦٨

بالقاهرة والفسطاط ، وقد شرع بهاء الدين قراقوش فى بناء هذا السور فى سنة ٥٦٦هـ عندما كان صلاح الدين وزيرا للعاضد، ولكن السور لم يتم الا بعد وفاة صلاح الدين، اذ أكمله من بعده الملك الكامل محمد بن العادل سيف الدين أبو بكر .

بدأت أعمال السور فى ٥٦٦هـ ، وكان قراقوش يستخدم فى بنائه ٥٠ ألف أسير ، وكان يجلب له الاحجار من أهرامات صغيره مهدمة بالجيزة. وأول ما عمله قراقوش تعمير أسوار القاهرة التى كان قد أقامها بدر الجمالى ، ومد حدودها الشمالية غربا من باب القنطرة الى باب الشعرية فباب البحر، وأقام هنالك برجا سمى ببرج المقس أو قلعة قراقوش. ثم مد الاسوار شرقا فجنوبا مما يلى باب النصر الى باب البرقية، الى خارج باب الوزير فأسوار القلعة وأحاط الفسطاط بهذا السور حتى ضفاف النيل، ولاتزال اجزاء من هذه الأسوار باقية حتى يومنا هذا بجنوبى اطلال الفسطاط، كما تبقى من أسوار صلاح الدين بالقاهرة برج الظفر ، ثم اسرع صلاح الدين ببناء قلعة فى وسط الاسوار الممتدة ما بين القاهرة والفسطاط عند مسجد سعد الدولة على سفح جبل المقطم، وشرع فى بناء القلعة فى سنة ٥٧٢هـ [1] (١١٧٦-١١٧٧) وقد سخر صلاح الدين فى بنائها أسرى الفرنج،

---

(١) عن بناء أسوار القاهرة والقلعة انظر : المقريزى ، الخطط . ج٢ ص ٢٠٠ -٢١١ ، أحمد فكرى ، المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ، القاهرة - عبد الرحمن زكى قلعة صلاح وقلاع اسلامية معاصرة ، القاهرة ١٩٦٠ Greswell, Some researches in the citade of Cairo, B.I.A.O., No 33.
بول كازانوفا ، تاريخ ووصف قلعة القاهرة ، ترجمة أحمد دراج ، القاهرة ١٩٧٤ .

وحفر قراقوش حول القلعة خندقا، وقد سجل صلاح الدين تواريخ أعماله ومآثر منها أولاً بأول، ومن هذه النقوش لوحة على باب القرافة كتب فيها (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذا الباب المبارك والسور المتصل به الملك الناصر جامع كلمة الايمان، قامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شادى محيى دولة أمير المؤمنين فى شهور سنة ست وسبعين وخمسمائة) . وهناك لوحة أخرى مثبتة داخل باب المدرج، وهو الباب الشمالى المقابل لباب القرافة، نقرأ فيها : (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة القاهرة بالعزمة التى جمعت نفعا وتحسينا وسعة على من التجى الى ظل ملكه ، وتحصينا، مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محيى دولة أمير المؤمنين فى نظر أخيه وولى عهده الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد خليل أمير المؤمنين على يد أمير مملكته، ومعين دولته قراقوش بن عبد الله الملكى الناصرى فى سنة تسع وسبعين وخمس ماية) (1) .

التحصينات البرية والبحرية خارج القاهرة :

كذلك أقام صلاح الدين مراكز حصينة فى شبه جزيرة سيناء، وهى المنطقة الصحراوية التى تفصل بين مصر ومملكة اللاتين بفلسطين، الممتدة الى حدود مصر فى صحراء النقب ، وأهم هذه القلاع قلعة تعرف بقلعة صدر فى قلب سيناء فى طريق أيلة لاتزال

(1) Wiet, Combe et Sauvaget, Repertoire chronologique d'Epigraphie arabe, Le Caire, 1931-1944.

آثارها قائمة .

ووجه صلاح الدين الى ثغرى دمياط والاسكندرية عناية خاصة باعتبارهما مصدر الخطر على مصر ومحط أنظار المغيرين الفرنج بوجه خاص ، وقد لمس صلاح الدين هذا الخطر بنفسه عندما هاجم الصليبييون دمياط، وكان مايزال بعد وزيرا للعاضد ، وعندما هاجم أسطول صقلية ثغر الاسكندرية فى أعقاب سقوط الدولة الفاطمية، ولهذا السبب كان صلاح الدين يتردد الى هذين الثغرين معا لتفقد أعمال التحصينات فيهما، المرة الأولى عقيب وصوله الى مصر فى ٥٧٢هـ، والمرة الثانية قبل خروجه الى الشام فى ٥٧٧هـ ليبدأ جهاده الاكبر ضد قوى الصليبيين، ففى شعبان سنة ٥٧٢هـ زار صلاح الدين دمياط بصحبة ولديه الافضل على والعزيز عثمان وكاتبه العماد الاصفهانى ، فمكث بها أياما ثم رحل منها الى الاسكندرية وأشرف فيها بنفسه على ترميم أسوارها وتقوية اسطولها ،وفى سنة ٥٧٧هـ عزم على زيارة دمياط والاسكندرية ليستوثق من مناعة حصونهما، وفى هذه السنة أرسل رجاله لعمارة قلعة تنيس وأسوارها وكتب الى دمياط بترتيب المقاتلة على البرجين بها .

وكانت الاسكندرية على وجه الخصوص محل اهتمامه لما كان يربطه بأهلها من روابط التقدير والاعزاز منذ أن ساندوه وقت حصار الفرنج له قرب نهاية الدولة الفاطمية. ويذكر المؤرخون أنه زار

(١) أبو شامة، ج٢ ص ٤٨٦- ابن واصل، مفرج الكروب ،ج١ ص ١٩٩ المقريزى ، الخطط ج٢ ص ١٧١ .

الاسكندرية فى ٢٣ شعبان سنة ٥٦٦هـ وهو بعد وزير للعاضد، وأنه أمر أثناء زيارته لها بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها [١] (والابدان من بدنة وهى الستارة البنائية من السور الواقعة بين برجين)، وأغلب الظن أن أعمال الترميم والتجديد كان يعنى بها الاسوار الجنوبية . وعند زيارة صلاح الدين الثانية للاسكندرية وهى الزيارة التى اصطحب فيها ولديه الافضل على والعزيز عثمان .كانت عمارة السور المحيط بالاسكندرية قد كملت. وعندما قدم فى سنة ٥٧٧هـ لزيارة الاسكندرية قبل أن يرحل الى الشام للشروع فى الجهاد الأكبر خيم عند السوارى وشاهد الاسوار التى جددها [١] . وفى هذه الزيارة أمر السلطان صلاح الدين بتعمير الاسطول، وفى ذلك يقول أبو شامة نقلا عن أبى طى: «لما نوى المقام بالاسكندرية ليصوم فيها رأى أنه لايخلى نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد الى بلاد الكفار والجهاد فى المشركين، فرأى الاسطول وقد أخلقت سفنه، وتغيرت آلاته فأمر بتعمير الاسطول، وجمع له من الاخشاب والصناع أشياء كثيرة ، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الالات، فنقل من السلاح والعدد مايحتاج الاسطول اليه، وشحنه بالرجال، وولى فيه أحد أصحابه . وأفرد له اقطاعا مخصوصا وديوانا مفردا، وكتب الى سائر البلاد يقول : القول قول صاحب الاسطول، وأن لايمنع من أخذ رجاله وما يحتاج اليه، وأمر صاحب الاسطول أن لايارح البحر ويغزى الى جزائر البحر» [٢] . ولم يمض عام واحد على

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ص١٠٢؛ أبو شامة، ج٣ ص ٦٨٩
(٢) نفس المصدر ، ج١ ص ٦٩٠

تعمير الاسطول حتى أصبح للاسكندرية أسطول ضخم أضيفت اليه قطع جديدة صنعت بدار صناعة الاسكندرية بأمر حسام الدين لؤلؤ الحاجب ، وقد أسهم هذا الاسطول فى مهاجمة أيلة، ثم تتبع مراكب الفرنج عند عيذاب [1] .

هذا وقد انتهز صلاح الدين فرصة وجوده بالاسكندرية وأمر بتقرير ديوان الاسطول ، وعين له نواحي عديدة من الخراج منها الفيوم بأعمالها ، والحبس الجيوشى فى البرين الشرقى والغربى والبساتين خارج القاهرة، وسلم هذا الديوان الى أخيه الملك العادل أبى بكر ، ويغلب على الظن أنه أثناء زيارته للاسكندرية فى تلك السنة قام قراجا والى الاسكندرية بكسر ٤٠٠ عمود كانت تحيط بعمود السوارى ورماها بشاطىء البحر ليوعر على العدو سلوكه اذا هاجم الاسكندرية أو ليخفف من حدة الامواج على سور المدينة الموازى للبحر أو ليمنع مراكب العدو أن ترسو على مقربة من السور .

٢- المجال المذهبى :

التخلص من مكتبة القصر الفاطمى :

كانت هذه المكتبة تضم اكثر من ١٢٠ ألف كتاب فى مختلف العلوم والفنون، فأمر صلاح الدين ببيع كتبها ونفائسها، كما أهدى بعضها الى القاضى الفاضل وكاتب انشائه العماد الاصفهانى، ويقال فى تبرير التخلص منها أن معظمها كانت كتبا فى المذهب الشيعى

(١) المقريزى ، السلوك ، ج١ ص ٧٩

وفى علوم التنجيم والغيبيات ،ولكن هذا التبرير لايعفى صلاح الدين من ارتكابه خطئا كبيرا، فقد كان فى امكانه أن يحجر على هذه المكتبة بدلا من تبديدها .

المدارس :

تابع صلاح الدين سياسته فى محاربة المذهب الشيعى، فأنشأ مدرسة كبرى عند قبر الإمام الشافعى بالقرافة لتدريس المذهب الشافعى وسميت هذه المدرسة فيما بعد بالمدرسة الناصرية نسبة الى مؤسسها الناصر صلاح الدين، وقد رتب فيها مدرسا لتدريس الفقه على مذهب الامام الشافعى، وجعل فيها عددا من الطلبة ورتب فيها للجم[illegible] الرواتب الشهرية، وأوقف الاوقاف العديدة للانفاق عليها ، وقد بدى. [illegible] بناء هذه المدرسة ٥٧٢هـ ، ولكن الرحالة ابن جبير الذى زار مصر سنة ٥٧٨هـ شاهد هذه المدرسة وهى لاتزال فى مرحلة البناء ، ووصفها فى كتابه الموسوم برحلة ابن جبير بأنها « مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ولا أوسع مساحة ولا أحفل بناء يخيل لمن يتطوف اليها أنها بلد مستقل بذاته، بازائها الحمام الى غير ذلك من مرافقها، والبناء فيها حتى الساعة، والنفقة عليها لاتحصى ، تولى ذلك بنفسه الشيخ الأمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشانى »[1] .

كذلك أقام صلاح الدين بالاسكندرية مارستانا ودارا للمغاربة

(١) ابن جبير ، الرحلة ، تحقيق وليم رايت ، العدد الخامس من مجموعات جب التذكارية ، ليدن ، ١٩٠٧ . وكان الفراغ من انشاء هذه المدرسة استنادا الى النقش الكتابى المحفوظ بمتحف الفن الاسلامى فى شهر رمضان سنة٥٧٥هـ.

ومدرسة على ضريح المعظم توران شاه. والظاهر أن موضع هذه المجموعة من الابنية كان يقع قريبا من الباب الغربى حيث يقوم القصر الذى أقيم عنده ضريح توران شاه المذكور ، وقد وصف الرحاله ابن جبير هذه المجموعة من الابنية فقال :« ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة الى سلطانه المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد يفدون من الاقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى اليه ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعليمه، واجراء يقوم به فى جميع أحواله، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء ، وقد رتب أيضا فيه أقواما برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة، وينهون الى الاطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم »[1] .

(١) نفس المصدر ، ص ٤٢ .

(٤)

توحيد الجبهة الاسلامية وبداية المواجهة مع الفرنج

١- المعارك الأولى فى فترة السلام :

كانت الفترة التى قضاها صلاح الدين بمصر بعد عودته من دمشق سنة ٥٧٦هـ فترة سلام نسبى ، ركز صلاح الدين جهوده خلالها للاصلاحات الداخلية فى مصر على نحو ما ذكرناه ، ولكن على الرغم من انشغاله بتنظيم دولته فى الداخل تمهيدا لتحقيق هدفه الاسمى ، وهو توحيد الجبهة الاسلامية ،فقد كرس جانبا من جهوده لغزو الفرنج الذين كانوا يتربصون به وبالمسلمين الدوائر . ففى أواخر جمادى الأولى سنة ٥٧٣هـ خرج صلاح الدين من مصر بنية غزو بلاد الصليبيين ،وكان قد جمع لذلك حشودا ضخمة من العسكر، فتقدم على رأس هذه القوات بحذاء الساحل الجنوبى من فلسطين حتى وصل الى عسقلان، وبث غاراته فى نواحى هذه المدينة ، فنهبوا وأسروا وقتلوا وأحرقوا وتفرقوا فى تلك الأعمال مغيرين ، ويقول ابن الاثير : " فلما رأوا أن الفرنج لم يظهر لهم عسكر ولا اجتمع لهم من يحمى البلاد من المسلمين طمعوا وانبسطوا، وساروا فى الارض آمنين مطمئنين، ووصل صلاح الدين الى الرملة " [١] .

---

(١) ابن الاثير ، ج١١ ، حوادث ٥٧٣ ، ص ٤٤٣

وعندئذ بلغته الفرنج بهجوم عنيف انتهى بهزيمة شنعاء منى بها صلاح الدين، واستشهد فيها عدد كبير من المسلمين بسبب تهاون الجند، وعدم احتراس السلطان أثناء عبوره لأحد الأنهار بحيث كاد يتعرض هو للأسر، وأسر الفرنج أعدادا كبيرة من المسلمين، وكان من بين الاسرى الفقيه عيسى الهكارى صديق صلاح الدين [1]، وقد بقى فترة طويلة يعانى الاسر الى أن افتداه صلاح الدين بستين ألف دينار [2]. وقد سجل صلاح الدين وصفا للهزيمة التى تعرض لها جيشه فى رسالة وجهها الى أخيه شمس الدولة توران شاه وهو بدمشق، وجاء فى احدى الفقرات: « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة، وما انجانا الله سبحانه منه الا لأمر يريده سبحانه » [3].

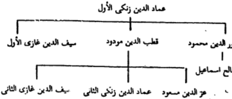
ثم عاد صلاح الدين بعد هزيمته فى الرملة الى مصر، ثم غادرها بعد ذلك بقليل الى الشام فى سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م)، واشتبك مع الفرنج فى قتال عنيف دار على مقربة من حصن منيع يقع على مسافة قصيرة من دمشق اسمه « مخاضة الأحزان »، فى المحرم سنة ٥٧٥هـ (١١٧٩)، وانهزم الفرنج بقيادة ملكهم فى هذه الموقعة هزيمة نكراء، ووقع فى أسر المسلمين عدد كبير من قوادهم وعلى رأسهم مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية (وهم فرسان القديس يوحنا). وحاصر صلاح

(١) كان عيسى الهكارى من اعيان الاسدية، وكان يجمع بين العلم والدين والشجاعة.
(٢) ابن الاثير، ص ٤٤٣.
(٣) نفس المصدر، وانظر ايضا ابن شداد. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، طبعة مصر، ١٩٠٣، ص ٣٤ ومايليها.

الدين الحصن حصارا محكما حتى افتتحه، ثم هدمه ومحاه من الوجود . ونتيجة لهذا الانتصار سعى بلدوين الرابع ملك بيت المقدس لعقد هدنة مع صلاح الدين سنة ٥٧٦هـ .

ب - الاستيلاء على الموصل وتوحيد الجبهة الاسلامية :

توفي سيف الدين غازي الثاني بن قطب الدين مودود صاحب الموصل والجزيرة في سنة ٥٧٦هـ (١١٨٠م)، فخلفه أخوه عز الدين مسعود ، ثم توفي الملك الصالح اسماعيل صاحب حلب في رجب ٥٧٧هـ (١١٨١م) وعمره ١٩ سنة، وكان عندما اشتد عليه المرض قد استقدم الأمراء وسائر الأجناد وأوصاهم بتسليم حلب الى ابن عمه، عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل والجزيرة، واستحلفهم على ذلك إذ لم يكن للصالح اسماعيل غير طفل صغير لايصلح لأن يكون سلطانا، ولكن عز الدين مسعود كان زاهدا في ملك حلب ، ولذلك تنازل عنها لأخيه عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار مقابل تنازل عماد الدين عن سنجار لأخيه عز الدين، وعلى هذا الاساس تسلم عز الدين مسعود مدينة حلب ، والظاهر أن عز الدين لم يتنازل عن حلب الا لخوفه من صلاح الدين الذى سبق أن أوقع به الهزيمة من قبل ، أو لأن عماد الدين زنكي الثاني كان مرتبطا بعلاقات ودية مع صلاح الدين منذ أن امتنع عن الاشتراك مع إخوته في محاربة صلاح الدين .



وكان صلاح الدين يشهد هذا النزاع بين أفراد البيت الأتابكى، وكان يعتقد تماما أن هذا النزاع مصدر خطر على دولته ، اذ أنه لايستطيع أن يتابع مسيرته للجهاد الأعظم ضد الفرنج لتحرير الشام من سيطرتهم الا اذا أزال هذا الخطر ، وذلك باخضاع كل من حلب والموصل لسلطانه، وتأسيس جبهة اسلامية متحدة . ولهذا كله صمم علي التدخل العسكرى وخوض المعركة مع الاتابكة. فخرج من مصر خروجه الأخير فى صيف عام ٥٧٨هـ (١١٨٢م) اذ قضى البقية الباقية من عمره فى جهاد متواصل ضد الصليبيين فى الشام . وقد حدث عندما اجتمع صلاح الدين بأمراء مصر وكبار قواده لوداعه قبل رحيله الى الشام أن أطل من بين الحضور معلم لبعض أولاده وأنشد كأنه يودع السلطان :

تمتع من شميم عرار نجد ۰۰ فما بعد العشية من عرار

فانقبضت نفس صلاح الدين عندما سمع هذا البيت وتطير ، وأحس بأنه لن يعود مرة ثانية الى مصر، وقد صدق حدسه، اذ أن

صلاح الدين لم يعد الى مصر بالفعل بعد خروجه هذا، وتوفى بدمشق وفيها دفن [1] وكان فى نية صلاح الدين أن يجعل وجهته الديار الجزرية تلبية لدعوة مظفر الدين كوكبورى ، صاحب حران ، اذ أرسل اليه وهو يحاصر بيروت فى طريقه الى دمشق يمنيه بالوعود، ويعرض عليه أن يساعده فى السيطرة على الموصل وسنجار وكل بلاد الجزيرة .

خرج صلاح الدين من مصر متخذا طريقه عبر سيناء الى أيلة، وشن الغارات من هناك على أطراف مملكة بيت المقدس الصليبية، وشن هجوما عنيفا على بلدتى الكرك والشوبك ، ومن هناك تابع سيره الى دمشق، وكان الفرنج قد حشدوا قواتهم وتجمعوا فى الكرك يترقبون مرور جيش صلاح الدين علهم يتنهزون فرصة أو يظفرون بنصرة، أو على الأقل يعترضوا طريق المسلمين فى بعض المضايق، وكان فرخشاه ابن أخى صلاح الدين قد بلغه ذلك ، وأدرك أن منطقة طبرية من أملاك الفرنج أصبحت شبه خالية من الفرنج، فجمع قوة من عسكره الشامى وأغار عليها ، وغنم أموالا كثيرة ، وفتح حصن الشقيف الذى كان المسلمون يعانون منه ولحقهم من غارات الفرنج به أذى شديد ، ففت ذلك فى عضد الفرنج [2]. ولما وصل صلاح الدين دمشق أقام أياما طلبا للراحة هو وجيشه ، ثم سار الى بلاد الصليبيين فى ربيع الأول، فقصد طبرية منها ، وخيم فى الأقحوانة من الأردن، فاضطر

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج١١ ، حوادث ٥٧٨هـ ص ٤٧٨ وانظر أيضا ابن واصل، مفرج الكروب ، ج٢ ص ١١٣

(٢) ابن واصل ، ج٢ ص ١١٥

الفرنج الى النزول بطبرية، فسير صلاح الدين عز الدين فرخشاه ابن أخيه الى بيسان فدخلها قهرا، وأغارت قواته على الغور وأذرعوا فى الفرنج قتلا وأسرا، أما صلاح الدين فقد خرج من دمشق الى بيروت، وكان قد أمر الاسطول المصرى بالسير اليها، وحاصرها صلاح الدين برا وبحرا. وأثناء حصاره لبيروت وصلته رسالة مظفر الدين كوكبورى يطمعه فى البلاد الجزرية كما سبق أن أشرنا، فرفع صلاح الدين الحصار عن بيروت، وتظاهر بأنه يقصد التوجه الى حلب، فلما قارب الفرات التقى بمظفر الدين كوكبورى، وكان عز الدين صاحب الموصل لما بلغه نبأ وصول صلاح الدين الى الشام قد جمع جيشه وسار الى نصيبين ليكون على أهبة الاستعداد للتصدى لقواته، ثم خيم فى دارا، وهناك بلغه عبور صلاح الدين الفرات، وهذا يعنى أنه يقصد بلاد الجزيرة، فعاد الى الموصل وأرسل الى الرها من يحميها من العسكر. فاتجه صلاح الدين الى الرها وحاصرها فى جمادى الأولى من السنة، وقاتل أهلها فاضطر واليها الى التسليم، ودخل فى خدمة صلاح الدين واستولى صلاح الدين على قلعتها فسلمها الى مظفر الدين، ثم تابع زحفه الى الرقة فاستولى عليها، ولم تلبث الخابور وقرقيسيا أن سقطتا فى يده، وأتبعهما بنصيبين. ولما استولى على نصيبين جمع أمراء وأرباب المشورة عنده واستشارهم بأى البلاد يبدأ وأيها يقصد، بالموصل أم بسنجار أم بجريرة ابن عمر، واستجاب لمشورة مظفر الدين كوكبورى فى التوجه الى الموصل [1]. وكان نزول

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢ ص ١١٨، ١١٩

السلطان صلاح الدين على الموصل في ١١ رجب سنة ٥٧٨هـ [١].

حاصر صلاح الدين الموصل حصارا شديدا، ولكنها قاومته مقاومة عنيفة لحصانتها ومناعة أسوارها، وعندئذ اضطر الى مهاجمة ما حولها من المدن للقضاء على مراكز المقاومة حولها، فاستولى على سنجار، وبذلك عزل الموصل عن حلب، ثم أخذ يستولى على بقية المدن المحيطة بالموصل وهى آمد، وتل خالد، وعينتاب [٢]، ثم توج انتصاراته بفتح حلب بعد مناوشات قصيرة، وتم ذلك في سنة ٥٧٩هـ على أن يعوض عماد الدين زنكى الثانى عنها سنجار ومدنا أخرى بالجزيرة مثل سروج والرقة والخابور ونصيبين، وبذلك بقيت الموصل بمفردها، واستقر ملك صلاح الدين، وزادت قوته، وتدعم مركزه في البلاد، وازدادت الجبهة الإسلامية تماسكا، وأصبح قادرا على مواجهة قوى الصليبيين بمن انضم اليه من الحلبيين وجند الجزيرة وفرسان التركمان فضلا عن تأييد الخليفة العباسى له روحيا، واعتبر الصليبيون من جانبهم استيلاء صلاح الدين على حلب أعظم نكبة حلت بهم لأنها أكدت الروابط الاستراتيجية والعسكرية بين محور مصر والشام، وغدت ممتلكاتهم بالشام محصورة داخل هذا المحور [3].

والواقع أن فتح حلب حقق لصلاح الدين أهدافه في بسط سلطانه على جميع ممتلكات المسلمين في بلاد الشام الشمالية، وأصبح

(١) نفسه، ص ١٢٠ وراجع التفاصيل في: رشيد الجميلى، دولة الاتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكى، بيروت، ١٩٧٠، ص ٢٣٨-١٤٩.

(٢) نفسه، ص ١٣٩.

(3) Stevenson, The Crusaders in the East, Cambridge, 1907, p. 230.

بفضل ذلك يطوق الامارات الصليبية من كل جانب، وقد أعرب عن ذلك بقوله في احدى رسائله الى الخليفة العباسي: « أمور الحروب بعد العدو لاتصلحها الشركة. وانما أمور الحرب لاتحتمل في التدبير الا الوحدة ».

وما ان أتم صلاح الدين فتح حلب حتى عاد الى حصار الموصل للمرة الثانية فيما بين عامي ٥٨١ ، ٥٨٢هـ (١١٨٥-١١٨٦م) على فترات متقطعة، ولم يجد عز الدين مسعود بدا من التسليم أمام ضغط الحصار واستجابة لرغبة أهل الموصل، فأرسل اليه عز الدين والدته وبعض نساء البيت الزنكي، ولكن صلاح الدين رفض هذه الوساطة ورد النساء، فأرسل عز الدين مندوبه بهاء الدين بن شداد الى الخليفة العباسي الناصر يرجوه أن يتوسط له بينهما، ولكن الخليفة لم يبد أي استعداد للتدخل في هذا النزاع. وأخيرا أرسل عز الدين بهاء الدين بن شداد الى صلاح الدين ليقنعه بالصلح [1] ؛ فوافق صلاح الدين على ذلك بشرط أن يتنازل له عن بعض البلاد ،ويخطب له على منابر الموصل ، ويسك العملة باسمه، أي اشترط عليه أن يقر بتبعيته لصلاح الدين. وتم الأمر على ذلك، وتحقق لصلاح الدين حلمه القديم وحلم عماد الدين زنكي الأول وهو توحيد البلاد الاسلامية وتأليف جبهة متحدة تحت قيادة واحدة قبل الشروع في الجهاد الاعظم ضد العدو

---

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين . تحقيق الدكتور جمال الشيال، القاهرة ١٩٦٤ ص ٧٠ ويروى ابن شداد هذه الوساطة فيقول : « فندبوني لهذا الامر وبهاء الدين الربيب وفوض الى النسخة التى حلف بها ... امضيها ما يحصل اليه جهدكما وطاقتكما، فسرنا حتى أتينا العسكر والناس كلهم آيسون من السلطان، وكان وصولنا في أوائل ذى الحجة من السنة المذكورة، فاحترمنا احتراما شديدا وجاء ... ».
(انظر ابن شداد ، المصدر السابق ، ص٧٠

المستعمر ، وكان من شروط الصلح الذى عقد بين صلاح الدين وصاحب الموصل عز الدين مسعود أن تعهد الاخير بالمشاركة بعساكره وأمواله فى الجهاد الذى يتزعمه صلاح الدين ضد القوى الصليبية فى بلاد الشام، وسنرى أن عز الدين مسعود سيلتزم بهذا الشرط ويساهم مساهمة فعالة فى العمليات الحربية ضد الفرنج، واشتركت قواته فى معظم الحروب التى وقعت فى الفترة ما بين ٥٨٣ ، ٥٨٨هـ (١١٨٧-١١٩٢م) ، ولم يتوان عز الدين مسعود عن اجابة صلاح الدين وامداده بالجند والسلاح [(١)] .

ولكى يحتفظ صلاح الدين بقوة هذه الجبهة المتحدة سعى الى تحسين علاقته بسلاجقة الروم حتى لاينضموا الى الزنكيين ضده، ولأن بلادهم تقع فى طريق الفرنج البرى الى الشرق .

جـ - بداية الصدام مع الصليبيين :

بينما كان صلاح الدين منهمكا فى محاصرة الموصل وحلب وبلاد الجزيرة انتهز الصليبيون الفرصة وسير البرنس أرناط Renaud de Chatillon صاحب الكرك جيشا الى أيلة تمكن من الاستيلاء عليها، وكان صلاح الدين كما سبق أن رأينا منذ استقراره فى مصر يعمل بدون انقطاع على ضم قلعة أيلة التى تتحكم فى الطريق ما بين الشام والحجاز ومصر ، ونجح صلاح الدين فى الاستيلاء عليها وانتزاعها من الصليبيين فى ٥٦٦هـ (١١٧١م). وكانت أيلة فى الواقع من حصون

(١) رشيد الجميلى ، المرجع السابق ، ص ١٦١

الكرك الهامة، وتقع على ساحل بحر القلزم هي أول الشام، وتسيطر على طريق مصر البرى الى الحجاز، وكانت في نفس الوقت محطا للقوافل، ولذلك كان إستيلاء الفرنج عليها سببا في تحويل طريق الحج من مصر، الموازى للبحر الأحمر ، الى قوص بالصعيد، ومنها الى عيذاب على البحر الأحمر ، ثم بالمراكب الى جدة .

ولم يكتف أرناط بالاستيلاء على حصن أيلة بل أرسل منها أسطولا يتألف من مراكب خفيفة مشحونة بالمقاتلة أبحرت الى ميناء عيذاب في سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م) ،وأفسد الفرنج في السواحل، وعاثوا فسادا في المدينة، فنهبوا ما كان فيها من سلع وتجارة، ويقول ابن الأثير في ذلك : « ويخشوا الناس في بلادهم على حين غفلة منهم، فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيا قط ، لا تاجرا ولا محاربا » [١] .
وأتى الفرنج في عيذاب بحوادث شنيعة، واستولوا على كثير من السفن المحملة بأصناف التجارة الواردة من عدن ومن الهند ، كما هاجموا قافلة كثيرة العدد من الحجاج كانت مقبلة من قوص الى عيذاب ، ولم يكتفوا بذلك بل هاجموا الساحل العربى المواجه لعيذاب ، وأحرقوا السفن الراسية في ينبع، ثم أغاروا على رابغ وهو أحد الثغور المؤدية الى مكة، فأغرقوا به سفينة للحجاج. وكانوا يتوون السير الى المدينة وتدمير الحرم النبوي الشريف .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١١ ، ص ٤٩٠
وراجع التفاصيل ايضا في · رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني ، بيروت ، ج٢ ، ١٩٦٨ ، ص ٧٠٦ .

وما إن بلغ الخبر صلاح الدين حتى أرسل الى أخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب الذى ينوب عنه فى مصر يأمره بارسال قوة اسلامية لمواجهة الفرنج وتأديبهم، فعمر العادل أسطولا شحنه بجموع ضخمة من المقاتلة بقيادة حسام الدين لؤلؤ متولى الاسطول بالديار المصرية، وكان قائدا مشهودا له بالشجاعة والشهامة والغيرة على الاسلام، فجد فى السير فى طلبهم، وابتدأ بالحامية الصليبية بأيلة، فانقض عليهم انقضاض العقاب على صيدها، فقاتلهم، فقتل بعضهم وأسر الباقى، وسار من وقته بعد الظفر يقص أثر الذى قصدوا عيذاب؛ فلما وصل لؤلؤ الى عيذاب ولم يرهم (يقصد لم ير الفرنج القراصنة الذين أبحروا الى ثغور الحجاز) سار يقفو أثرهم، فبلغ رابغ وساحل الجوزاء وغيرهما، فأدركهم بساحل الجوزاء، فأوقع بهم هناك، فلما رأوا العطب، وشاهدوا الهلاك، خرجوا الى البر، واعتصموا ببعض تلك الشعاب، فنزل لؤلؤ من مراكبه اليهم، وقاتلهم أشد قتال، وأخذ خيلا من الاعراب الذين هناك، فركبها، وقاتلهم فرسانا ورجالة، فظفر بهم وقتل أكثرهم، وأخذ الباقين أسرى، وأرسل بعضهم الى منى لينحروا بها عقوبة لمن رام اخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ، وعاد بالباقين الى مصر، فقتلوا جميعهم »[١].

وقد شاهد ابن جبير أثناء زيارته للاسكندرية موكب الأسرى، ويصف هذا الموكب بقوله: « لما حللنا الاسكندرية فى الشهر المؤرخ

(١) نفس المصدر، ص ٤٩١

أول ما عايناه مجتمعا من الناس عظيما برزوا لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم الى أذنابها، وحولهم الطبول والأبواق، فسألنا عن قصتهم، فأخبرنا بأمر تنفطر له الأكباد اشفاقا وجزعا وذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب في أقرب المواضع التى لهم من بحر القلزم، ثم حملوا أنقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكراء اتفقوا معهم عليه، فلما حصلوا بساحل البحر سمروا مراكبهم وأكملوا انشاءها وتأليفها ودفعوها في البحر وركبوها قاطعين بالحجاج، وانتهوا الى بحر النعم، فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركبا، وانتهوا الى عيذاب، فأخذوا فيها مركبا كان يأتي بالحجاج من جدة، وأخذوا أيضا في البر قافلة كبيرة تأتي من قوص الى عيذاب، وقتلوا الجميع، ولم يحيوا أحدا، وأخذوا مركبين كانا مقبلتين بتجار من اليمن، وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة أعزهما الله، وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها في الاسلام ولا انتهى رومي الى ذلك الموضع قط، ومن أعظمها، حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة، وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول ﷺ واخراجه من الضريح المقدس، أشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم، فأخذهم الله باجترائهم عليه وتعاطيهم مايحول عناية القدر بينهم وبينه، ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم، فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والاسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ مع أنجاد من المغاربة البحريين، فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه، فأخذوا عن آخرهم، وكانت

آية من آيات العنايات الجبارية، وأدركوهم عن مدة طويلة كانت بينهم من الزمان بيف على شهر ونصف أو حوله، وقتلوا وأسروا ، وفرق من الاسارى على البلاد ليقتلوا بها، ووجه منهم الى مكة والمدينة، وكفى الله بجميل صنعه الاسلام والمسلمين أمرا عظيما والحمد لله رب العالمين »[1]

وأقسم صلاح الدين أنه لن يغفر لأرناط هذه الفعلة الشنعاء[2] ، وسنرى أن أرناط لم يكتف بذلك بل قام بعمل اجرامى وارهابى لايقل شناعة عن اجترائه على مهاجمة مدينة الرسول ، وكان السبب المباشر فى الصداء العنيف الذى دار بين صلاح الدين والصليبيين .

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، نشر وتحقيق وليم رايت ، ليدن ١٩٠٧ ، ص ٥٩ ، ٦٠

(٢) رنسيمان ، المرجع السابق ، ج٢ ص ٧٠٧

(٥)

الجهاد الأعظم

الموقف العام قبل موقعة حطين:

نجح صلاح الدين فى اقامة امبراطورية اسلامية واسعة الاطراف، مرهوبة الجانب، تمتد من بلاد النوبة واليمن جنوبا الى بلاد أرمينية شمالا، ومن برقة غربا الى الموصل وبلاد الجزيرة شرقا، وبذلك ورث أملاك الدولة الأتابكية (فى الموصل وحلب ودمشق) والدولة الفاطمية، وأصبح زعيما لجبهة اسلامية متحدة أمام القوى الصليبية المتنافرة فى بلاد الشام.

فعلى الرغم من نجاح الصليبيين فى اقامة ملك لهم فى الشام فى فترة الضعف التى أصابت الخلافتين العباسية والفاطمية، فان هذا الملك كان صناعيا مزيفا لايقوم على قواعد ثابتة راسخة، فلم تكن للصليبيين أمة أو شعب أصيل صاحب وطن يدافع عنه ويحمى ذماره، ولم تكن لديهم قومية منبعثة من الأرض التى وفدوا اليها، وانما كانوا شعوبا مختلفى الجنسيات، قدموا من أقطار أوروبا المختلفة، فهو ملك غرس فى غير أرضه، وشعب أقام فى غير موطنه. وكان هذا الشعب الصليبى الذى لاتربطه فيما بينه سوى رابطة التعصب الدينى يفقد بالتدريج أعداداً متلاحقة بسبب اصرار المسلمين على تحرير بلادهم، فهو ملك يستنزف شعبه، ويعتمد على الامدادات الجديدة التى تصل إليه من الغرب الأوروبى لتعويض ما يتناقص من اعداد هذه الأخلاط غير

المنظمة من الفرنج. وكان الحماس الديني أول الأمر في ذروته ، يدفع المسيحيين الأتقياء في أوربا الى الخروج حملة بعد حملة، وموجة بعد موجة الى هذا الملك الصليبي الجديد لتقويته وحمايته ، ولكن الزمن يمر، والحماس تخبو جذوته يوما بعد يوم ، والحملات تتباعد زمنيا وتقل بالتدريج، كل ذلك كان مؤشرا واضحا الى أن هذا الملك الصليبي كان يسير من القوة الى الضعف، في نفس الوقت الذى كان المعسكر الاسلامي يسير من الضعف الى القوة ، ومن التخاذل الى الصمود. ثم ان المسلمين كانوا يقاتلون في سبيل مثل قومية ودينية، فهم لم ينسوا لحظة واحدة أن هذه بلادهم وأوطانهم اغتصبها الفرنج منهم في ساعة ضعف اغتصابا، ولهذا فهم يقاتلون عن ايمان وعقيدة، وايمانهم وعزيمتهم كانا أقوى من ايمان وعزيمة قوم يقاتلون في سبيل ملك مغتصب. واذا كان الفرنج يعتبرون أن الهدف من قتالهم حماية بيت المقدس فان المسلمين بدورهم كانوا يجلون بيت المقدس ويقاتلون من أجل حمايتها بمثل ما يحارب من أجله المسيحيون، فهو عندهم ثالث الحرمين ، واليه أسرى الله بنبيهم محمد ﷺ من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، ولهم أمجاد تاريخية كثيرة لاتنسى ، ولهم فيه الصخرة المقدسة وقبتها التى أقامها عبد الملك بن مروان . ثم أن الهزائم التى تلقاها المسلمون في بداية الحركة الصليبية كانت حافزا لهم على طلب الثأر لشرفهم، فقد أيقظت فيهم الحمية والنخوة المستكنة، وذكرتهم بأمجادهم الحربية الماضية ، ودفعت فيهم الحماس لاسترداد هذه الأمجاد، ولاينبغى أن تنسى العامل الاقتصادى،

فقد كانت للمسلمين امكانات تفوق بكثير امكانات الصليبيين، اد كانت مواردهم الاقتصادية وفيره تمد الدولة بالمال والرجال والمؤن ، بينما كان الصليبيون يعتمدون على المدد الخارجي، وهم في ملكهم المحدود لايستطيعون ممارسة التجارة مع المسلمين الذين يحيطون بهم من كل جانب ، ويقاطعونهم اقتصاديا، ويتهددونهم دوما . وأخيرا نضيف الى كل ما سبق أن معسكر المسلمين كان متحدا في أهدافه وأغراضه، يتزعمه قائد واحد شجاع أثبت بفضل ذكائه ، وقوة ارادته، وعمق بصيرته، واصراره على تحرير أراضى الاسلام وأعنى به صلاح الدين في حين كان المعسكر الصليبي منقسما على نفسه .

ففي سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) كان هنري ملك بيت المقدس قد توفي وخلفه ابنه بلدوين الرابع، وكان طفلا أبرصا ، فتولى الوصاية عليه اثنان من زعماء الفرنج هما: ريموند الثالث أمير طرابلس المعروف بالقمص الصنجيلي ، وسيبيلا Sybilla أخت بلدوين وابنة عموري ، ثم توفي بلدوين تاركا الملك من بعده لبلدوين الخامس ابن اخته سيبيلا من وليم منتفرات الذى توفي سـنة ٥٧١هـ (١١٧٦م)، ثم تزوجت سيبيلا للمرة الثانية من فارس وسيم يدعى جاى دى لوزنيان Guy de Lusignan ،ويعرف في المصادر العربية باسم جوى أو كى أوابن غتم، فتوجته سيبيلا وأعلنته ملكا على الفرنج [1] ، وأطاعه رجال الدين وفرسان الاسبتارية والداوية، فأثار ذلك ثائرة القمص ريموند أمير طرابلس

---

[1] انظر التفاصيل في : رنسيمان ، المرجع السابق ، ج٢ ص ٧٢٣

الذى كاد يطمع فى أن يكون ملكا للفرنج بسبب ما قدمه من تضحيات عديدة فى سبيل الحركة الصليبية، وكان قد أمضى فى أسر نور الدين ١٢ سنة، ثم أطلقه كمشتكين نظير فدية كبيرة ليحارب به صلاح الدين . كما أن عموري اختاره وصيا على ابنه بلدوين الرابع ثم على بلدوين الخامس، ويشير ابن الأثير الى طبيعة الخلافات القائمة بين الفرنج وانقسام صفوفهم فيقول: «كان القمص صاحب طرابلس واسمه ريمند بن ريمند الصنجيلى، قد تزوج بالقومصة صاحبة طبرية [١]، وانتقل اليها وأقام عندها بطبرية، ومات ملك الفرنج بالشام، وكان مجذوما، وأوصى بالملك الى ابن أخت له ، وكان صغيرا، فكفله القمص ، وقام بسياسة الملك وتدبيره لأنه لم يكن للفرنج ذلك الوقت أكبر منه شأنا، ولا أشجع ولا أجود رأيا منه، فطمع فى الملك بسبب هذا الصغير، فاتفق أن الصغير توفى ، فانتقل الملك الى أمه، فبطل ما كان القمص يحدث نفسه به ، ثم أن هذه الملكة هويت رجلا من الفرنج الذين قدموا الشام من الغرب اسمه كي، فتزوجته، ونقلت الملك اليه ، وجعلت التاج على رأسه ، وأحضرت البطرك والقسوس والرهبان والاسبتارية والداوية والبارونية وأعلمتهم أنها قد ردت الملك اليه، وأشهدتهم عليها بذلك ،فأطاعوه ودانوا له . فعظم ذلك على القمص ، وأسقط فى يديه ، وطولب بحساب ماجبي من الاموال مدة ولاية ذلك الصبى ، فادعى أنه انفقه عليه ، وزاده ذلك نفورا، وجاهر بالمشاقة والمباينة، وراسل صلاح الدين وانتمى اليه، واعتضد

(١) هى اشيفا صاحبة طبرية كان قد تزوجها ريموند الثالث صاحب طرابلس. .

به، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك، ووعده النصرة، والسعي له في كل مايريده، وضمن له أنه يجعله ملكا مستقلا للفرنج قاطبة، وكان عنده جماعة من فرسان القمص أسرى فأطلقهم، فحل ذلك عنده أعظم محل، وأظهر طاعة صلاح الدين، ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج، فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم»[1]، ويذكر المقريزي أنه لما أقصى ريموند عن كفالة بيت المقدس ازداد تقربا من صلاح الدين وصار بناصحه»[2]... وباين أهل ملته وبث السرايا في بلادهم»[3] ولم يلبث أن استعان بصلاح الدين ضد لوزنيان عندما عزم هذا الاخير على محاربته.

وكان ريموند الثالث قد جدد الهدنة بينه وبين صلاح الدين لمدة أربع سنوات (٥٨١–٥٨٥ / ١١٨٥–١١٨٩م)، ثم كانت هزيمة الصليبيين في صفورية في أواخر صفر سنة ٥٨٣ (١١٨٧)، وهي الواقعة التي سقط فيها عدد كبير من أبطال الصليبيين وفي مقدمتهم مقدم الاسبتارية، افاقة للفرنج من سباتهم العميق، وباعثا لهم على التكتل أمام الخطر الاسلامي الجديد، فأسرع الفرنج يستحثون ريموند الثالث الى الدخول في طاعة جي دي لوزنيان ومصالحته، وقد أشار العماد الاصفهاني الى هذه المصالحة فقال: «وقد كان بينهم حينئذ

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص ٥٢٦، ٥٢٧.
(٢) المقريزي، السلوك، ج١ ص ٩٢.
(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٢٤٥.

حلف مبعث، وحلف منتكث ، ووقوع نفار بين الأنفار ، ووقود شرار بين الشرار ، ولما استدانوا حين حينهم، سعوا فى اصلاح ذات بينهم، ودخل الملك على القومص ليتقمص له بالود الاخلص ، ورمى عليه بنفسه ، واستبدل وحشته بأنسه ، فاصطحبا بعد ما اصطلحا، وأصحبا بعد ما جمحا، وتزاور الفرنج وتوازروا ، وتآمروا مابينهم وتشاوروا »[1] .وفى موضع آخر يقول العماد :« جاء الملك الى القومس بنفسه، وفتح له ما وجده من وحشته وعدمه من أنسه ، وقال أصحاب القومس له : ان لم تنصره فنحن مانخذل الدين ، ولانكون بأيدينا مسلمين الى مسلمين ، وتمت بينهم ليوم المصاف المصافاة ، وزالت المنافرة والمنافاة »[2] .

وكذلك يشير أبو الفداء الى هذه المصالحة، فيقول أن القومس صاحب طرابلس «وكان قد هادن السلطان ودخل فى طاعته «فأرسلت الفرنج الى القومس المذكور القسوس والبطرك ، ينهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه فصار معهم ، واجتمع الفرنج لملاقاة السلطان »[3] .

وكان قد برز من الفرنج فى فترة انقسامهم واختلافهم فى الرأى فارس فرنسى هو أرناط كان قدم الى الشام مع لويس السابع ملك

---

(١) العماد الاصفهانى ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق الاستاذ محمد محمود صبيح، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٦٥ وانظر ابن واصل ،ج٢ ص ١٨٩ .

(٢) العماد الاصفهانى ، المصدر السابق ، ص ٦٨ .

(٣) أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، صيدا ، ١٩٥٩ ، ج٥ ص ٩٥ . وذكر ابن الأثير ان رؤساء الفرنج وعلى رأسهم البطرك والقسوس أنكروا فى هذا الاجتماع على ريموند انتسابه الى صلاح الدين بأنه اعتنق الاسلام، وتهدده البطرك بالحرمان وفسخ زواجه، فاضطر ريموند الى الاعتذار والتنصل والتوبة، فقبلوا عذره وغفروا زلته، ووعد بالانضمام اليهم واجتمعت بذلك كلمتهم بعد فرقة (ابن الاثير ، ج١١ ص ٥٣٢).

فرنساء ووقع فى أسر نور الدين فى سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م)، لم أطلق سراحه بعد ذلك، فتزوج من وريثة حصن الكرك، وبذلك أصبح صاحب الكرك، وكان أرناط هذا قائدا شجاعا الى درجة التهور ،وعرف بالتهور والاندفاع والغدر والخيانة، وكان الى جانب ذلك أشد الصليبيين عداء للمسلمين ،وأكثرهم تعطشا الى سفك دمائهم .

ب - موقعة حطين (٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣هـ/ يوليو ١١٨٧م) ونتائجها :

كان صلاح الدين قد عقد هدنة بينه وبين الصليبيين فى مملكة بيت المقدس لمدة أربع سنوات تمتد من ٥٧٩هـ (١١٨٤م) الى ٥٨٣هـ (١١٨٨م)، حتى يتفرغ لمهمته الكبرى فى توحيد الصف العربى ،واقامة جبهة اسلامية متحدة تضم مصر والشام والجزيرة، تمهيدا للجهاد. غير أن أرناط الذى سبق أن خرق الهدنة فى سنة ٥٧٨هـ بهجومه على عيذاب وينبع اجترم جرما جديدا كان السبب المباشر فى استئناف الحرب مع الصليبيين ، فقد انقض أرناط على قافلة مصرية كانت مارة بالكرك فى طريقها الى الشام، فنهبها جنده وقتلوا وأسروا من أفرادها عددا كبيرا، ويقال أنه قال لأسراه وهو يعذبهم : « فليأت محمدكم ليخلصكم »، فلما علم صلاح الدين بذلك غضب غضبا شديدا ، وأقسم لئن وقع أرناط فى يده ليجزن رأسه بيده .

ولم يكد صلاح الدين يعلم بزوال الخلاف القائم بين ريموند وجى دى لوزنيان، ودخول ريموند فى طاعة الملك ، ونكثه بذلك الاتفاقية المبرمة بينه وبين صلاح الدين حتى زحف الى طبرية فى ٢١

ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ (يونيو ١١٨٣م)، فهدم النقابون أحد أبراج سورها وهدموه واقتحم المدينة (١)، وفر حماتها من المدينة الى قلعتها، متحصنين بها، وكان بداخلها أسيبا زوجة ريموند وبنيها، فأقام على حصارها فرقة من جيشه، ومضى هو ليواجه قوى الصليبيين المجتمعة بصفورية (٢)، فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين الى طبرية وتملكه المدينة دون القلعة، وإقدام قواته على احراق مافيها، اجتمعوا للمشورة، ولكنهم اختلفوا في خطة العمل، فقد كان ريموند يرى إبقاء الجيوش الصليبية في صفورية لقربها من ممتلكاتهم في الساحل، وليدفع صلاح الدين الى عبور هذه المسافة الصحراوية بين طبرية وصفورية، فيصل بجيشه منهكا، وعندئذ يسهل على الصليبيين الهجوم عليه. أما أرناط فقد كان يرى الاسراع بالهجوم والتقدم نحو طبرية ومفاجأة صلاح الدين قبل أن تصل اليه بقية امداداته، فيزداد بذلك قوة، وكان رأي ريموند أصوب من الوجهة العسكرية، ولكن رأي أرناط تغلب عليه بسبب موقف ريموند الودي من صلاح الدين قبل المصالحة، ويورد المؤرخون العرب تفاصيل المناقشات التي دارت بين ريموند وزعماء الفرنج فيذكر ابن الأثير أن بعضهم أشار بالتقدم نحو المسلمين وقتالهم، فقال القمص: « ان طبرية لي ولزوجتي ، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة مافعل . وبقي القلعة وفيها زوجتي ، وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا بها ويعود، فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام

---

(١) العماد الاصفهاني ، المصدر السابق ، ص ٢٦ ابن الأثير ج١١ ص ٥٣٢ .
(٢) تقع صفورية في منتصف الطريق بين حيفا وطبرية .

قديما وحديثا ما رأيت مثل هذا العسكر الذى مع صلاح الدين كثرة وقوة. واذا أخذ طبرية لايمكنه المقام بها فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها، وان أقام بها لايقدر على المقام بها الا بجميع عساكره، ولايقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم، فيضطر الى تركها، ونفتك من أسر منا، فقال له برنس أرناط صاحب الكرك: قد أطلت فى التخويف من المسلمين ، ولاشك أنك تريدهم، وتميل اليهم، والا ما كنت تقول هذا ، وأما قولك أنهم كثيرون، فان النار لايضرها كثرة الحطب . فقال: أنا واحد منكم أن تقدمتم تقدمت ، وان تأخرتم تأخرت وسترون مايكون » [1] . وذكر العماد الاصفهانى أن ريموند الثالث مع شدة قلقه على زوجته وأولاده، نصح الملك جى بالانتظار فى صفورية وترقب الأحداث ، وقال له :« هذا صلاح الدين لايقاس بأحد من السلاطين لتسلطه واقدامه على المخاوف وتورطه ، وان كسركم مرة فلايصنع لكم الجبر، وليس الا المراوغة والمغاورة والصبر ، والصواب ألا نخالطه، ولانباسطه ولانخالفه ونقبل شرائطه » [2] . فاتهمه أرناط بالخوف من المسلمين والميل اليهم، وقال له الملك :« أنت قد قلبتك الآفة، وفى قلبك المخافة » [3] .

- ولم يسع ريموند الا الرضوخ مكرها أمام اجماع القادة والأمراء والبارونات ، وهكذا خرج ملك الفرنج وفرسانهم وقادتهم على رأس

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج١١ ، ص ٥٣٣ ، ٥٣٤
(٢) العماد الأصفهانى ، ص ٦٦
(٣) نفسه

حشود ضخمة بلغت خمسين ألف مقاتل الى طبرية يحملون شعارهم المقدس وهو الصليب الأعظم المحلى بالذهب والجوهر، وعانى الصليبيون كثيرا أثناء عبورهم الصحراء نحو طبرية بسبب حرارة الجو في الصيف وثقل ما كانوا يحملونه من أسلحة وآلات حربية، فلما تم عبورهم المنطقة الصحراوية وصلوا الى تل حطين الواقع على مقربة من طبرية، وكان السير قد أنهكهم كما كان العطش قد أخذ منهم مأخذاً عظيما، وكان صلاح الدين قد سيطر على موارد المياه، ، فبدأ الفرنج المعركة وهم فى أشد حالات الانهاك والعطش ، وأطبقت عليهم جيوش صلاح الدين من كل جهة، وأحس ريموند منذ بداية الاشتباك بعبث المواجهة وأيقن بأنه لا طاقة للفرنج بالمسلمين وأن القتال سينتهي حتما بكارثة مفجعة، فأخذ يدور فى ساحة القتال بحثا عن ثغرة ينفذ من خلالها وينجو بنفسه، وأدرك تقى الدين عمر بن شاهنشاه (ابن أخ صلاح الدين) مايقصده ريموند وأصحابه، فتظاهر بالهزيمة وأفسح له طريقا للخروج، فظن ريموند أنه أحرز نصرا، فلما بعد بفرقته عن الجيش الصليبي، عاد تقى الدين عمر وانضم الى جيوش المسلمين لسد الثغرة، وألفى ريموند نفسه خارج الدائرة، فلم يجد بدا من العودة الى كونتيته 'طرابلس' [1] . أما صلاح الدين فقد شدد القتال على الصليبيين ، وأمر بعض عسكره من المتطوعة باشعال النار في الحشائش المحيطة بهم، وكانت الريح تدفع النار ودخانها الى الفرنج، فأصبحوا

(١) كان فرار ريموند الثالث أثناء القتال فى حطين سببا فى أن يتهم بالخيانة والتواطؤ مع عسكر صلاح الدين (Stevenson, The Crusaders in the East, p248) ، ويبدو أنه ندم على فراره من المعركة، فقد توفى بعد حطين إما أسفا على هزيمة الفرنج أو ندما على ترك المعركة أو لمرض أصابه

والنار تلفح وجوههم وأجسامهم من كل مكان ، ويقول ابن الأثير «فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال»[١] ، ثم انقض صلاح الدين بقواته عليهم فانهارت عزائمهم ،ووهنت مقاومتهم، وتمزقت صفوفهم وأعمل فيهم المسلمون سيوفهم، فقتلوا العدد الاعظم منهم، واستولى المسلمون على صليبهم الاعظم المسمى صليب الصلبوت الذى يزعمون أن فيه قطعة من الخشبة التى صلب عليها المسيح عليه السلام، فكان استيلاء المسلمين عليه من أعظم المصائب عليهم، ويخبر ابن الأثير عن هزيمة الصليبيين المكرة بقوله : « وأسروهم أيضا عن بكرة أبيهم ، وفيهم الملك وأخوه والبرنس أرناط صاحب الكرك ، ولم يكن للفرنج أشد منه عداوة للمسلمين ، وأسروا أيضا أرك صاحب جبيل ، وابن هنفرى صاحب تبنين ، ومقدم الداوية وكان من أعظم الفرنج شأنا ، وأسروا أيضا جماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية، وكثر القتل فيهم، فكان من يرى القتلى لايظن أنهم أسروا واحدا، ومن يرى الأسرى لايظن أنهم قتلوا أحدا »[٢]

ثم جلس صلاح الدين بعد الموقعة فى خيمته وقد اجتمع حوله قواده، وأمر باحضار الأسيرين الكبيرين جاى دى لوزنيان ملك بيت المقدس ، والبرنس أرناط صاحب الكرك، فقدما وهما فى حالة سيئة من الاجهاد الشديد بسبب العطش وعنف القتال ، فأجلس صلاح الدين الملك جاى على يمينه، وهدأ من روعه، وأعلمه عن طريق المترجم أن عادة الملوك جرت على ألا يقتل الملك ملكا مثله، وقدم له ماء مثلوجا ليشربه، فشرب ، وأبقى فضلة قدمها للبرنس أرناط، ولكن

(١) ابن الأثير ، ج١١ ، ص ٥٣٥
(٢) نفس المصدر ، ص ٥٣٧

صلاح الدين أسرع فقال له: « ان هذا الملعون لم يشرب الماء باذني فينال أماني» [1] ، يريد بقوله أنه بشربه الماء لم ينج من عقابه، فقد جرت العادة عند العرب أن الأسير اذا شرب من ماء عدوه أمن من عقابه. ثم أخذ صلاح الدين يذكر أرناط بفعاله الأثيمة وقال له: « ها أنذا انتصر لمحمد » ، ومع هذا فقد أراد أن يمنحه فرصة للنجاة من عقابه، فعرض عليه أن يعفو عنه ان هو اعتنق الاسلام، وواضح ان هذا العرض كان يعبر به عن سخريته منه، وبطبيعة الحال رفض أرناط ، فاستل صلاح الدين سيفه، وضربه على كتفه، ثم أجهز عليه من كان حاضرا، وأوفى صلاح الدين بذلك نذره القديم. كذلك أمر بضرب أعناق فرسان الداوية والاسبتارية، لأنهم كانوا يمثلون التعصب الشديد ، ثم سير الأسرى الباقين الى دمشق ومعهم شعارهم المقدس منكسا، فبيع بعضهم رقيقا وافتدى البعض الآخر نفسه .

واستغل صلاح الدين انتصاره الحاسم فى حطين وقضائه على معظم رؤساء الصليبيين فى الاستيلاء على العديد من المدن والحصون، فسقطت عكا والناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية والشقيف والفولة ومجدل يابا، ويافا، وقلعة تبنين، وصرفند ، وصيدا ، وهونين، وبيسان، ونابلس ، واللجون وأريحا والبيرة وأرسوف وبيروت والداروم وغزة وعسقلان والرملة والقدس وغيرها [2] ، وتدفقت فلول الصليبيين وجموع الفارين من المدن التى دخلها المسلمون شمالا نحو طرابلس،

(١) نفسه ، ص ٥٣٧
(٢) العماد الأصفهانى ، ص ٢٢٧

ولكن طرابلس التى كانت تجتار محنتها وتجتر آلامها بعد وفاة ريموند الثالث وانتقال الحكم فيها الى البيت النورمندى بأنطاكية، أغلقت أمامهم أبوابها، ورأى صلاح الدين أن يستغل انتصاره فى حطين فى توجيه ضرباته لامارة أنطاكية- طرابلس ، فى نفس الوقت الذى يقوم فيه بتطهير الجيوب الصليبية فى فلسطين ، ففى الوقت الذى كان يحاصر فيه بيروت سقطت جبيل فى أيدى المسلمين فى ٢٧ جمادى الأولى سنة ٥٨٣ [1] ، ثم هاجم صلاح الدين حصن الاكراد المنيع فى أول ربيع الثانى سنة ٥٨٤هـ ، وشن الغارات على البقيعة من أراضى كونتية طرابلس ويهمنا عرض النتائج التى أسفر عنها انتصار صلاح الدين فى حطين .

١- افتتاح مدن الساحل :

استغل صلاح الدين انتصاره الحاسم فى الاستيلاء على مدن الساحل وضرب العدو هناك قبل أن يثوب الى رشده ويفيق من أثر الهزيمة، وكان يستهدف من وراء استيلائه على مدن الساحل منع وصول الامدادات الصليبية الى بيت المقدس حتى اذا ما هاجمها (أى بيت المقدس) بعد ذلك سهل عليه افتتاحها، ثم أنه كان يهدف كذلك الى تأمين مواصلاته مع مصر . وبدأت المدن تتساقط فى أيدى المسلمين الواحدة بعد الأخرى فى سرعة مذهلة، ففى جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ تم استيلاؤه على عكا، وتمكنت القلوات الأيوبية من

(١) ابن شداد ، نشر الشيال ، ص ٨٠ ابن واصل ، ج٢ ص ٢٠٧ العماد الأصفهانى ، ص ٨١

دخول عكا بعد أن جلا عنها معظم أهلها من الفرنج خوفا على أرواحهم، وأعطى صلاح الدين ما كان للداوية فى عكا من أملاك واقطاعات الى صديقه عيسى الهكارى ترضية له عما قاساه فى الأسر. واستولى صلاح الدين على طبرية ، واستسلمت له اشيفا زوجة ريموند فأمنها صلاح الدين هى ومن معها [1] ، ثم استولى صلاح الدين على غزة وحيفا وصيدا وبيروت بالاضافة الى المدن الساحلية المتناثرة على الساحل ، ولم يبق أمامه سوى مدينة صور التى تجمعت فيها فلول الفرنج التى خرجت من مدن الساحل وتحصنت فيها، فتركها صلاح الدين مؤقتا واستولى على عسقلان، وقد نصح جاى لوزنيان أهلها بالتسليم ففعلوا، فوعده صلاح الدين باطلاق سراحه. ثم اتجه صلاح الدين بعد ذلك الى الداخل واستولى على بعض حصون الداوية، ولم يبق أمامه بعد ذلك سوى هدفه الأكبر وهو الاستيلاء على بيت المقدس ، وقبل أن يتوجه اليها بقواته أمر قائد أسطوله حسام الدين لؤلؤ بحراسة الساحل الشامى حتى يكون فى مأمن من هجمات العدو أثناء حصاره لبيت المقدس .

٢- استرجاع بيت المقدس .

افتتح صلاح الدين بعض المدن القريبة من بيت المقدس مثل طبرية والرملة والخليل وبيت لحم ونابلس ، ثم اتجه بعد ذلك لحصار القدس على رأس عساكر مصر وذلك فى أواخر جمادى الآخرة سنة

---

(١) ابن واصل ج٢ ص ١٩٥ - ١٩٦

الأسوار المنيعة، وكان يتولى الدفاع عنها البطريرك باليان، فبدأ صلاح الدين بمحاصرتها، ونصب حولها المجانيق وأخذ يطلقها على الأسوار، ونجح فى فتح ثغرة، وعندئذ طلب البطريرك الأمان للفرنج، فرفض صلاح الدين هذا الطلب لرغبته فى فتحها عنوة، انتقاما مما فعله الفرنج بالمسلمين والمذابح الرهيبة التى قاموا بها عند استيلائهم عليها. فلما ملك المسلمون بيت المقدس هدد البطريرك بقتل أسرى المسلمين لديه وتدمير المدينة، فاضطر صلاح الدين الى منح الفرنج الأمان [1]، واشترط عليهم أن يرحلوا عن المدينة فى أربعين يوما ويتركوا خيلهم وأسلحتهم، ويدفع كل رجل عشرة دنانير، وكل امرأة خمسة، وكل صغير دينارين فدية عن أنفسهم، أما من يمتنع منهم عن الدفع فانه يصبح من رقيق المسلمين. أما المسيحيون الوطنيون فقد سمح لهم بالبقاء كرعايا للدولة، كما سمح للبطريرك بالخروج بأمواله وذخائر كنائسه، وسمح لملكة بيت المقدس بالخروج كذلك مع أموالها وخدمها. ثم دخل المسلمون بيت المقدس بعد أن ظلت فى أيدى الصليبيين مدة ٨٨ سنة، وذلك فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ (٢ ديسمبر ١١٨٧م). وكان صلاح الدين نبيلا فى معاملته لسكان المدينة على نقيض الفرنج الذين ارتكبوا من المذابح وأعمال القتل وسفك الدماء والتخريب والتدمير ما جعل أحد مؤرخى الحركة الصليبية ممن شهد فتح الصليبيين للقدس يعترف بأنه وصل الى مسجد المدينة فى بحر من الدماء بلغ فى ارتفاعه الى الركبتين ..» بينما كان

(١) ابن واصل، ج٢ ص ٢١٢ - ٢١٤.

صلاح الدين حاميا للأرواح ، مبجلا لرجال الدين ، مكرما للحرائر من النساء ، مدافعا عن الأماكن المقدسة، فأين السماحة والرحمة والكرم من الوحشية والتعصب الأعمى . ويكفي للتعبير عن ذلك ما ذكره المؤرخ الانجليزي ستيفن رسمان في كتابه تاريخ الحروب الصليبية (الجزء الثاني) في سياق حديثه عن سقوط بيت المقدس وعن موقف صلاح الدين من سكان المدينة .كان المنتصرون معقولين وانسانيين فبينما خاض الفرنج عند استيلائهم على المدينة منذ ثمانية وثمانين عاما في دماء ضحاياهم لانجد في هذه المرة أى بناء نهب ولا أى انسان أصابه أذى، وتنفيذا لأوامر صلاح الدين انث الحراس يحفرون الطرق والأبواب، ويمنعون ارتكاب أى اعتداء قد يصيب المسيحيين وفي صفحة أخرى يقول :« وتقدم نساء الفرنج اللائى افتدين أنفسهن الى صلاح الدين والدموع تملأ مآقيهن وسألنه في استرحام أين يستطعن الذهاب بعد أن قتل أزواجهن وآباؤهن أو وقعوا في الأسر، فكان جواب صلاح الدين أن وعدهن باطلاق سراح كل زوج أسير، أما الأرامل واليتامى فقد أعطى كلا منهن منحة تتناسب مع مكانتها من حر ماله »[1]

دخل صلاح الدين بيت المقدس ليلة الاسراء (٢٧ رجب)، وكان فألا جميلا، فأقام الخطبة في الجامع الأقصى لأول مرة منذ ٨٨

(1) Runciman (S.). Ahistory of the crusades. Vol I London. 1971

وانظر الترجمة العربية للدكتور السيد الباز العريني . ج١ بيروت ١٩٦٨، ص ٧٥ وما يليها

سنة، واهتم باصلاح ماخربه الصليبيون واعادة المساجد التى كان الصليبيون قد حولوها الى كنائس الى بنائها ووظيفتها الأولى، ونصب المنبر الذى كان نور الدين قد صنعه ليضعه بنفسه فى الجامع بعد استيلائهم على المدينة، كما أمر أيضا باظهار الصخرة المقدسة بعد أن كان الفرنج قد غطوها بالرخام، فلما ظهرت، قام بغسلها وهو يبكى، كذلك خلع الصليب النحاسى الكبير من أعلى القبة وأقام مكانه هلالا بين حماس المسلمين وتهليلهم [1]، ثم أقام المدارس فى المدينة ورباطا للصوفية وبيمارستانا لعلاج المرضى.

٢- امتناع صور:

رأينا من قبل كيف استعصت مدينة صور على صلاح الدين بسبب حصانتها ومناعة أسوارها، فتركها لفتح بيت المقدس، فلما تم له ذلك أطال مقامه بها ريثما تتم الاصلاحات التى أمر باجرائها، وتعمير ما حولها، وكان قوّاده فى تلك الأثناء فى مدن الساحل المجاورة لصور يستحثونه لفتحها ويكتبون اليه «الفرصة تدرك بالحث وتفوت باللبث»، ولكنه تريث بعض الوقت فى بيت المقدس فلما عاد الى حصار صور وجدها صعبة المنال بمن وفد اليها من فلول جيش الفرنج والهاربين من القلاع الصليبية، والقادمين من عسقلان وعكا وبيت المقدس وغيرها. والواقع أن ابطاء صلاح الدين فى العودة اليها أتاح للفرنج الخارجين والهاربين من المدن التى فتحها صلاح

(١) ابن الأثير، ج١١، ص ٥٥٢ حوادث ٥٨٣- المقريزى، السلوك،ج١ ص٩٧.

الدين أن يتجمعوا فيها وينظموا المقاومة، فازدحمت صور بمن وفد اليها .

وكانت صور قد سقطت فى أيدى الفرنج فى أيام الآمر بأحكام الله سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م)، فابتنوا عليها سورا يطوقها من البر، كما حصنوا مدخلها بسلسلة تشد بين برجين ، وكان ميناؤها يتحمل استقبال المراكب الكبار حتى ضرب بها المثل فى الحصانة، وكانت صور تابعة للقومس الصنجيلى أمير طرابلس ، الذى أخلاها بعد فراره من معركة حطين [1] ، فتأهب أهلها لتسليمها لصلاح الدين لولا أن وفد اليها قائد شجاع هو كونراد دى منتفرات وتسميه المصادر العربية بالمركيش ، ويصفه ابن الأثير بأنه « كان من . ياطين الانس حسن التدبير والحفظ وله شجاعة عظيمة » [2] فردهم عن عزمهم ،وقوى نفوسهم، وضمن لهم حفظ المدينة ، وبذل ما معه من الأموال ، وشرط عليهم أن تكون المدينة وأعمالها له دون غيره، فأجابوه الى ذلك، فشرع فى تحصينها، وجدد خنادقها. وأقام أسوارها . والمركيش هذا هو أخ وليم دى منتفرات زوج ايزابيلا أو سبيلا السابق، الذى أنجب منها بلدوين الخامس، ولذلك التف حوله أهل صور ومن قدم اليها من فلول جيوش الفرنج أملا فى أحياء مملكتهم. وقد بالغ المركيش فى تحصين صور حتى أصبحت أشبه شيء بالجزيرة

(١) ابن الأثير ، ص ٥٤٣

(٢) نفسه ، ص ٥٤٤

المعصومة بأسوارها المنيعة. فلما عزم صلاح الدين على استئناف القتال اتجه اول الأمر لحصارها، ولكنها استعصت عليه هذه المرة أيضا لكثرة المدافعين عنها ممن لاذبها من فرنج بيت المقدس الذين أسهم صلاح الدين على حياتهم. يضاف الى ذلك أن عددا كبيرا من السفن البيزية والجنوية وأخرى المانية وفرنسية رست في مينائها، وشدت من أزر حاميتها وكانت هذه المراكب تخرج لمقاتلة المسلمين على الساحل ولذلك نصب صلاح الدين حول المدينة عددا من المجانيق والعرادات والجروخ بقصد دك الأسوار كما أرسل في طلب الأسطول المصرى الراسى عند عكا، فقدمت اليه منه عشر شوانى كبيرة حاصرت صور من جهة البحر لتمنع مراكبها من الخروج. ولكن مراكب الفرنج هاجمت مراكب المسلمين فجأة أثناء الليل، وأدخلت خمسا منها الى صور ليقتل رجالها أمام أعين عسكر صلاح الدين المحاصرين للمدينة. وحاولت السفن الاسلامية الباقية الفرار نحو بيروت، فتبعتها شوانى الفرنج، فعندما رأى رجال المراكب الاسلامية أن شوانى الفرنج مجدة فى طلبهم ألقوا بأنفسهم فى البحر وسبحوا الى البر تاركين سفنهم راسية، فأخذها المسلمون ونقضوها .

وأقبل الشتاء ببرده القارس ، وطال الحصار الاسلامى للمدينة، فتبرم عسكر صلاح الدين لعدم تعودهم على الحصار طويل الأمد ، واضطر صلاح الدين أمام الظروف الصعبة التى أحاطت بحصار صور الى رفع الحصار عنها، فرحل بقواته عنها فى آخر شوال الى عكا بعد ما

أذن لعساكر الشام وعساكر مصر والجزيرة بالعودة الى أوطانهم بقية الشتاء والعودة فى الربيع، وبقى هو مع حلقته الخاصة مقيما بعكا، فنزل بقلعتها، فى حين توجه أخوه العادل الى مصر وولده الظاهر غازى الى حلب [1] .

ثم شغل صلاح بعد ذلك بفتح حصنى الكرك والشوبك وهما قلعتان بلغتا الغاية فى الحصانة والمنعة، فحاصرتهما قوات صلاح الدين مدة طويلة، وتمكن فى النهاية من الاستيلاء عليهما فى ٥٨٤هـ (١١٨٨م) وأتبعهما بقلعة صفد التى استسلمت فى نفس العام، بعد أن أمر صلاح الدين على أرواح أهلها وتركهم يرحلون الى صور، ثم استولى على حصن كوكب المنيع بعد أن جلا أهله الى صور، ولم يبق من حصون مملكة بيت المقدس سوى حصن شقيف أرنون الذى يعتبر من أمنع الحصون الصليبية [2] ، ورأى صلاح الدين أن الأمر يقتضى الاغارة على كونتية طرابلس وامارة أنطاكية، فبادر فى أول ربيع الثانى سنة ٥٨٤هـ بمهاجمة أراضى الكونتية، فشن الغارات على البقيعة وأنطرطوس ، وهاجم صافيتا وعرقة والعريمة، واكتفى بغاراته فى نواحى طرابلس، ثم زحف الى امارة انطاكية ، فهاجم بلنياس واستولى عليها، ثم استولى على جبلة واللاذقية وحصن صهيون وبلاطنس ودربساك وبغراس، واضطر بوهمند الى طلب الصلح، فاستجاب صلاح

---

(١) أبو شامة الروضتين ، ج٢ ص ١٣٤ - ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ص ٢٧٢.
(٢) السيد الباز العرينى ، مصر فى عصر الأيوبيين ، ص ٩٠

الدين لشدة ضجر عسكره ومللهم من مواصلة الحرب والقتال [1] وتم عقد الهدنة لمدة ثمانية شهور ، والظاهر أن بوهمند الذى أصبح بعد أن ضم كونتية طرابلس الى امارته أعظم ملوك الفرنج شأنا، كان يستهدف من وراء طلبه عقد الهدنة أن يكتسب بعض الوقت أملا فى وصول امدادات صليبية من أوربا .

ويلوم بعض المؤرخين صلاح الدين على سماحه لفلول عسكر الفرنج والعناصر الصليبية فى المدن التى افتتحها بالتجمع فى صور بحيث استعصت عليه بعد ذلك، بل أصبحت هذه المدينة تشكل خطرا هائلا على ملكه، ويوجه اليه ابن الأثير اللوم بقوله :« ولم يكن لأحد ذنب فى امرها غير صلاح الدين فانه هو جهز اليها جنود الفرنج، وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك، كما سبق ذكره، وكان يعطيهم الامان، ويرسلهم الى صور فصار فيها من سلم من فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم، فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم، فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم، وووعدوهم بالنصرة، وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلجأون اليها، فزادهم ذلك حرصا على حفظها والذب عنها. وسنذكر أن شاء الله ما صار اليه الأمر بعد ذلك، ليعلم أن الملك لاينبغى أن يترك الحزم وان ساعدته الأقدار، فلأن يعجز حازما خير له من أن يظفر مفرطا، مضيعا للحزم، وأعذر له عند الناس [2] » .

---

(1) كان صلاح الدين يرغب فى التفرغ للقلاع الصليبية الجنوبية التى استعصت عليه وهى حصن كوكب أرنود وصور .

(2) ابن الأثير ، ج11 ، ص 556 .

والواقع أن صلاح الدين أخطأ بترك عسكر الفرنج يتقوى بحشود الوافدين الى صور، وكان من الممكن أن يستبقيهم فى المدن المفتوحة على أن يكونوا أشبه بالأسرى، واذا كان صلاح الدين قد فعل ذلك لكى يحقن دماء الطرفين ويتسلم المدن المفتوحة سليمة، أو لتطهير المدن الداخلية والقلاع من الفرنج لخطورتها باعتبارها الجيوب التى تتخلل أراضى المسلمين، ظنا منه أن الحصون الساحلية من اليسير حصارها برا وبحرا مستندا فى ذلك على اعتقاده بصعوبة وصول نجدات أوربية من البحر، فقد أخطأ فى ذلك أيضا. وتدل الأحداث المقبلة على أنه لم يوفق فى هذه السياسة، اذ أنه بتركه عسكر أعدائه يتركزون فى صور قد ساعد على تأسيس قاعدة صليبية قوية ستشكل فى المستقبل القريب خطرا ووبيلا على بلاد الاسلام، واذا كان المؤرخون المعاصرون يرمون ابن الأثير بتعصبه ضد صلاح الدين لميله لآل زنكى فهم مغالون فى ذلك لأن ابن الأثير كان صادقا هذه المرة فى حكمه، وكان مجردا من أى تحامل على صلاح الدين .

لقد أحيت مقاومة صور لصلاح الدين آمال الفرنج فى طرابلس وأنطاكية ،والرغبة فى التشبث بالساحل الشامى، فان بطريرك بيت المقدس الذى سمح له صلاح الدين بالخروج منها آمنا أخذ يطوف فى بلاد المسيحية ومعه صورة عربى يضرب المسيح ليحث المسلمين على الانتقام من المسلمين، وعمل البابا جريجورى الثامن على الدعوة الى محاربة المسلمين، وتبعه فى ذلك خليفته كليمنت الثالث الذى أمر أساقفته فى كل مكان بالدعوة الى حملة صليبية جديدة هى الحملة

الثالثة التى اشتركت فيها أوربا كلها بجميع دولها وامكانياتها، وأسهمت النساء فى الحملة المذكورة لمحاربة المسلمين يدفعهن الى ذلك حماسهن الدينى .

وكان أول من دخل صور من زعماء الفرنج جى دى لوزنيان الذى أطلق صلاح الدين سراحه فى هذا الوقت بالذات هو ومقدم الداوية بعد أن اشترط عليهما ألا يسهما مستقبلا فى أى حرب ضده ، ولكن جى لم يلبث أن نكث بعهده ، وانضم الى الفرنج المحتشدين فى صور ، ثم وقع بينه وبين كونراد دى منتفرات نزاع على عرش بيت المقدس، اذ ادعى كونراد بأحقيته لهذا العرش بعد أن فشل جى من قبل فى الدفاع عن ملكه، وخلعه الصليبيون فى الشام أثناء أسره ، ثم ان كونراد ينتسب هو الآخر الى بيت ملكى، اذ أن أخاه وليم دى منتفرات كان ملكا على بيت المقدس من قبل، ولكن هذا النزاع لم يلبث أن تبدد فى هذا الوقت أمام الخطر الاسلامى ، وتصالح الرجلان بعد أن تركا مسألة العرش يبتان فيها فيما بعد .

(٦)

الحملة الصليبية الثالثة وسقوط عكا

١- الحملة الصليبية الثالثة :

استثار سقوط بيت المقدس في أيدى المسلمين حماس أوربا من جديد، فأرسل البابا الى زعماء الصليبيين فى الشام يستحثهم على الصمود، ويعدهم بمجيء ملوك أوربا على رأس حملة صليبية كبرى ، وكانت وفود الصليبيين وامداداتهم تصل الى الثغور التابعة للصليبيين فى الشام كل سنة تقريبًا للحج أو للحرب أو لهما معا، وهى حملات صغيرة ، استصغرها المؤرخون فلم يعنوا باحصائها أو التأريخ لها، وانما اهتموا بالحملات الكبرى التى جهزت فى أعقاب حوادث كبرى كانت لها آثار عميقة فبعد استيلاء عماد الدين زنكى على الرها قدمت الحملة الصليبية الثانية، وبعد سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين نتيجة لانتصاره الحاسم فى حطين قدمت الحملة الصليبية الثالثة، الا أن العامل الدينى هذه المرة لم يكن المحرك الاساسى لهذه الحملة، وانما حركتها عوامل سياسية يمكننا أن نتنبه اليها اذا ألقينا نظرة سريعة على هذه الحملة من حيث الدوافع التى أدت الى خروجها، ومن حيث موقف الزعماء والملوك الذين شاركوا فيها.

وكان يقود هذه الحملة ثلاثة من كبار ملوك أوروبا فى هذه الآونة

هم

١- فردريك بربروسا، امبراطور الدولة الرومانية، وتسميه المصادر العربية ملك الألمان .

٢- ريتشارد قلب الأسد ، ملك انجلترا، وتسميه المصادر العربية ليجرت ملك الانكتير أو الانكتار أو الانكلتير .

٣- فيليب أوجستوس ، ملك فرنسا وتسميه المصادر العربية الفرنسيس .

كان فردريك امبراطورا على دولة واسعة الأرجاء تضم ألمانيا وبلاد الرين وايطاليا، وكان يشغله في بلاده وقتئذ نضالان : الأول ضد الأمراء اللومبارديين الاقطاعيين، للحد من سلطانهم، والثاني ضد البابا. وقد انتصر فردريك في نضاله الأول ، ونتيجة لهذا الانتصار ازدادت قوة الحكومة المركزية، ودان له كبار الاقطاعيين بالولاء ، أما بالنسبة لنضاله الثاني فقد كانت الحرب فيه سجالا، وأخيرا اتفق الطرفان : الامبراطور والبابا على عقد حلف دفاعي بينهما، أي أن يتعاونا دائما ضد من يجرؤ على معاداتهما. ولما كان الاسلام يعتبر أنذاك أكبر عدو لكل منهما، فقد انضم فردريك الى الحملة الصليبية الثالثة حتى يعلو شأنه بين ملوك أوربا بمساهمته في هذه الحرب الدينية. ورحب البابا باشتراكه فيها وذلك ليشغل قوى الامبراطورية في حرب دينية يظل هو دائما فيها الرئيس الأعلى لها ، فاشتراك الامبراطور في هذه الحرب الدينية فيه اعتراف ضمني بخضوعه وتبعيته للبابا، وهذا يعني أن العوامل السياسية أصبحت تؤثر وتدفع وتوجه .

أما ريتشارد قلب الأسد، فكان من سلالة النورمنديين أبناء وليم الفاتح ومن سلالة أمراء أنجو الفرنسيين ، وقد كان النضال وقتئذ على أشده بين ملك انجلترا هنرى الثانى وملك فرنسا فيليب أغسطس بسبب تملك ملك انجلترا لمقاطعة نورماندى الواقعة شمالى فرنسا، اذ كان كل منهما يدعى ملكيتها، ولكن الملكان اتفقا على دفن الخلاف بينهما ومحاربة المسلمين، غير أن الخلاف لم يلبث أن بعث من جديد بسبب إقدام هنرى على خلع ابنه الأكبر ريتشارد ، الذى عرف فيما بعد بقلب الأسد لشجاعته وقسوة قلبه، من ولاية العهد لصالح ابن آخر له، فاضطر ريتشارد الى محاربة أبيه وساعده فى ذلك ملك فرنسا، وكان ريتشارد قد خطب أخته اليكس Alix ، فلما توفى هنرى ٥٨٥هـ (١١٨٩م) . اعتلى ريتشارد العرش واتفق مع فيليب أغسطس على استخلاص الأراضى المقدسة ، وقد قبل ريتشارد أن يرحل الى المشرق حتى يلتمس المجد والنصر هناك، وترك بلاده فى يد أخيه جان والملكة الوالدة اليانور Eleanore . وأبحر ريتشارد من سواحل جنوب فرنسا فى أسطول كبير الى صقلية حيث تقابل مع فيليب، وهناك حدث بينهما خلاف أدى الى أن يقطع خطبته من أخت فيليب .

أما الملك الثالث وهو فيليب أغسطس ، فينحدر من سلالة الأسرة الفرنسية هيو كابيه التى قامت على أنقاض دولة أبناء شارلمان. وقد شغلت هذه الأسرة بادىء الأمر بمحاربة أمراء الاقطاع، وحققت فى ذلك من النجاح ماقوى من نفوذ الملوك، وأدى الى انتصار ملك فرنسا على أمرائه الاقطاعيين وعلى ملوك انجلترا الى ارتفاع مكانته، فأصبح

ينظر اليه على أنه من ملوك أوربا العظام. فلما خرجت الحملة الصليبية الثالثة، واشترك فيها فردريك بربروسا وريتشارد قلب الأسد رأى فيليب أوجسطوس ضرورة الاشتراك فيها بدوره بحكم مركزه بين ملوك أوروبا. فالدافع اذن مما سبق عرضه لم يكن دينيا فحسب ، بل كانت هناك عوامل سياسية تدفع وتؤثر وتوجه .

أما فردريك فقد كانت له خبرة سابقة فى محاربة المسلمين منذ أن اشترك مع عمه الامبراطور كونراد الثالث فى الحملة الصليبية الثانية، ولذلك استعد لهذه الحملة استعدادا كبيرا، واستكمل جوانب النقص التى تمخضت عنها الحملة السابقة. وكان فردريك أول من خرج الى الشرق فى جيوش هائلة بلغت على حد قول المقريزى ألف ألف مقاتل [1] . اخترقت جيوش الألمان [2] وسط أوروبا الى القسطنطينية ثم وصل فردريك بجيشه أمام القسطنطينية، فاستقبله اسحق الثانى امبراطور بيزنطة (ويسميه ابن شداد ايساكيوس) بامتعاض ، اذ خاف من جيشه لضخامة عدده ، ثم أن فردريك كان يحمل لقب امبراطور الدولة الرومانية فى الوقت الذى كانت بيزنطة تعتبر وارثة للرومان. يضاف الى ما سبق ذكره من أسباب امتعاض الامبراطور البيزنطى أن اسحاق كان قد تقرب من صلاح الدين وحالفه منذ أن حارب صلاح الدين الاتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى، فلم يشترك مع الصليبيين فى موقعة

(١) المقريزى ، السلوك ، ج١ ص ١٠٣ ، وهذا العدد مبالغ فيه للغاية.
(٢) يقول ابن الأثير عنهم أنهم نوع من الفرنج من أكثرهم عددا وأشدهم بأسا (ابن الأثير ، ج١٢، ص ٤٨).

حطين ، بل أرسل يهنىء صلاح الدين بفتح بيت المقدس ، وربما كان يستهدف من وراء ذلك الاشراف على كنيسة القيامة والأماكن المقدسة فى بيت المقدس . على أية حال حاول اسحاق منع الألمان من عبور بلاده، ولكنهم لن يأبهوا له، فأرسل الى صلاح الدين يذكره بصداقته ويعتذر له عن عبور الألمان ببلاده، ثم اجتاز الألمان داخل أراضى دولة سلاجقة الروم، ودخل فردريك قونية حاضرتهم باتفاق أجراه مع قطب ملكشاه بن قلج ارسلان.

ووصل الألمان بعد ذلك الى أرمينية الصغرى أو بلاد سيس، وكان شعبها من المسيحيين، فعاون ملكهم لافون فردريك وجيشه. غير أن جيش فردريك تعرض عند اقترابه من حدود الشام لوباء الطاعون، وتفشى الوباء سريعا ففتك بعدد هائل من عسكره، ومات فردريك نفسه غريقا، ولم يصل منهم الى أنطاكية الا عدد قليل بقيادة ابنه فردريك سواب ، وقد جبن هؤلاء عن مهاجمة حلب التى احتشدت فيها قوات صلاح الدين، واتجهوا الى طرابلس حيث وضعوا فى كنيستها رماد فردريك برباروسة ملكهم، ومن هناك ركبوا بحرا الى عكا، فوصلوها فى ٦ رمضان ٥٨٦هـ (١١٩٠م). ثم توفى فردريك سواب بعد فشله فى محاربة المسلمين ، ولما أراد بقية الجيش الألمانى العودة الى بلادهم غرقت بهم السفن فى البحر [١] .

وأما فيليب فقد أبحر من صقلية فى أسطول صغير لايتجاوز ست

(١) راجع التفاصيل فى ابن الاثير ، ج١٢ ، ص ٤٨ - ٥٠

بطسات كبار، فوصل الى ساحل عكا، فقويت به نفوس الفرنج الذين يحاصرون عكا.. أما ريتشارد ملك الانكلتار فقد أبحر من صقلية الى قبرص، وكان يتولاها أمير يونانى مستقل عن الدولة البيزنطية اسمه اسحق، فاستقبل ريتشارد استقبالا عدائيا، فأرسل ريتشارد الى الصليبيين بالساحل يطلب منهم أن يبعثوا اليه بقوة تعينه على القبارصة، فأرسل اليه جى دى لوزنيان أخاه جفرى، وبفضل هذا الامداد تمكن ريتشارد من الاستيلاء على قبرص بعد أن غدر بصاحبها، فكان ذلك على حد قول ابن الأثير زيادة فى ملكه وقوة للفرنج "[1]"، اذ كانت قبرص ذات نفع للصليبيين اتخذوها قاعدة لشن كثير من الحملات الصليبية على بلاد المسلمين. ثم وصل ريتشارد الى ساحل عكا فى ١٣ من جمادى الأولى سنة ٥٨٧هـ فى أسطول كبير من ٢٥ شينى، فعظم به شر الفرنج، واشتدت نكايتهم فى المسلمين، وكان رجل زمانه شجاعة ومكرا وجلدًا وصبرا وبلى المسلمون منه بالداهية التى لامثل لها» "[2]".

ب - حصار عكا وسقوطها:

رأينا كيف تجمع الفرنج فى صور وكيف انضمت اليهم بعض البعوث الوافدة من أوروبا، ولما اطمأن جى دى لوزنيان على حصانتها وقوة الدفاع فيها رأى ضرورة التوجه الى عكا للاستيلاء عليها ليكون للصليبيين على البحر المتوسط ميناءان قويان يتخذهما الصليبيون قاعدتين تتركز فيهما جيوش الحملة الصليبية القادمة، وعلى هذا النحو

(١) ابن الأثير، ج١٢، ص ٦٤

(٢) نفس المصدر، ص ٦٥

خرج جى دى لوزنيان والمركيس كنراد من صور فى رجب سنة ٥٨٥هـ (أغسطس ١١٨٩م) الى عكا فى أعداد كبيرة، كما أبحرت سفنهم بحذاء الساحل . وكانت عكا من أحصن مدن السواحل الشامية ،اذ كانت مشيدة على ربوة تحيط بها مرتفعات ووديان زادت من حصانتها .

وكان ابن طولون قد حاطها بسور منيع ،وشد فى مينائها سلسلة لمنع السفن من اجتيازه⁽¹⁾ كما كانت الحال فى صور، وفى العصر الفاطمى زودها الفاطميون بتحصينات جديدة غاية فى الاحكام. واستعصت عكا على الصليبيين ، فأمامها قتل جود فروى أول ملك لبيت المقدس ، ولكن بلدوين تمكن من الاستيلاء عليها فى ٤٩٧هـ (١١٠٤م) بعد حصار محكم من البر والبحر فى أيام الآمر بأحكام الله، فظلت فى أيدى الصليبيين الى أن استردها منهم صلاح الدين فى جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م)، واهتم بتحصينها، وأسند الى بهاء الدين قراقوش مهمة اعادة بناء أسوارها التى كانت قد تهدمت، كما أقام لها أبراجا وقلاعا زادت من حصانتها بحيث تمكنت بعد ذلك من التصدى لحصار الفرنج مدة عامين، وكانت بعكا عندما هاجمها جى دى لوزنيان والمركيس كنراد حامية قوية .

حاول صلاح الدين أن يرد جيوش الصليبيين قبل وصولها الى عكا، ولكنه تأخر فى الوصول اليها، فلم يصل الا بعد أن أحكم الفرنج

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة عكا .

الحصار عليها برا وبحرا، وقطعوا الاتصال بين داخل المدينة وخارجها. واستمر أهل عكا يواجهون الفرنج المحاصرين لبلدهم ويقاتلونهم مدة طويلة إلى أن وصل فيليب أغسطس ثم ريتشارد ، فرجحت كفة الفرنج، واستسلمت المدينة بعد مقاومة عنيفة في جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ (يوليو ١١٩١م) .

هذا وقد مر حصار الفرنج لعكا بثلاثة مراحل سنوجزها فيما يلي :

المرحلة الأولى من الحصار :

(من بدء الحصار في ربيع الثاني سنة ٥٨٥هـ حتى شتاء هذه السنة)

انتهز الفرنج في صور فرصة انهزام المسلمين على أيدى الفرنج في الساحل وبادروا بمحاصرة عكا بقوات كثيفة العدد، قبل أن يصل اليها صلاح الدين، فنزل صلاح بمرج عكا وأصبح محاصرا للفرنج، والفرنج محاصرين للبلد [١] حصارا شديدا من البر والبحر حتى لم يبق لعسكر صلاح الدين أي اتصال بها [٢] . فأرسل صلاح الدين يستدعى العسكر الاسلامى الموزع على المدن التى استردها المسلمون ،كما أرسل الى الاطراف يحث الناس على الجهاد، وأرسل الى أخيه سيف الاسلام طغتكين باليمن يطلب منه العون ، وحاول صلاح الدين فتح ثغرة في نطاق هذا الحصار يتمكن من خلالها تزويد المدينة بالعدد والاقوات ، ونجح في ذلك عندما حمل المسلمون على الفرنج حملة

(١) المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص ١٠٢ .

(٢) يقول المقريزى : « فلم يقدر السلطان على الوصول الى البلد، ولا استطاع أهل عكا أن يصلوا الى السلطان» (السلوك، ج١، ص ١٠٢) .

عنيفة ووصلوا الى سور المدينة ، وأدخلوا فيها من أرادوا من الرجال والميرة والأموال، ولكن الفرنج المحاصرون للمدينة عادوا فأحكموا الحصار عليها من جديد ، وحفروا خندقا على معسكرهم حول عكا من البحر الى البحر ، وأداروا حولهم سورا مستورا بالستائر (أى الإسوار الأمامية) ورتبوا عليه الرجال ، ومنعوا بذلك وصول أى امدادات اسلامية الى داخل المدينة [1] ثم قدم العادل أخو صلاح الدين بعسكر مصر فى منتصف شوال من السنة، كما وصل الاسطول المصرى الى عكا فى خمسين قطعة بحرية بقيادة حسام الدين لؤلؤ الحاجب فى منتصف ذى القعدة، فاستظهر أهل عكا المسلمون بالاسطول، وتتابع وصول عسكر المسلمين من الشرق ، وكان صلاح الدين يرى المبادرة بالاجهاز على قوى الفرنج قبل أن تصلهم الامدادات من جهة البحر، ولكن قادة صلاح الدين أثنوه عن ذلك، وآثروا الراحة بعد قتال طويل بينهم وبين الفرنج دام خمسين يوما متصلة، واضطر الى النزول على رأيهم ، وكان رأيا خاطئا اذ أتاح الفرصة أمام الفرنج لاستئناف حصارهم لعكا بعد أن وصلتهم الامدادات من كل مكان ، بالاضافة الى ما أشيع من قرب وصول الامبراطور فردريك .

المرحلة الثانية:

(من ربيع سنة ٥٨٦هـ (١١٩٠م) الى شتاء ٥٨٦هـ) :

لما انتهى فصل الشتاء تأهب صلاح الدين لاستئناف القتال ،

---

(١) المقريزى ، نفسه ، ص ١٠٢ .

فاستدعى الجيوش من كل اطراف دولته، فوصل اليه عدد كبير من المقاتلة من بلاد الشام والجزيرة ومصر، وكان الصليبيون قد تفننوا فى استخدام أدوات القتال للتغلب على المسلمين، بينما تفنن المسلمون فى ابتداع وسائل لابطال مفعول أدوات الصليبيين، فقد صنع هؤلاء أبراجا هائلة من الخشب حول أسوار عكا كانت تتجاوز فى الارتفاع أسوار المدينة، وكسوها بجلود البقر وبللوها بالخل والطين حتى لاتتعرض للاحتراق ، ثم أخذوا يطلقون منها النار والأحجار والسهام بشدة لم تعرف من قبل ، ولكن واحدا من متطوعة أهل الشام تمكن من ابتكار سائل لحرق هذه الأبراج ، فرمى بالمنجنيق قدور النفط من هذا السائل ثم رمى بالنار فاشتعلت فيها بسرعة، واحترقت ، فهلل المسلمون لذلك وكبروا [1] . وبفضل هذا الابتكار أمكن للمسلمين تدمير الكباش التى نصبها الفرنج لنقر الأسوار وفتح ثغرات فيها ، ثم قامت المعارك فى البر والبحر وتمكن الاسطول الاسلامى من دخول عكا محملا بالمؤن والمحاربين، وكان صلاح الدين فى هذه الأثناء يعمل على مهاجمة الفرنج قبل وصول فردريك ، ولكن القدر كفاه شره كما رأينا من قبل . وعلى الرغم من النكبة التى تعرض لها جيش فردريك فقد تحمل الفرنج هجمات المسلمين وتصدوا لها وامتلأت نفوسهم بالآمال بعد أن وصلتهم قوة حديدة وفدت من أوروبا بقيادة شخصية صليبية هامة وهو هنرى دى شامبين ، المعروف فى المصادر العربية بالكندهرى الذى كان يمت بصلة القرابة لملكى انجلترا وفرنسا

(١) ابن الأثير ، ج١٢ ، ص ٤٦ وما يليها

وبدأ الحصار حول عكا يشتد منذ وصوله، ويذكر ابن الاثير انه وصل الى عكا ومعه من الأموال شيء كثير يفوق الاحصاء ، فجند الأجناد ، وبذل الأموال ، فعادت نفوسهم فقويت واطمأنت ، وأخبرهم أن الإمدادات واصلة اليهم يتلو بعضها بعضا، فتماسكوا وحفظوا مكانهم [1] وأبدى الفريقان شجاعة فائقة ، وظهر في معسكر المسلمين في هذه الأثناء عدد من الفدائيين المسلمين كانوا يسبحون وسط أساطيل العدو لتوصيل الأخبار الى أهل عكا المحصورين، ومن هؤلاء السباحين عيسى العوام

وأخيرا وصلت فلول الجيش الألماني ، ولكن فصل الشتاء كان قد حل ببرودته وأمطاره فتوقف القتال

المرحلة الثالثة:

من ربيع ٥٨٧هـ (١١٩١م) الى سقوط عكا :

بدأت المدينة تضعف ضعفا واضحا بعد هذا الحصار ، وظهر الوهن في نفوس أهلها، في الوقت الذى ارتفعت فيه روح الفرنج المعنوية بوصول فيليب أوغسطس وريتشارد قلب الأسد، وتكاثر الفرنج على عكا برا وبحرا، وساءت الأمور بالنسبة لحاميتها منذ أن أحكم الأسطول الانجليزى الحصار حول السفن المصرية ، ولم يعد أمام هذه السفن أى فرصة لاختراق الحصار البحرى المعروض عليها، وقد حاولت بطسة مصرية توصيل بعض الأطعمة الى حامية عكا ، فاضطر

(١) ابن الأثير ، ج١٢ ، ص ٥٣

بحارتها وعددهم ٧٠٠ الى اغراقها وغرقوا معها، وبذلك ضاع كل أمل في انقاذ عكا، وأصبح سقوط عكا وشيكا لاسيما بعد أن تهدمت قطاعات من أسوارها بسبب قذائف المجانيق الصليبية، وتمكن العدو من نقب هذه الأسوار في مواضع مختلفة وتدفقوا من خلالها الى داخل المدينة [١]. وبدأت مفاوضات التسليم بين الأمير على بن أحمد الهكارى المعروف بالمشطوب وبين رؤساء الفرنج ، وتم الاتفاق على الشروط الآتية :

١- أن تسلم المدينة للفرنج بما تحتويه من آلات وعدد وأسلحة .

٢- أن يدفع الأهالى مائتى ألف دينار من الذهب فدية لأسرى المسلمين .

٣- أن يطلق سراح ألف وخمسمائة فارس من الفرنج ومائة فارس معروفة أسماؤهم .

٤- أن يرد للفرنج صليب الصلبوت .

٥- أن يدفع المسلمون أربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور .

٦- أن يخرج جميع من فى المدينة من المسلمين سالمين .

وفى ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ (يوليو ١١٩١م) دخلت قوات الصليبيين عكا بعد مقاومة مريرة دامت نحو ثلاث سنوات، حزن

(١) أبو شامة ، الروضتين، ج٢ ص ١٨٩ - ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ص ٣٦٢

صلاح الدين لسقوطها حزنا شديدا .

ولكن الفرنج حنثوا بعهودهم ولم ينفذوا شروط الصلح، اذ رفضوا تسليم أسرى المسلمين الا بعد أن يأخذوا الفدية كلها، فلما عرض عليهم المسلمون نصف الفدية مقدما ونصفها الثاني بعد الافراج عنهم أصر الفرنج على موقفهم[1] ، فبدأ الشك يتسرب فى نفوس المسلمين، وأيقن صلاح الدين بأنهم انما يريدون المال ليتقووا به أولا ثم يطلقون الفقراء من أسرى المسلمين ويحتفظون بكبار رجال المسلمين ليطالبوا بفديات أخرى عنهم، ورفض صلاح الدين الاتفاق على هذا النحو، فانتقم ملك انجلترا من صلاح الدين بقتل ثلاثة آلاف من أسرى المسلمين الفقراء صبرا، وقد أدى هذا التصرف الوحشى من جانب الفرنج الى استئناف القتال من جديد[2] .

جـ - نتائج سقوط عكا :

كان لانتصار الفرنج فى معركة عكا واستيلائهم عليها أثر كبير فى رفع معنوية الفرنج بعد كسرتهم فى حطين، كما تسبب سقوط عكا فى هبوط الروح المعنوية عند المسلمين، فتخاذلت عزائمهم بعد ذلك وتلاحقت هزائمهم، فقد أصبحت عكا بعد أن افتتحها الفرنج أهم قواعدهم البحرية فى الشام والمركز الصليبى الرئيسى على سواحل الشام لامداد القوى الصليبية بالعتاد والأقوات ومختلف أنواع الامدادات، ثم ان الصليبيين أعادوا اليها جماعة فرسان الاسبتارية للدفاع عنها، وأصبح

(١) ابن الأثير ، ج١٢ ص٦٨ .
(٢) المقريزى ، السلوك ، ج١ ص ١٠٥ .

هؤلاء يعرفون بفرسان القديس يوحنا Saint Jean ، وبهم عرفت عكا Saint Jean d'Acre .

أما الموقف فى المعسكر الصليبى بعد سقوط عكا فيتلخص فى أن نزاعا دب بين الفرنج أنفسهم، فقد طالب المركيس كنراد بعرش مملكة بيت المقدس بعد موت سيبلا التى لم تخلف وريثا، وكان كنراد قد تزوج من أختها الصغرى ايزابيل، فانتقل الملك الى الصغرى بعد وفاة الأخت الكبرى ، اذ كانت كلتاهما أختا لبلدوين الرابع. وكان جى دى لوزنيان قد توج ملكا بسبب زواجه من سيبلا، فانقسم الصليبيون الى فريقين : فريق يؤيد كنراد وعلى رأسه فيليب ملك فرنسا لأن كنراد وضع صور تحت حمايته ، وفريق يعضد جى وعلى رأسه ريتشارد ، وكان جى قد تقرب اليه منذ أن أرسل اليه مددا ضد القبارصة. وقد رأينا كيف انسحب كنراد الى صور، واضطر ريتشارد الى التدخل لحل مسألة عرش بيت المقدس فى مجمع يضم عددا كبيرا من القساوسة والفرسان، وقد تقرر فى هذا المجمع أن يكون جى ملكا على مملكة بيت المقدس على أن يكون كنراد وريثا له، وأنه اذا مات الاثنان ورث هو – أى ريتشارد – عرش هذه المملكة، وبذلك يكون ريتشارد قد نقض اتفاقه مع فيليب فى اقتسام كل ما يفتتحاه من البلاد الأمر الذى أثار غضب فيليب ، فبادر بالرحيل عن الأراضى المقدسة ، وسيكون هذا الخلاف سببا فى الحرب بين الدولتين فيما بعد .

ونتيجة لهذا الخلاف عمل كنراد لصلاح الدين ، وتحالف معه

حتى يعارض به أطماع ملك الانكتار الذى كان يسعى للانفراد بملك الأراضى المقدسة، وأدى هذا التصرف من جانبه الى اغتياله بتحريض من ريتشارد، ووضحت بذلك نوايا ريتشارد فى السيطرة على صور بعد قتل كنراد،، فقلد هنرى دى شامبين (الكندهرى) على ولاية صور، ثم عوض ريتشارد جى دى لوزنيان عن حقه فى مملكة بيت المقدس باعطائه قبرص التى كان قد باعها للداوية بعد قدومه لحصار عكا، على أن يسدد جى الأموال التى تسلمها ريتشارد من الداوية .

واعتزم ريتشارد أن يستولى على مدن الساحل الجنوبى من بلاد الشام، فزحف بقوات كثيفة العدد جهة الجنوب ، ولكن صلاح الدين اضطر أمام ذلك الى تهديم الحصون الساحلية وتخريبها مثل حصن الرملة وحصون عسقلان، ثم رأى صلاح الدين أن الدفاع عن بيت المقدس الهدف الرئيسى للصليبيين أهم وأجدى من الدفاع عن سواحل فلسطين ، فترك الساحل واتخذ خطا دفاعيا فى جوف البلاد، وسار الى بيت المقدس حيث بدأ فى تحصين المدينة وتعمير أسوارها وحفر خنادقها، وشارك صلاح الدين فى هذه الأعمال أولاده وعساكره وقضاته والصوفيه الزهاد [1] .

وكان ريتشارد فى هذه الآونة قد استولى على أرسوف فى شعبان ٥٨٧ (سبتمبر ١١٩١م) بعد أن أوقع بالمسلمين هزيمة نكراء، فانسحبوا الى الداخل للدفاع عن بيت المقدس بعد أن خربوا عسقلان

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ص ٣٦٩ – أبو شامة ، الروضتين ،ج٢ ص ١٩١ ، ١٩٢

والقلاع الساحلية، وتقدم ريتشارد جنوبا فألفى القلاع كلها مخربة، واشتبك مع المسلمين فى يافا، فقاوموه مقاومة ضارية حتى كاد يقع أسيرا، وافتداه بعض أجناده بنفسه، فتخلص الملك وأسر ذلك الرجل [1]، ثم تابع ريتشارد سيره جنوبا حتى قارب الحدود المصرية قبل أن يتجه الى بيت المقدس حتى يقطع طريق الاتصال بين مصر والشام. وبينما كان يتأهب للسير الى الرملة ومنها الى بيت المقدس بلغته أنباء سيئة من بلاده بأن أخاه كان يسعى الى اغتصاب المملكة أثناء غيابه بتحريض من فيليب ملك فرنسا. وكان المسلمون قد أخذوا يستعدون للقاء الفرنج بعد أن استعادوا قواهم، وأحرزوا فعلا بعض الانتصارات. فأدرك ريتشارد أخيرا أنه لايمكنه أن ينتصر على قوم داخل بلادهم، تتجدد قواهم دائما، فبدأ يفاوض المسلمين للصلح، وتخللت المفاوضات مجاملات كثيرة وهدايا متبادلة بين الطرفين، كما نشأ نوع من العلاقات الودية بين العادل أخي صلاح الدين وريتشارد الى حد أن ريتشارد طلب من العادل مرة أن يسمعه غناء المسلمين، فاستقدم العادل له مغنية تضرب بالجنك فغنت له، فاستحسن ذلك [2] وكان العادل يبدى اعجابه بشجاعة ريتشارد فى قتاله مع المسلمين ولما ابداه من ضروب البسالة والاقدام والحيلة والجلد. كذلك عرض ريتشارد على العادل أن يزوجه من أخته جان أرملة وليم ملك صقلية على أن يقيم فى بيت المقدس ويكون القدس وما بأيدى المسلمين من بلاد

(١) ابن الأثير، ج١٢ ص ٧٢.
(٢) ابن الأثير، نفس المصدر، ص ٧٣.

الساحل له ، وتكون عكا وما بأيدى الفرنج من البلاد لأخت ريتشارد مضافا الى مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها، فعرض العادل ذلك المشروع على صلاح الدين فوافق عليه، ولكن القساوسة والأساقفة والرهبان انكروا عليها وعلى ريتشارد ذلك، فاضطر الى الاعتذار لصلاح الدين. وفى أثناء اجتماع ريتشارد وصلاح الدين لعقد الصلح أبدى ريتشارد رغبته فى تقسيم البلاد الشامية بينه وبين المسلمين باستثناء القدس، ولكن صلاح الدين رفض هذا العرض، واقترح هو بدوره على ريتشارد أن يحتفظ ريتشارد بما فى حوزته من بلاد على شرط أن يتنازل عن يافا وعسقلان. ولكن المفاوضات لم تلبث أن توقفت . وحاول ريتشارد الاستيلاء على بيت المقدس، ولكنها استعصت عليه لمناعتها، فاضطر الى العودة للتفاوض جديا مع صلاح الدين بعد أن ضاق أتباعه من طول الاقامة فى الشام. وفى أثناء المفاوضات تمكن المسلمون من الاستيلاء على يافا، وكان ريتشارد قد خرج فى قواته متجها الى بيروت، فلما بلغه الخبر عاد من فوره وأبدى شجاعة فائقة فى استردادها. وعاد صلاح الدين الى الرملة. وفى هذه الأثناء مرض ريتشارد فأرسل الى صلاح الدين يطلب فاكهة وثلجا، فأرسلها اليه صلاح الدين تقديرا لشجاعته. وبعد أن أبل من مرضه عاد يبدى رغبته فى عقد الصلح [1] . وتم عقد الصلح فى العشرين من شعبان سنة ٥٨٨ (١ سبتمبر ١١٩٣م) بين الفرنج والمسلمين لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر، وهو الصلح المعروف بصلح الرملة وبه

(١) كانت قد طالت غيبة ريتشارد عن بلاده واشتد به القلق بعد أن بلغته أنباء مزعجة عن اغتصاب أخيه للعرش .

اختتمت الحملة الصليبية الثالثة ، وحلف عليه أمراء الفرنج والكندهرى والعادل وولدا صلاح الدين، ودخل فى الصلح أمير طرابلس وأنطاكية وفيما يلى أهم شروطه :

١- أن يحتفظ كل فريق بما فى يده على أن تخرب عسقلان التى كان قد حصنها ريتشارد وتبقى فى أيدى المسلمين أرضا منزوعة السلاح .

٢- أن يحتفظ الفرنج بمنطقة الساحل ما بين عكا ويافا. بينما يكون للمسلمين ما بين صيدا وجبيل .

٣- أن يسمح المسلمين لحجاج النصارى بزيارة بيت المقدس .

وبعقد صلح الرملة يبدأ عهد جديد من العلاقات الطيبة بين المسلمين والفرنج ، فاختلط العسكر واختلطت التجارة، ودخل الحجاج النصارى القدس وزاروا كنيسة القيامة العظمى، ثم عاد ريتشارد الى بلاده. وأما الكندهرى فقد أقام بالساحل الشامى والمدن التى دخلت فى الصلح ملكا على الفرنج، وأما صلاح الدين فقد سار الى بيت المقدس بعد عقد الصلح وأمر باحكام بنيان سورها ، وأقام المدرسة والرباط والبيمارستان وغير ذلك من مصالح المسلمين. ثم رحل فى ٥ شوال نحو دمشق مارا بنابلس وطبرية وصفد وتبنين وبيروت، وتعهد فى رحلته هذه البلاد بالاصلاحات ،وفى بيروت زاره بوهمند صاحب أنطاكية، فخلع عليه صلاح الدين ، وصرفه الى بلده. أما هو فقد تابع رحلته الى دمشق ، فوصلها فى ٢٥ من شوال بعد طول غيبة (نحو أربع سنوات) فاستقبله أهلها استقبال الأبطال ، وأقام بها شهورا للراحة

بعد سنوات طويلة من الجهاد، ثم مرض مرضا حادا استمر ثمانية أيام في صفر سنة ٥٨٩ وتوفي في ٢٧ منه (٤ مارس ١١٩٣م) وعمره ٥٧ سنة .

(٦)

الدولة الأيوبية بعد وفاة الناصر صلاح الدين

١- الأوضاع السياسية في مصر والشام بعد صلاح الدين :

أهم ما يميز تاريخ الايوبيين بعد صلاح الدين هو النزاع الطويل والمتواصل بين افراد هذا البيت، فقد آلت أهم أقاليم الدولة بعد وفاته الى أولاده. فملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين جنوبي الشام ، ويشتمل ملكه على دمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين حتى الداروم، وملك العزيز عثمان مصر واستقر ملكه بها، واستولى الظاهر غازي على حلب وجميع أعمالها مثل حارم وتل باشر واعزاز وبرزيه ودربساك ومنبج. أما بقية الاقاليم فتوزعت بين العادل أخي صلاح الدين وبين أبناء أخوته، فملك العادل الكرك وشمالي الجزيرة، وتولى مملكة حماة المظفر ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر ، وتولى حمص الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه، وتولى بعلبك الملك الأمجد بهرام شاه بن عز الدين فرخشاه . غير أن عوامل المنافسة لم تلبث أن عكرت العلاقات بين أبناء البيت الواحد، فاستغل العادل هذه المنافسة لصالحه، ولم تمض سنوات قليلة حتى أزاح من طريقه الملوك من بيت صلاح الدين فيما عدا الملك الظاهر غازي صاحب حلب،

وأصبح هو الحاكم الوحيد للدولة الايوبية فى مصر والشام التى كان يحكمها أخوه صلاح الدين من قبل . وقد حاول العادل أن يبرر فعلته باقرار مبدأ خطير يمس نظام الحكم الاساسى فى الدولة، فقال مخاطبا أمراء الدولة مبررا خلعه للسلطان الأيوبى الصغير الملك المنصور بن الملك العزيز عثمان (١) : « انه قبيح بى أن أكون أتابك صبى. مع الشيخوخة والتقدم، والملك ليس هو بالارث وانما هو لمن غلب، وانه كان يجب أن أكون بعد أخى الملك الناصر صلاح الدين، غير أنى تركت ذلك اكراما لأخى ، ورعاية لحقه. فلما كان من الاختلاف ماقد علمتم، خفت أن يخرج الملك عن يدى ويد أولاد أخى . قطعت الأمر من آخره، فما رأيت الحال ينصلح الا بقيامى فيه، ونهوضى بأعبائه ، فلما ملكت هذه البلاد وطنت نفسى على أتابكية هذا الصبى حتى يبلغ أشده. فرأيت العصبيات باقية والفتن غير زائلة، فلم آمن أن يطرأ على الملك الأفضل، ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبون اقامة انسان آخر، وما يعلم ما يكون عاقبة ذلك، والرأى أن يمضى هذا الصبى الى الكتاب وأقيم له من يؤدبه ويعلمه، فاذا تأهل وبلغ أشده، نظرت فى أمره ، وقمت بمصالحه » (٢) . وكان من الممكن أن يفهم قول العادل على أنه مناداة بمبدأ جديد من مبادىء السيادة، يعارض نظام الحكم الوراثى لو أنه كان يعنى مايقول حقا، ولكننا نلاحظ أنه لم يناد بهذا الرأى الا لخدمة مصالحه الخاصة ، بدليل أنه جعل الحكم وراثيا من

(١) كان العزيز عثمان قد توفى شابا وعمره لايتجاوز ٢٧ سنة ، ولد بالقاهرة فى سنة ٥٦٧هـ ، وتوفى فى ٥٩٥ فى العشرين من المحرم بسبب سقوطه من جواده فى أثناء خروجه للصيد ، فحمل الى قصره محموما ثم مات .

(٢) المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

بعده فى أبنائه ، فتولى ابنه الكامل محمد ملك مصر، وولى ابنه المعظم عيسى ملك دمشق، وابنه الأشرف موسى ملك الجزيرة .

والظاهرة الثانية التى تميز تاريخ الأيوبيين بعد صلاح الدين هو موقفهم من الصليبيين ، فقد كان هدف الحملات الصليبية التالية القضاء على الدولة الايوبية فى مصر باعتبارها مركز النضال والتصدى ، ومع أن سلاطين بنى أيوب قد بذلوا جهدا كبيرا فى مقاومة الفرنج، لكننا نلاحظ أن معظم هؤلاء السلاطين جنحوا الى مسالمة الصليبيين والى اصطناع السياسة فى علاقاتهم معهم كلما أمكن ذلك ، وكانوا يستهدفون من وراء تساهلهم بعض الشيء فى مصالحهم بالشام حماية ملكهم فى مصر [1] ، ومنع الصليبيين من التفكير فى الاغارة عليها، ومع أنهم نجحوا فى هذه السياسة بعض النجاح فان هذا لم يحل بين الحملات الصليبية وبين تطورها الطبيعى الذى انتهى بها الى التحول من الشام الى مصر .

ب - الحملات الصليبية بعد صلاح الدين :

١- حملة هنري السادس الصليبية وفشلها :

مات صلاح الدين والهدنة قائمة بين المسلمين والصليبيين اذ كانت مدتها تنتهى فى ٥٩٢هـ (١١٩٥م)، فجددها الملك العزيز

(١) من مظاهر هذا التساهل استيلاء الصليبيين على جبيل سنة ٥٩٠هـ (ابن واصل ، ج ٣ ص ٢٦ - السلوك ، ج١ ص ١١٦) وعلى بيروت وقلعتها فى سنة٥٩٤هـ (ابن واصل ج٣ ص ٧٤)، واقدام الفرنج على الاغارة من حصنى الاكراد والمرقب على حصن بعرين .

عثمان بن صلاح الدين سنة أخرى تنتهي في منتصف سنة ٥٩٣هـ .
وفي هذه الآونة دعا البابا أنوسنت الثالث الى حملة صليبية جديدة، فلم يلب الدعوة سوى هنرى السادس ملك ألمانيا، وذلك لأن انجلترا وفرنسا كانتا منصرفتين الى الحرب القائمة بينهما. وبدأت هذه الحملة رحلتها من شواطىء ايطاليا، ووصلت عكا في أواخر سنة ٥٩٤ (١١٩٧) . ولم يرحب هنرى دى شامبين ملك بيت المقدس بهذه الحملة فقامت بين الوافدين من الفرنج والمقيمين منهم أسباب النزاع مما ساعد المسلمين على الانتصار عليهم. ثم وصلت الأنباء بوفاة هنرى السادس ، فعادت الحملة بعد أن منيت بالفشل .

٢- الحملة الصليبية الرابعة (٥٩٨هـ -٦٠١هـ / ١٢٠٢- ١٢٠٤م) :

لم يصل من هذه الحملة الى الشام الا أفراد قلائل ، اذ أن معظم من اشترك فيها اتجهوا الى القسطنطينية واستولوا عليها وأسسوا فيها دولة لاتينية . وتفصيل ذلك أن فشل الحملة السابقة أثار غضب البابا انوسنت الثالث ،.فدعا من جديد الى حملة صليبية ، ووجه دعوته الى فرنسا وانجلترا وألمانيا، فاستجاب لهذه الدعوة عدد كبير من سكان هذه الدول، واجتمعوا في ايطاليا استعدادا للابحار الى الشرق، واتفق زعماء الحملة مع جمهورية البندقية على أن تنقل عسكر الفرنج المشاركين في هذه الحملة على سفنها مقابل مبلغ كبير من المال، وعند الشروع في الابحار لم يستطع زعماء الحملة جمع المال المطلوب كله، فاستغل دوج البندقية هنرى دندولو هذا الموقف لصالحه، واستعان

بقوات الحملة فى الاستيلاء على مدينة زارا الخارجة عليه، والتى كانت تتمتع أنذاك بحماية ملك المجر، وذلك فى مقابل اعفاء الحملة من دفع رسوم نقلهم على سفنه ، وفى ذلك الوقت نشب نزاع شديد على العرش بين أفراد الأسرة الحاكمة فى القسطنطينية، ووصل واحد من أفراد هذه الأسرة المتنازعين الى الغرب ليستعين بأى قوة هناك لتعيده الى العرش، فانتهز دندولو الفرصة للمرة الثانية ، وكانت بين القسطنطينية وبين البندقية منافسات سياسية وتجارية شديدة. فخرج دندولو لقيادة الحملة بنفسه، غير أنه لم يتول هو تحويل الحملة من وجهتها الأولى وهى مصر والشرق الادنى الاسلامى الى وجهتها الجديدة القسطنطينية، وانما استغل مهارته لدفع قواد الحملة الى الاقدام على هذا التحول، واكتفى هو بأن يعمل من وراء الستار. وقد دفع دندولو الى هذا التصرف عوامل كثيرة أهمها ما كان بين البندقية وبيزنطة من منافسات سياسية وتجارية كما أشرنا اليه، ومنها أيضا أنه كان يخشى على مصالح البندقية التجارية مع مصر أن تتعرض للخطر لو أن هذه الحملة اتجهت الى مصر. ومضت الحملة الى القسطنطينية ونجحت فى السيطرة عليها بعد أن فر منها الامبراطور المغتصب، وقامت بها منذ ذلك الحين دولة لاتينية [1] ، وكان لتحول هذه الحملة عن مصر والشام نتائج خطيرة أخرى ، فقد اجتذبت الدولة اللاتينية الجديدة كثيرا من العناصر الصليبية التى كانت تتجه من قبل الى الشرق الادنى الاسلامى، بل أن كثيرا من صليبى الشام رحلوا الى القسطنطينية

(١) عن تفاصيل هذه الحملة ونتائجها ارجع الى ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج١٢ ص ١٩٠ وما يليها .

وبلاد اليونان بعد قيام هذه الدولة مما دفع ملك بيت المقدس الى تجديد الهدنة مع الملك العادل أبى بكر سنة ٦٠٧هـ (١٢١٠م) .

ويذكر بعض المؤرخين أن سياسة الملك العادل الحكيمة كان لها أثر كبير فى تحويل مسار هذه الحملة الرابعة عن مصر والشام الى القسطنطينية، وأنه أرسل الى البندقية فى ذلك الوقت سفارة تحمل الى رؤسائها بعض الهدايا ووعودا بأن يمنح تجارة البندقية مزايا استثنائية مقابل أن يستخدم الدوج نفوذه لابعاد الحملة عن مصر والشام. ومع أن فريقا آخر من المؤرخين يشك فى صحة هذا القول فان هناك من جهة أخرى ما يدعمها ويدعونا الى تصديقها، فالمعروف أن العادل كان حكيما فى تصرفاته، وعنه يقول المقريزى : « كان كثير السياسة، صاحب معرفة بدقائق الأمور، قد حنكته التجارب ، فسعدت آراؤه ، ونجحت تدبيراته، وكان لايرى محاربة أعدائه، ويستعمل فى مقاصده المكايد والخدع ، فهادنته الفرنج لقوة حزمه وشدة تيقظه وغزارة عقله وقوة كيده ومكره ومداومته على المخادعة والمخاتلة »[1] . لقد كان العادل بخلاف أخيه الناصر صلاح الدين يؤثر دائما استخدام الدبلوماسية الهادئة دون الحرب لحل المشكلات العويصة والتخلص منها، وكان قد عقد فى سنة ٦٠٤هـ ١٢٠٧م) معاهدة تجارية مع البنادقة منحهم فيها كثيرا من الامتيازات التجارية فى الاسكندرية وغيرها من ثغور مصر مقابل أن تتعهد البندقية بمنع أى حملة تريد الوصول الى مصر. ومع ذلك فقد ظلت الروح الصليبية أقوى من هذه السياسة

(١) المقريزى ، السلوك ، ج١ ص ١٩٤ .

السليمة، وكان البابا يصدر دائما الأوامر المشددة لمنع التجارة مع مصر، ويحرم أن تباع اليها بعض السلع الهامة التى تتعلق باعداد السلاح والمعدات العسكرية كالخشب والحديد .كما أن الدعوة الى الحرب الصليبية ظل لها تأثيرها وفعاليتها، وهذا يفسر الحملتين الكبريين اللتين وجهتا الى مصر فى عهد الكامل محمد والصالح نجم الدين أيوب وأعنى بهما حملة جان دى بريين وحملة لويس التاسع على دمياط ، وقد سبقت هاتين الحملتين حملة طريفة هى حملة الأطفال دعا اليها صبى من الرعاة ادعى أن المسيح أمره بقيادة حملة صليبية من الاطفال لانقاذ بيت المقدس ، واجتمع حوله عدد كبير من الأطفال بلغوا فيما يقال الثلاثين ألفا من مختلف الممالك، وكانوا خليطا من الصبية والفتيات فى حدود الثانية عشر من العمر، ووصل هذا الحشد من الأطفال الى السواحل الايطالية، وغرر بهم بعض التجار وأصحاب السفن، فحملوهم الى الثغور الاسلامية وباعوهم فى الاسكندرية وغيرها من ثغور الشام بيع الرقيق .

(٧)

حملة جان دى بريين على مصر أو الحملة الصليبية الخامسة

تسجل حملة جان دى بريين على دمياط وحملة لويس التاسع عليها اتجاها جديدا لمسار الحركة الصليبية الى مصر بدلا من الشام بهدف القضاء على الدولة الأيوبية فى مصر مصدر القوة والزعامة والنضال ، وحصن الاسلام الأمنع، ومصدر الخطر الذى يتهدد دوما قوى الصليبيين فى الشام، فبفضل امداداتها الوفيرة فى الرجال والسلاح والأقوات تمكن صلاح الدين أن ينتصر عليهم انتصاراته الحاسمة ويسترجع منهم بيت المقدس والكرك والشوبك وغيرها ، لذلك فكر الصليبيون أنه من الضرورى قبل التفرغ لاسترداد بيت المقدس الاستيلاء على مصر. وكان الشروع فى تنفيذ هذا التحول الجذرى فى الاستراتيجية الصليبية فى سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) [١] فى الوقت الذى كان الملك العادل أبو بكر مشتغلا فيه بمدافعة الفرنج فى الشام .

كان الملك العادل قد أناب عنه فى مصر ابنه الملك الكامل محمد، بينما انصرف هو لمحاربة الصليبيين فى الشام ، وكانوا قد نقضوا الصلح الذى كان قد تجدد فى سنة ٦١٠هـ (١٢١٢م) وعزموا

(١) تقرر فى مجمع اللاتران الذى عقده البابا انوسنت الثالث فى سنة ٦١٢هـ (١٢١٥م) ضرورة مهاجمة مصر، وفى نفس الوقت اتخذ الصليبيون قرارا بأن تكون دمياط هدفهم الرئيسى (انظر : رنسمان تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣ ص ٧٧ السيد الباز العرينى ، مصر فى عصر الايوبيين ، ص ١١٣) .

على استرداد بيت المقدس وسائر مدن الساحل ، فخرج العادل بعساكره من مصر فى سنة ٦١٤ الى اللد ، ولكنه عجز عن مواجهة الفرنج لقلة من كان معه من العسكر، فعاث الصليبيون فسادا فى أراضى المسلمين ، وهاجموا بيسان فانتهبوها وأذرعوا السيوف فى أهلها ونازلوا بانياس أياما [1] ، وكان الصليبيون قد اتخذوا عدتهم، بعد أن وصلتهم الامدادات الوفيرة من ممالك أوروبا لمهاجمة مصر، واحتشدت قوى الصليبيين فى عكا بقيادة جان دى برين ملك بيت المقدس، وخرجت الحملة فى أسطول ضخم يحمل عشرة آلاف فارس ومائتى ألف رجل [2] من الفرنج وكانت وجهتها مدينة دمياط، فأرست على بر جيزة دمياط [3] فى ٤ ربيع الأول سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) فأصبح النيل بينهم وبين البلد، ونزل الصليبيون هناك قبالة دمياط وحصنوا معسكرهم ، فحفروا حوله خندقا وأحاطوه بسور وستائر .

كانت دمياط مدينة حصينة للغاية، تدور بها الأسوار وتدعمها القلاع والأبراج الضخمة ، ويتقدم سورها خندق حفر فى أواخر عهد صلاح الدين. ويرجع الفضل الأعظم فى تحصين دمياط الى صلاح الدين، فهو الذى بنى أسوارها وهو الذى أمر بحفر خندقها، وقد حرص على زيارتها وتفقد أعمال التحصينات [4] ، وكان يتوسط مدخل دمياط

(١) المقريزى ، السلوك ، ج١ ص ١٨٧ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، ج١ ص ٢٠٢ .

(٣) يقصد به البر الغربى من دمياط وكان يعرف باسم جيزة دمياط لأنه كان يجاز اليه من دمياط وعرف أيضا بجزيرة دمياط وهى تسمية مجازية لأن مياه البحر تحيط به شمالا ومياه النيل تحيط به شرقا .

(٤) أبو شامة ، الروضتين ، ص ٦٨٩ ، ٦٩٠ .

من جهة البحر برج ضخم مقام فى وسط النيل كان مشحونا بالمقاتلة، يعرف ببرج السلسلة بسبب سلسلتين تمتدان منه ، احداهما تتجه على النيل الى دمياط على الضفة الشرقية، والأخرى تتجه الى البر الغربى المقابل لدمياط ، مهمتها منع المراكب الواصلة فى بحر الملح من عبور أرض مصر [1] .كان ذلك البرج مفتاح دمياط لايمكن للصليبيين الوصول اليها الا اذا استولوا عليه، ولهذا السبب ركزوا جهودهم كلها فى أول الأمر للاستيلاء على هذا البرج المنيع، واستعانوا فى سبيل ذلك ببناء ابراج خشبية عالية أقلوها على سفنهم وتقدموا بها الى البرج الاسلامى لمحاربة حاميته، ولكن عسكر المسلمين المتحصنين بالبرج تمكنوا أكثر من مرة من ردهم على أعقابهم، ولم يظفر الفرنج منه بشىء بل كسرت مرماتهم وآلاتهم، وعلى الرغم من ذلك فقد أقاموا على قتاله نحوا من أربعة شهور. ووصلت أخبار نزول الصليبيين بر دمياط الغربى الى الملك الكامل ، فخرج بمن معه من العسكر ، وسير الأسطول الى جنوبى دمياط، أما هو فقد نزل بقواته بالعادلية وهى مدينة كان قد أسسها العادل أبو بكر فى سنة ٦١٤هـ جنوبى دمياط على الضفة الشرقية للنيل وشحنها بالمقاتلة خوفا من مهاجمة الصليبيين لدمياط من جهة البحر. وفى نفس الوقت كان الملك العادل منذ أن بلغه خبر نزول الحملة الخامسة يرسل الامدادات تباعا من بلاد الشام، وظل المسلمون فى البرج يقاومون العدو بشجاعة نادرة مايقرب من أربعة أشهر كما أسلفنا القول الى أن أقام الفرنج برجا عاليا وأقاموه على

(١) المقريزى ، السلوك ، ج١ ص ١٨٨ وانظر ايضا ابن الأثير ، ج١٢ ، ص ٣١٢ .

بطسة كبيرة ، وأقلعوا بها حتى أسندوه اليه، وقاتلوا حاميته الاسلامية قتالا عنيفا انتهى باستيلائهم عليه. وكان لذلك آثار خطيرة ، فقد سهل عليهم الاستيلاء على المدينة بعد ذلك ، ويكفى للدلالة على خطورة استيلاء الفرنج على برج دمياط ما ذكره المقريزى بقوله « هذا والعادل بمرج الصفر، فبينا هو فى الاهتمام بأمر الفرنج، اذ ورد عليه الخبر بأخذ الفرنج برج السلسلة بدمياط، فتأوه تأوها شديدا، ودق بيده على صدره أسفا وحزنا ، ومرض من ساعته، فرحل من المرج الى عالقين (وهى قرية بظاهر دمشق) وقد اشتد مرضه ، فمات فى سابع جمادى الآخرة يوم الخميس ، فكتم أصحابه موته، وقالوا قد أشار الطبيب بعبور دمشق ليتداوى ، فحمل فى محفة، وعنده خادم، والطبيب راكب بجانب المحفة ، والشرابدار يصلح الأشربة، ويحملها الى الخادم ليشربها السلطان، يوهم الناس بذلك أنه حى الى أن دخل قلعة دمشق ، وصارت بها الخزائن والحرم وجميع البيوتات ، فأعلم بموته بعدما استولى ابنه الملك المعظم عيسى على جميع أمواله التى كانت معه وسائر رخته (متاعه) وثقله ، ودفنه بالقلعة [(1)] ».

وكان الملك الكامل محمد قد استقل بملك مصر بعد وفاة أبيه ، وتحمل العبء الثقيل الذى ألقى على عاتقه ، وكان الفرنج بعد استيلائهم على البرج قد حطموا السلسلتين المتصلين بالبرج لتمر سفنهم فى النيل ويتمكنوا بذلك من دخول دمياط، فاضطر الكامل

(1) المقريزى ، السلوك ، ج1 ص 190 .

لتعويقهم الى اقامة جسر من السفن فى عرض النيل، ولكنهم قاتلوا عليه قتالا شديدا حتى تمكنوا من قطعه واختراقه، فلما تحطم الجسر عمد الكامل الى حيلة أخيرة لوقف تقدم الفرنج، فأمر باغراق عدة سفن فى عرض النيل، ولكن الفرنج احتالوا على هذا الاجراء بحيلة ماكرة فقد كان على البرج الغربى خليج قديم يعرف بالخليج الأزرق كان يستمد مياهه من فرع دمياط عند بلدة بورة فى مواجهة منزلة العادلية، ثم طمرته الرمال، فأعاد الفرنج حفره، وأصعدوا فيه سفنهم حتى وصلت الى بورة المقابلة للعادلية حيث معسكر الكامل محمد، ودارت بين الفريقين معارك بحرية عنيفة استطاع المصريون خلالها من أسر سفينة فرنجية كبيرة ومصفحة بالحديد (١) . استمر الحال على هذا النحو بضعة أشهر كانت دمياط خلالها مدينة آمنة، سورها يحميها وأبوابها مفتوحة والامدادات والأقوات تصل اليها تبعا، والنيل مايزال يفصل بينها وبين العدو ، والعربان تقض مضاجع الصليبيين فتتخطفهم من معسكراتهم أثناء الليل بحيث دفعهم الخوف من المسلمين الى السهر والامتناع عن الرقاد (٢) . وكان فى امكان الكامل محمد وقواته الانتصار على العدو لو أن الأمور سارت الى مثل ماهى عليه، ولكن مؤآمرة دبرها أحد أمراء الكامل الاكراد الكبار هو عماد الدين أحمد بن المشطوب الذى انتهز فرصة وفاة العادل واستمال اليه عددا من قواد الجيش، وحاول خلع الكامل وتولية أخيه الفائز، وقد وفق الكامل الى اكتشاف

(١) ابن الأثير ، ج١٢ ص ٣٢٤ - المقريزى ، نفس المصدر، ج١ ص ١٩٥ .
(٢) السلوك ، ج١ ، ص ١٩٥ .

المؤامرة فى الوقت المناسب ، فخشى على نفسه وترك معسكره بالعادلية وانسحب أثناء الليل جنوبا الى بلدة أشموم طناح [1] ، وأصبح الجند بغير سلطان، فتفرقت كلمتهم وتركوا أثقالهم وخيامهم وأسلحتهم ولحقوا بالسلطان. فانتهز الفرنج هذه الفرصة وعبروا الى البر الشرقى فى ١٦ ذى القعدة دون مقاومة واستولوا على كل ما كان فى معسكر المسلمين من غنائم [2] ، وعسكروا فى البر الشرقى وحصنوا معسكرهم كالعادة، فحفروا حوله خندقا وبنوا سورا، وبدأوا يحاصرون دمياط نفسها فى البر والبحر، وضيقوا على أهلها، ومنعوا الأقوات من الوصول اليهم. وكانت حامية المدينة تتألف من ٢٠ ألف مقاتل، فلما طال عليهم الحصار أنهكتهم الأمراض وفتك بهم الجوع [3] ، وغلت الاسعار حتى بيع رطل السكر بمائة وأربعين دينارا، والدجاجة بثلاثين، وراوية الماء بأربعين درهما. وطال حصار الفرنج لدمياط حتى ٢٥ من شعبان سنة ٦١٦هـ بحيث عجز من بقى من أهلها عن مواصلة الحياة لتعذر القوت عندهم، واحتال السلطان الكامل على الاتصال بأهل دمياط لتشجيعهم وتقوية روحهم المعنوية، فانتدب لذلك عواما من رجاله يدعى شمايل كان يسبح فى الماء بعيدا عن أعين الفرنج حتى يصل الى أهل دمياط فيعدهم بقرب الفرج، كما كان يأتى السلطان بأخبار أهلها، فاذا دخل اليها قوى قلوب أهلها ووعدهم بقرب وصول

(١) هى بلدة أشمون الرمان الحالية بمركز دكرنس .
(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ١٩٧ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٠١ .
(٤) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ص ١٩٨ .

النجدات [1] ، ولهذا نال حظوة عند الكامل بعد ذلك، فجعله جانداره وولاه القاهرة .

وأخيرا تسور الفرنج المدينة واقتحموها فى ٢٥ شعبان سنة ٦١٦هـ (نوفمبر ١٢١٩م) ، فوضعوا السيف فى رقاب أهلها وأسرفوا فى القتل ، وحولوا جامع المدينة الى كنيسة ، وانبثوا فى القرى المحيطة بالمدينة، ثم حصنوا دمياط واتخذوها قاعدة يتقدمون منها نحو الجنوب. وعسكر الملك الكامل قبالة طلخا عند مخرج بحر أشموم طناح، وشرع الجند فى بناء الدور والحمامات والفنادق والاسواق فى هذه المنزلة التى سميت فيما بعد بالمنصورة تيمنا بانتصار الكامل .

وكان الكامل قد أرسل رسله بعد سقوط دمياط الى أخيه الملك المعظم عيسى والى سائر اخوته بالشام وأقاربه يسألهم العون، فوصلته الامدادات والنجدات سيرها أخوته وذووه من أمراء بنى أيوب بالشام بالاضافة الى من انضم اليهم من أهل القاهرة ومصر والصعيد والعربان، ووصل أخوه المعظم عيسى فى قوة كثيفة ،كما قدمت نجدة من حماة بقيادة المظفر الثانى ابن أخت الكامل، وظلت النجدات تصل تباعا حتى بلغ عدد فرسان المسلمين نحو ٤٠ ألف فارس قويت بهم قلوب المسلمين ، وبدأوا يستعدون للمعركة الحاسمة .

تقدم الصليبيون بعد تحصينهم لدمياط وبعد أن وصلتهم امدادات صليبية من عكا نحو الجنوب، ونزلوا قبالة جيش المسلمين شمالى بحر أشموم طناح بحيث أصبح لايفصل بين المعسكرين سوى هذا البحر،

ثم وقع الاشتباك، واشتد القتال بين الفريقين، وأبلى المسلمون بلاء حسنا، فاستولوا على ثمان سفن كبيرة من سفن الفرنج التى تحمل لهم الميرة من دمياط [1]، وأسروا منهم ألفين ومائتى رجل ثم ظفروا أيضا بثلاث قطائع. ثم احتال الكامل فأرسل سفنا من أسطوله بقيادة الأمير بدر الدين بن حسون فى بحر المحلة، وهو فرع كان يخرج من النيل قرب بنها حاليا ويتصل به ثانية شمالى المنصورة، فحالت هذه السفن بين مراكب الفرنج القادمة من الشمال تحمل الميرة، وبين الوصول الى معسكرهم عند المنصورة. ثم عبر جماعة من المسلمين فى بحر المحلة الى الأرض التى نصب عليها معسكر الفرنج، وحفروا موضعا كبير المساحة فى النيل، وكان النيل وقتئذ فى قوة الزيادة فركب الماء أكثر تلك الأرض وأغرقها وحال بين الفرنج وبين رجوعهم إلى دمياط، ولم تكن للفرنج معرفة بحال أرض مصر فانحصروا، ولم يبق أمامهم سوى طريق ضيقة واحدة عند بحر أشموم طناح، فأمر السلطان على الفور بنصب الجسور عند بحر أشموم طناح وأمكنه سدها، وعبرت العساكر الاسلامية عليها وملكت الطريق التى تسلكها الفرنج إلى دمياط، فانحصروا من سائر الجهات، وقدر الله سبحانه بوصول مرمة عظيمة فى البحر للفرنج وحولها عدة حراقات تحميها، وسائرها مشحونة بالميرة والسلاح وسائر مايحتاج اليه، فأوقع بها شوانى الاسلام، وكانت بينهما جرب أنزل الله فيها نصره على المسلمين، فظفروا بها وبما معها من الحراقات، ففت ذلك فى أعضاد الفرنج، وألقى فى

---

(١) يذكر المقريزى أنهم أخذوا من الفرنج ست شوانى وجلاسة وهى سفينة حربية ضخمة، وبطسة (المقريزى، ج١ ص ٢٠٣).

قلوبهم الرعب والذلة بعد ما كانوا فى غاية الاستظهار والعنت على المسلمين [1].

وكان الصليبيون قد عرضوا على الكامل قبل أن يحصرهم أن يتخلوا له عن دمياط فى مقابل أن تعاد اليهم القدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية والكرك والشوبك وغيرها من المدن الكثيرة التى كان قد استعادها منهم صلاح الدين ،وقبل الكامل أول الأمر أن يسلم لهم المدن باستثناء الكرك والشوبك لمكانتهما الحربية، ولكنهم أصروا على طلبهم، فلما أحاط بهم المسلمون من سائر الجهات أدركوا أنهم هزموا، ففكوا خيامهم وخربوا مجانيقهم وأشعلوا فيها النيران »، وعزموا على أن يحطموا حطمة واحدة، فلم يجدوا الى ذلك سبيلا لكثرة الوحل والمياه التى ركبت الأرض من حولهم، فعجزوا عن الاقامة لقلة الأزواد عندهم، ولأذوا الى طلب الصلح وبعثوا يسألون الملك الكامل– وأخويه الأشرف والمعظم– الأمان لأنفسهم، وأنهم يسلمون دمياط بغير عوض [2] أى بدون قيد أو شرط ، وبدأ الكامل يستشير أهله وأصحابه ، فأشار عليه البعض أن يواصل القتال حتى يتم له النصر النهائى ويبيدهم ، وأشار البعض الآخر أن يجيب الفرنج الى طلبهم. وغلب الرأى الأخر خوفا من أن يصل الى الفرنج مدد جديد فيستأنفون القتال. واتفق الفريقان على أن يقدم كل منهما رهائن عند الملك الكامل وعند ملكهم ، فأرسل الكامل ابنه الصالح نجم الدين أيوب،

(1) المقريزى ، السلوك . ج1، ص ٢٠٨.
(2) المقريزى ، نفس المصدر .

وكان له من العمر ١٥ سنة ومعه جماعة من خواصه، وبعث الفرنج بعشرين من ملوكهم رهناء ، منهم يوحنا صاحب عكا والمقصود به جان دى بريين نفسه قائد الحملة ، ومنهم نائب البابا وهو الكاردينال بلاجيو، وجلس الكامل مجلسا فخما لاستقبال هؤلاء الملوك الرهائن وحوله أخوته وأهل بيته، وخرج قسوس الفرنج ورهبانهم الى دمياط ليسلموها الى المسلمين، فتم ذلك فى ١٩ رجب ٦١٦هـ وعندئذ أطلق الفرنج الصالح نجم الدين ومن معه من الأمراء، كما أطلق الكامل رهائنه، واتفق الفريقان على عقد هدنه مدتها ٨ أعوام وعلى أن يطلق كل منهما من كان عنده من الأسرى .

ودخل الكامل دمياط وفى رفقته أخوته وقواده وعساكره، وكان يوم دخوله دمياط من الأيام الخالدة، وأرسلت البشائر باسترجاع دمياط على كل الاقطار الاسلامية ، وهكذا انسحب الصليبيون من دمياط بعد أن قضوا فيها وعلى شاطئها الغربى والشرقى ثلاث سنوات وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما. وتبارى الشعراء فى تمجيد هذا النصـــــر والاحتفال به، وكان أجمل ما قيل قصيدة للشاعر شرف الدين بن عنين نطالع فيها :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا × اذا جـــهـلت آباتنا والقنا اللدنا
غداة التقينا دون دمياط جحفلا × من الروم لايحـصى يقـينا ولا ظنا
تداعـوا بأنصـار الصليب وأقـبلت × جموع كأن الموج كان لهم سفنا
وأطمـعـهم فـينا غـرور فـأرقلوا × الينا سـراعـا بالجـهـاد فـأرقلنا
فـما برحت سـمر الرماح تنوشهم × بأطرافـهـا حـتى استـجاروا بنا منا
بدا المـوت من زرق الأسنة أحـمـرا × فـألقـوا بأيديهم الينا فـأحـسنا
ومـا برح الاحـسـان منا سـجيـة × نورثهـا من صـيـد آبائنا الابنا(١)

وغنت ست الفخر جارية الأشرف موسى بن العادل فى مجلس طرب حضره الكامل وأخواه المعظم عيسى والأشرف موســى على عودها فقالت :

ولما طغى فرعون عكـــا وقومه × وجاء الى مصر ليفسد فى الأرض
أتى نحوهم موسى وفى يده العصا × فأغرقهم فى اليم بعضا على بعض

ثم غنت جارية الكامل محمد :

أعباد عيسى ان عيسى وقومه × وموسى جميعا ينصرون محمدا

(١) طالع القصيدة كـاملة فى السلوك ، ج١ ص ٢١١ ، ابن واصل ، ج٤ ص ١٠٠ ومـا يليها .

(٨)

حملة فردريك الثانى على الشام (الحملة الصليبية السادسة)

انتهت حملة جان دى برين المعروفة بالحملة الصليبية الخامسة بالفشل الذريع، وعقدت بين الطرفين الصليبى والاسلامى هدنة لمدة ثمان سنوات، ولم تكن هذه الحملة آخر حملة يشهدها عصر الكامل محمد، فقد قدمت الى الشرق حملة أخرى فى أواخر عهده، وأخبار هذه الحملة طريفة لأنها تختلف عن الحملات الصليبية السابقة فى كل شيء، اذ كانت حملة سلمية لم يحمل فيها سلاح ولم ترق فيها دماء، وانما انتهت بالاتفاق السلمى، وعقد معاهدة ترضى الطرفين.

كان قائد هذه الحملة هو الامبراطور فردريك الثانى امبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وملك صقلية. وكان فردريك هذا قد فكر اجابة لدعوة البابا القيام بحملة صليبية الى الشرق، وبدأ بارسال بعض السفن القليلة التى وصلت الى دمياط متأخرة عقب الهدنة، فاحترمها، ولم تجدد الحرب [١]. ولكن البابا جريجورى التاسع ظل يحثه ويحرضه على القيام بحملة أخرى قوية، وفى سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) تزوج فردريك من ايزابيلا بنت جان دى برين وريثة المملكة الصليبية الرمزية، وتوفيت ايزابيلا بعد زواجها بثلاث سنوات، ولكن فردريك ظل يطالب

---

(١) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج١٣ ص ٣٣١

بمملكة بيت المقدس كارث لزوجته، ولهذا بدأ يفكر جديا فى الخروج على رأس حملة الى الشرق، وكان البابا طوال هذه السنوات يلح عليه فى الوفاء بوعده وفردريك يتباطأ ويسوف مما دفع البابا الى اصدار قرار بحرمان فردريك[1] ، وأخيرا خرج فردريك فى ٦٢٥هـ (١٢٢٨م) على رأس حملة عدتها ٦٠٠ فارس فقط مما يشير الى أنه لم يكن يعتزم محاربة المسلمين .

ولكى ندرك حقيقة هذه الحملة لابد أن نستعرض الوقائع السياسية فى مصر والشام أنذاك، ولابد أيضا أن نتعرف على شخصية الملكين الكامل محمد وفردريك الثانى. افتتح الأغالبة جزيرة صقلية فى القرن الثالث الهجرى وظلت تحت سيادتهم حتى آلت الى أملاك الدولة الفاطمية فى المغرب منذ سنة ٢٩٦هـ، وكان الاسلام وحضارته قد انتشرا فى هذة الجزيرة خلال العهدين الأغلبى والفاطمى، فأقيمت المساجد والقصور والقلاع والحصون وسائر المرافق العامة فى مختلف مدن الجزيرة وعلى الأخص فى مدينة بلرمه وسرقوسه. ولما تمكن النورمنديون من افتتاح صقلية فى سنة ٤٨٤هـ [2] لم يقضوا على مظاهر الحضارة الاسلامية فيها بل على الضد من ذلك كرموا العلماء المسلمين ، وقربوهم أليهم ، واستخدموهم فى البلاط وفى دواوين الحكم المختلفة، ويكفى دليلا على ذلك أن الملك روجار الثانى قرب

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب، الجزء الرابع، تحقيق د. سعيد عاشور، ود. حسنين ربيع، القاهرة ١٩٧٢، ص ٢٤٩.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج٢ ، بيروت ١٩٨١ ص ٦٧٥.

اليه الجغرافى العربى المشهور الشريف الادريسى وأدناه منه، وعمل على الافادة من معارفه الجغرافية، فحاول أن يرغبه فى البقاء بصقلية فى ظل رعايته، وطلب منه عمل صورة مجسمة للأرض، فوافق الادريسى على ذلك فألف لروجار كتابه المشهور «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق»، وامتدح الادريسى الملك روجار فى مقدمة هذا الكتاب بقوله: «فان أفضل ماعنى به الناظر، واستعمل فيه الأفكار والخواطر، ماسبق الملك المعظم رجار المعتز بالله، المقتدر بقدرته، ملك صقلية وايطالية وأنكبردة وقلورية، أمام رومية، الناصر للملة النصرانية»، ويصف أخلاقه ومزاياه بقوله: «ثم جمع الى كرم الأخلاق طيب الأعراق، والى جميل الفعال حسن الخلال مع شجاعة النفس، وصفاء الذهن، وغور العقل، ووفور الحلم، وسداد الرأى والتدبير، والمعرفة بتصاريف الأمور.. وأما معرفته بالعلوم الرياضيات والعلميات فلا تدرك بحد ولاتحصر بحد لكونه قد أخذ من كل فن منها بالحظ الأوفر وضرب بالقدح المعلى»[1]. ومما يدل على انتشار الحضارة الاسلامية وازدهارها فى جزيرة صقلية فى العصر النورمندى أن معظم ملوك النورمنديين وفى مقدمتهم فردريك الثانى كانوا يتكلمون بالعربية، ويؤثرون الطرز الاسلامية فى فنون البناء والزخرفة، وكانت قد توثقت بين فردريك الثانى والكامل

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، التأريخ والمؤرخون العرب، الاسكندرية ١٩٨٧ ص ٢٠٧، انظر حسين مؤنس الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد، المجلد ١٠، ص ٢٥٧ ومايليها. ويصفه المقريزى بقوله «وكان هذا الملك عالما متبحرا فى علم الهندسة والحساب والرياضيات».
(المقريزى، السلوك، ج١ ص ٢٣٢).

محمد علاقات ودية [1] فى عصر اشتد فيه العداء بين ملوك المسيحية والاسلام، وازدادت الحركة الصليبية عنفا، غير أن شخصية الملكين وما كان يحيط بهما من ظروف كان لها أعظم الأثر فى توثيق هذه العلاقات الودية . وكان الكامل محمد باعتراف المؤرخين العرب يحب أهل العلم، ويؤثر مجالستهم، وشغف بسماع الحديث النبوى، وحدث بالاجازة من أبى محمد بن برى، وأبى القاسم البوصيرى وعدة من المصريين وغيرهم، وتقدم عنده أبو الخطاب بن دحية وبنى له دار الحديث الكاملية بالقاهرة وجعل عليها أوقافا، وكان يناظر العلماء، وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها ، فمن أجاب عنها قدمه وحظى عنده .. فنفقت العلوم والآداب عنده ، وقصده أرباب الفضائل » [2]. ويصفه المقريزى بأنه «كان مهيبا حازما سديد الرأى حسن التدبير لممالكه، عفيفا عن الدماء» [3]، وكان له فى كل ليلة جمعة مجلس لأهل العلم عنده ويجلس معهم للمباحثة » [4].

لقد كان الكامل محمد وفردريك الثانى بشخصيتهما ،وعقليتهما المتفتحتين ، وثقافتهما الواسعة ، يسبقان العصر الذى عاشا فيه،

(١) ذكر المقريزى أن فردريك الثانى بعث الى الملك الكامل بعدة مسائل مشكلة فى الهندسة والحكمة والرياضة فعرضها على الشيخ علم الدين قيصر الحنفى المعروف بتعاسيف وغيره، فكتب جوابها
وانظر أيضا ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٤ ص ٢٤٢.
(٢) المقريزى ، السلوك. ج١ ص ٢٥٩- ابن واصل ،ج٥ ص ١٥٨.
(٣) المقريزى ، السلوك، ج١ ص ٢٥٩ - ابن واصل ، مفرج الكروب ،ج٥ ، ص١٥٦
(٤) نفس المصدر ، ص ٢٦٠ .

فالعصر كان عصر تزمت دينى وحروب متواصلة، بينما كان كل منهما مثلا أعلى للحاكم المثقف الذى يعنى بالاصلاح بحرية الفكر وانشاء المدارس أكثر من العناية بالقتال، وسفك الدماء ، وكان كل منهما لايلجأ الى السيف اذا استطاع أن يحل مشاكله بالسياسة والحلول السلمية.

وحدث فى سنة ٦٢٤هـ أن ساءت العلاقات بين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبين أخويه الملك الكامل محمد والملك الأشرف موسى ، فاتصل المعظم بجلال الدين منكبرتى سلطان الدولة الخوارزمية ، ووثق علاقته به ليستعين بالخوارزمية اذا ما هاجمه أخوه الملك الكامل صاحب مصر، ولهذا سعى الملك الكامل من جانبه لعقد صلات ودية مع فردريك الثانى، وطلب منه الحضور الى الشام ليسلمه بيت المقدس. ووصلت هذه الدعوة فى وقتها، فقد كان فردريك كما سبق أن رأينا يرى نفسه صاحب الحق الشرعى فى مملكة بيت المقدس، كما كان يهدف الى ارضاء البابا ليلغى قرار الحرمان الذى أصدره ضده، فالملك الكامل كان بحكم كراهيته للحب وجنوحه الى الحلول السلمية مضطرا الى استدعاء فردريك لاسيما بعد أن تحالف أخوه عيسى مع الخوارزمية، مما يشكل تهديدا مباشرا له، ولم يكن الكامل قد نسى بعد ما لاقاه من معاناة أثناء احتلال الفرنج فى حملتهم الخامسة لدمياط من متاعب، كما أنه لم ينس أنه انما تغلب على الفرنج واسترد دمياط بفضل معاونة أخويه له ، وبوجه خاص

معاونة المعظم عيسى. أما الآن فقد خرج عليه أخوه المعظم وأصبح يتهدده، وهكذا لم يكن أمامه سوى السعي لكسب ود فردريك والاستعانة به للتصدى للمعظم عيسى وحلفائه الخوارزمية. ولما تأكدت الوحشة بين الكامل وبين أخويه الأشرف موسى والمعظم عيسى ، أرسل الكامل الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه الى الملك فردريك الثانى يطلب منه أن يقدم الى عكا ،ووعده بأن يتنازل له عن بعض مابيد المسلمين من بلاد الساحل والقدس، ليشغل بوجوده أخاه المعظم، ويتفادى الحرب معه، فتجهز الامبراطور للسير الى عكا، فوصلها فى بداية عام ٦٢٥هـ [١] . واتفق وصوله بعد وفاة الملك المعظم عيسى الذى توفى فى ذى القعدة سنة ٦٢٤ بدمشق ودفن فى قلعتها [٢]، فاضطر الكامل محمد الى ملاطفته وموادعته، وسفر بينهما الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ والشريف

---

(١) يؤكد ذلك المقريزى فى السلوك ج١ ص ٢٢٨، ولكن الدكتور محمد مصطفى زيادة يذكر فى هامش ٣ ص ٢٢١ من هذا الكتاب أن الامبراطور فردريك وصل عكا فى شوال سنة ٦٢٤ سبتمبر ١١٢٧م) استناد الى Stevenson وأن فخر الدين بن شيخ الشيوخ وصل اليه وهو فى عكا سفيرا من عند الكامل ، ولكن المقريزى ينص صراحة على أن فخر الدين رحل الى فردريك يريد منه أن يقدم الى عكا وهذا يعنى أن فردريك لم يكن قد وصل عكا بعد .
وفى موضع آخر (ص ٢٢٨ من السلوك ج١) يذكر المقريزى أنه فى سنة ٦٢٥ قدم الامبراطور ملك الفرنج الى عكا باستدعاء الملك الكامل له، كما تقدم، ليشغل عن أخيه المعظم. وهذا النص يؤكد أن السفارة الأيوبية الى فردريك سبقت وصوله الى عكا، وانه قدم استجابة لدعوة الكامل، ونستند ايضا على ابن واصل الذى يذكر فى حوادث سنة ٦٢٤ أن الكامل أرسل الأمير فخر الدين الى الامبراطور فردريك صاحب بلاد أنبولية وجزيرة صقلية يطلب منه القدوم الى عكا (ابن واصل، ج٤ ص ٢٠٦) .
(٢) المقريزى ، السلوك ، ج١ ص ٢٢٤
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٤٠

شمس الدين الأرموى قاضى العسكر [٣]. وجرت بين فردريك وبين كل من فخر الدين وشمس الدين محادثات جدلية علمية ومحاورات فلسفية روى ابن واصل بعضا منها [١]. وفى نهاية المفاوضات التى جرت بين الكامل وفردريك تقرر بينهما أن يسلم اليه الكامل القدس بشرط أن يبقى خرابا ولايجدد فردريك سوره ، وأن لايكون للفرنج شيء من ظاهر القدس اطلاقا، بل تظل قرى القدس تابعة للمسلمين، وأن يظل الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى في أيدى المسلمين وشعار المسلمين فيه ظاهر، ولايدخل القدس من الفرنج الا من قدم للزيارة فقط، واشترط فردريك أن تعطى للفرنج بعض القرى فى الطريق من عكا الى القدس [٢] خوفا من أن يتعرض القادمون من عكا لزيارة القدس للقتل [٣]. ثم حلف السلطان الملك الكامل على ماوقع الاتفاق عليه، وحلف الامبراطور (الأنبرطور) وجددا عقد الهدنة بمدة معلومة .

وكان من الطبيعى أن تثير هذه المعاهدة عوامل السخط على كل من الطرفين ، لأنها لاتمثل روح العصر، ولكنها تعبر عن عقلية متفتحة تميز بها كل من الكامل وفردريك. فقد ثار المسيحيون والفرنج على

---

(١) ابن واصل، ج٤ ص ٢٤٢، وما يليها

(٢) هي بيت لحم والناصرة والقرى الواقعة فى طريق الحاج المسيحى .

(٣) تعهد فردريك بمحالفة الكامل ضد جميع اعدائه مسيحيين ومسلمين على السواء ، وأن يضمن عدم وصول امدادات صليبية الى امارتى أنطاكية وطرابلس ، واتفق الطرفان على أن تسرى هذه المعاهدة لمدة عشر سنوات

فردريك لأنهم كانوا لايرغبون فى مسالمة المسلمين ،كما غضب المسلمون لأن الأمر يتعلق ببيت المقدس التى كان صلاح الدين قد كافح مر الكفاح فى سبيل استرجاعها والحفاظ عليها، فساء المسلمين أن يتخلى عنها الكامل دون حرب أو قتال ، ويذكر ابن واصل أن والده حكى له « أنه لما نودى بالقدس بخروج المسلمين وتسليم القدس الى الفرنج وقع فى أهل القدس الضجيج والبكاء وعظم ذلك على المسلمين ، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم ، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه ، اذ كان فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من الكفار من أعظم مآثر عمه الملك الناصر صلاح الدين قدس الله روحه » (١) . وفى موضع آخر يقول ابن واصل :« لما ورد الخبر الى دمشق بتسليم القدس الى الفرنج أخذ الملك الناصر داود فى التشنيع على عمه الملك الكامل، وتقدم الى الشيخ شمس الدين يوسف سبط الشيخ جمال الدين بن الجوزى الواعظ ، وكان له قبول عند الناس فى الوعظ، فى أن يجلس بجامع دمشق للوعظ، ويذكر فضائل القدس وما ورد فيه من الأخبار والآثار ، وأن يحزن الناس ويذكر ما فى تسليمه الى الكفار من الصغار للمسلمين والعار ، وقصد بذلك أن تتغير الناس من عمه ليناصحوه فى قتاله ، فجلس شمس الدين للوعظ كما أمره، وحضر الناس لاستماع وعظه، وكان يوما مشهودا، وعلا يومئذ ضجيج الناس وبكاؤهم

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٤ ص ٢٤٣

وعويلهم [١] .

وأياما كان الأمر فانه لما تم عقد المعاهدة استأذن الامبراطور فردريك السلطان الملك الكامل فى زيارة القدس، فأذن له، وأمر السلطان القاضى شمس الدين قاضى نابلس بملازمة الامبراطور وخدمته الى أن يزور القدس ويعود الى عكا [٢] .

ثم أقلع الامبراطور راجعا الى بلاده، واستمر مصافيا للملك الكامل ، مواد له والمراسلة بينهما متصلة الى أن توفى الملك الكامل بعد تسع سنوات من معاهدة الصلح مع فردريك .

---

(١) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥

(٩)

عهد الصالح نجم الدين أيوب وولده الملك المعظم توران شاه

توفى الملك الكامل محمد فى ٢٢ من رجب سنة ٦٣٥ بعد مرض قصير لم يمهله فتوفى فى اليوم الثانى ودفن بدمشق ، وخلفه على مصر ولده الصغير العادل أبو بكر، الذى كان يتولى أنذاك نيابة عن أبيه بقلعة الجبل. وكان العادل حدثا طائشا مجردا من الصفات التى كان يتميز بها أبوه ، فكان يشتغل باللهو عن مصالح الدولة، ويقبل على الخمر، وأكثر من تقديم الصبيان والمساخر(المضحكين) وأهل اللهو [١] ، وانغمس فى المباذل وضروب الفساد ، وأساء السيرة حتى كرهه الناس ، ومهد ذلك لخلعه. وكان أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب حصن كيفا يحاصر الرحبة (وتقع على نهر الفرات على مقربة من الرقة) عندما بلغه وفاة أبيه الكامل محمد، وعز عليه أن يتولى مصر أخوه الصغير، فلم يعترف به سلطانا على مصر، وكذلك لم يعترف به الناصر صلاح الدين يوسف أمير حلب، كذلك كان الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى بن العادل أبى بكر صاحب الكرك يعمل من جانبه للظفر بسلطنة مصر. وحدث أن الملك الجواد أحد أحفاد العادل أبى بكر ، وكان يتولى حكم دمشق ، عرض على الصالح

(١) السلوك ، ج١ قسم ٢ ، ص ٢٩٤ .

نجم الدين أن يتنازل له عن دمشق مقابل الحصول على سنجار وبعض المدن المجاورة لها. ومنذ ذلك الحين أخذت نوايا الصالح نجم الدين في سلطنة مصر تظهر، فترك مقره في حصن كيفا لابنه تورانشاه وسار في عسكر الموصل الى دمشق، وهناك أخذ يدبر الخطط لبث الشقاق والفرقة في صفوف جيش أخيه العادل الثاني، ونجح في اجتذاب عدد كبير من الامراء المصريين المتمردين على الأوضاع في مصر، فانتهز الصالح نجم الدين هذه الفرصة وزحف بجيش من ٦ آلاف فارس نحو مصر لينتزعها من العادل، وشجعه على قصدها أن أمراء المماليك في مصر كتبوا اليه يعدونه بالمساعدة، كما شجعه الناصر داود صاحب الكرك مقابل أن يتنازل له عن دمشق. فلما رفض الصالح طلبه توجه الناصر داود الى مصر وانحاز الى العادل. أما الصالح نجم الدين فقد تحرج موقفه بعد أن انتهز أمير بعلبك وأمير حمص فرصة خروجه من دمشق واستوليا عليها، وتخلى عنه جنده، فاختطفه جماعة من البدو، ولكن الناصر داود صاحب الكرك انتزعه منهم واعتقله بقلعته مع شجر الدر أم ولده خليل ومملوكه ركن الدين بيبرس [1].

وانتهز الناصر داود فرصة انتهاء أجل الهدنة التي كان قد عقدها الكامل مع الصليبيين وأقدم على حصار القدس في ٩ جمادى الأولى ٦٣٧ وتمكن من الاستيلاء عليها [2]، فارتفع شأنه. ثم أطلق الناصر داود

(١) نفس المصدر،ص٢٨٩، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥ ص ٢٤٠.
(٢) نفسه، ص ٢٩١ وراجع ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥ ص ٢٤٦، ٢٤٧.

سراح الصالح أيوب في ٢٧ رمضان سنة ٦٣٧هـ (٢١ أبريل ١٢٤١م) وتحالف معه على تكون مصر للصالح والشام والجزيرة للناصر، ثم سارا الى غزة ،وبلغ الخبر الملك العادل الثاني بمصر، فانزعج واستعد للخروج لمواجهتهما، فبرز الى بلبيس في منتصف ذى القعدة، فخاف الملك الصالح والملك الناصر داود من الهزيمة، فرجعا الى نابلس ومنها الى الكرك للتحصن فيها. واتفق في ذلك الوقت أن أقدم الأمير عز الدين أيبك الأسمر مقدم الأشرفية وعدد كبير من المماليك الاشرفية على خلع العادل والقبض عليه، فلم يتحرك أحد لنصرته. وتم خلع العادل في ٩ شوال سنة ٦٣٧هـ ، وفي نفس الوقت كتب الأمير عز الدين أيبك وجميع المماليك الكاملية الى الملك الصالح نجم الدين يستدعونه ، فسار الى مصر بصحبة الناصر داود. وما كاد يصل الى القاهرة ويجلس على سرير السلطـــنة حتى أمر باعتقال أخيه ببعض دوره [1] واستحلف الامراء ، وزينت القاهرة ومصر وقلعة الجبل أجمل زينة [2] .

كان الصالح أبو الفتوح نجم الدين أيوب شخصية قوية أعادت الى الاذهان شخصية جده العادل الأول وشخصية أبيه الكامل محمد، وقد

---

(١) نقل العادل الثاني الى قلعة الجبل ببرج العافية، ثم أوعز الصالح نجم الدين أيوب لمن خنقه في معتقله في بداية ٦٤٥هـ وأشاع أنه مات حتف أنفه، ودفن العادل خارج باب النصر، أما ابنه المغيث عمر فقد اعتقله الصالح في قلعة الشوبك بالاردن (المقريزى ، السلوك ، ج١ قسم ٢ ص ٣٢٧).

(٢) السلوك ، ج١ ، قسم ٢ ، ص ٢٩٧ وما يليها

شهد عصر الصالح حدثين خطيرين : الأول حركة المغول نحو الشرق الادنى ، والثانى حملة لويس التاسع على مصر. فالمغول كانوا قد قضوا فى ذلك الوقت على الدولة الخوارزمية، وتشتتت عسكر الخوارزمية فى أنحاء البلاد الاسلامية المجاورة ، وقد اتصلت طائفة من هؤلاء الخوارزمية بالملك الصالح نجم الدين في الشام ومصر، فأفاد من خدمتهم فى الشام بصفة خاصة، ففى ذلك الوقت وصلت الى الساحل حملة صليبية صغيرة نذكر من بين رجالها البارزين سيمون دى منتفرات الذى قام بدور كبير فى تاريخ البرلمان الانجليزى فى عهد هنرى الثالث ملك انجلترا، فتقدم الملك الصالح الى بيت المقدس ونجح بفضل الخوارزمية فى الاستيلاء عليها سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٥م) وذلك عندما اتفق الناصر داود صاحب الكرك والصالح عماد الدين اسماعيل صاحب دمشق [١] على محاربة الصالح نجم الدين وتحالفا مع الفرنج ضده ووعداهم بتسليم القدس اليهم بالاضافة الى طبرية وعسقلان ، فخرج الملك الصالح نجم الدين من القاهرة وبعث الى فرقة الخوارزمية وعدتهم نحو عشرة آلاف فارس يستدعيهم الى الديار المصرية، وبفضلهم استولى الصالح نجم الدين على غزة والسواحل والقدس والخليل وبيت جبريل والاغوار ولم يبق بيد الناصر داود سوى الكرك والبلقاء والصلت وعجلون [٢] . وكان لسقوط القدس فى يد

---

(١) هو عم الصالح نجم الدين ، وشقيق الاشرف موسى بن العادل الأول .
(٢) نفس المصدر ، ص ٣١٨ .

الملك الصالح وتصفيته لقواعد الفرنج في السواحل صدى قوى في أوربا يشبه صدى سقوطها قديما في يد صلاح الدين، فبدأت الدعوة من جديد لحملة صليبية كبرى على مصر ، وكان أكبر المتحمسين لها الملك لويس التاسع القديس ملك فرنسا. وحاول لويس قبل الاعداد للحملة أن يزيل ما بين البابا انوسنت الرابع والامبراطور فردريك الثاني من خلاف ، ولكنه لم يوفق فى مهمته، بل أن البابا دعا فى نفس المجلس الذى تقررت فيه الحملة الصليبية على مصر الى ارسال حملة صليبية أخرى ضد فردريك باعتباره خارجا على الكنيسة محروما منها، ولعل ذلك كان من العوامل التى أدت الى توثيق العلاقات الودية بين فردريك الثانى والصالح نجم الدين أيوب ، فأرسل فردريك الى الصالح رسولا فى السر يحمل اليه أنباء خروج حملة لويس التاسع فى طريقها الى مصر (1) .

حملة لويس التاسع على مصر أو الحملة الصليبية السابعة :

انتهت حملة جان دى بريين بالفشل ، كما سبق أن رأينا، ولكن الصليبيين لم ينسوا بعد أن مصر هى مصدر البلاء للفرنج وأنهم لن يستطيعوا تحرير القدس الا اذا امتلكوا مصر، ولهذا لم يكد يمضى على حملة جان دى بريين ثلاثون عاما حتى أعدوا العدة للانقضاض على دمياط للمرة الثالثة، ولم تأت الحملة هذه المرة من بلاد الشام وانما

(1) وذكر العينى فى عقد الجمان أن أخبار الحملة كانت تتواتر اليه من جهة الانبرورفانه كان مصافيا للملك الكامل وكذلك للصالح (السلوك ج1 ، قسم 2 ، ص 331).

أتت من فرنسا .

ففى ٤ جمادى الاولى سنة ٦٤٦هـ (٢٥ أغسطس ١٢٤٨م) أبحر من مياه مرسيليا أسطول ضخم يزيد على ١٨٠٠ سفينة تحمل ثمانين ألف مُقاتل مبهم عدتهم وأسلحتهم ومؤونتهم وخيولهم، وكان يقود هذه الحملة الملك لويس التاسع بنفسه ويعرف فى المصادر العربية باسم ريدا فرنس بمعنى ملك افرنس ويقال له الفرنسيس[1] ، ومرت هذه الحملة فى طريقها الى مصر على جزيرة قبرص ، فقضت بها بعض الوقت ، وقد أخطأت فى هذا، لأنها لو اتخذت طريقها الى مصر مباشرة دون تلكأ لفاجأت الجيش المصرى قبل أن يتخذ أهبته للحرب ، ثم أقلعت الحملة من قبرص متخذة قبلتها دمياط، ولكن رياحا عاتية أعترضتها فى طريقها، فاضطرت نحو ٧٠٠ سفينة الى الانفصال عن الاسطول الفرنسى والجنوح الى عكا .

وكان الملك الصالح أنذاك مريضا مرضا خطيرا يعوقه عن ركوب فرسه ،أصيب به عندما كان يقيم بالصالحية سنة٦٤٦ ، فقد تورم مأبطه (باطن الركبة) وحصل منه ناصور وقرحة فى الصدر، ومع ذلك فقد رحل الى دمشق وهو مريض فى محفة، وبلغه وهو هناك خبر تحرك الصليبيين الى مصر. فعاد من فوره الى مصر ونزل بأشموم طناح فى المحرم من سنة ٦٤٧هـ ، وأمر بجمع الاقوات والاسلحة فى دمياط

(١) المقريزى ، السلوك ، ج١ قسم ٢ ص ٣٣٣. وكان يصحب الملك فى هذه الحملة أخواه شارل دانجو Charle d'Anjou وروبر دارتوا Robert d'Artoi .

أتت من فرنسا .

ففى ٤ جمادى الاولى سنة ٦٤٦هـ (٢٥ أغسطس ١٢٤٨م) أبحر من مياه مرسيليا أسطول ضخم يزيد على ١٨٠٠ سفينة تحمل ثمانين ألف مقاتل معهم عدتهم وأسلحتهم ومؤونتهم وخيولهم، وكان يقود هذه الحملة الملك لويس التاسع بنفسه ويعرف فى المصادر العربية باسم ريدا فرنس بمعنى ملك افرنس ويقال له الفرنسيس[1] ، ومرت هذه الحملة فى طريقها الى مصر على جزيرة قبرص ، فقضت بها بعض الوقت ، وقد أخطأت فى هذا، لأنها لو اتخذت طريقها الى مصر مباشرة دون تلكأ لفاجأت الجيش المصرى قبل أن يتخذ أهبته للحرب ، ثم أقلعت الجملة من قبرص متخذة قبلتها دمياط، ولكن رياحا عاتية اعترضتها فى طريقها، فاضطرت نحو ٧٠٠ سفينة الى الانفصال عن الاسطول الفرنسي والجنوح الى عكا .

وكان الملك الصالح أنذاك مريضا مرضا خطيرا يعوقه عن ركوب فرسه ،أصيب به عندما كان يقيم بالصالحية سنة ٦٤٦ ، فقد تورم مأبطه (باطن الركبة) وحصل منه ناصور وقرحة فى الصدر، ومع ذلك فقد رحل الى دمشق وهو مريض فى محفة، وبلغه وهو هناك خبر تحرك الصليبيين الى مصر. فعاد من فوره الى مصر ونزل بأشموم طناح فى المحرم من سنة ٦٤٧هـ ، وأمر بجمع الاقوات والاسلحة فى دمياط

(١) المقريزى ، السلوك ، ج١ قسم ٢ ص ٣٣٣. وكان يصحب الملك فى هذه الحملة أخواه شارل دانجو Charle d'Anjou وروبر دارتوا Robert d'Artoi

وبعث الى الامير حسام الدين بن أبى على الهذبانى نائبه فى القاهرة بتجهيز الشوانى من دار الصناعة بمصر ،كما أمر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ أن ينزل على جيزة دمياط بالعسكر ليواجه الفرنج عند وصولهم، ووصلت مراكب الفرنج فى ٢١ من صفر ٦٤٧ (يونيو ١٢٤٩)، فأرست على البحر بازاء المسلمين (١) فأرهبهم كثرة حشود المصريين، كما خطف بريق أسلحة المسلمين أبصارهم ، وعلا صهيل خيل المسلمين فأفزع الفرنسيين وهم لايزالون فى سفنهم. ويصف جوانفيل مؤرخ الحملة واحد قوادها الرهبة التى ملكت على الفرنسيين أنفسهم عند رؤية العساكر المصرية فيقول : « وصل الملك أمام دمياط، ووجدنا هناك كل جيوش السلطان تقف على الشاطىء : كتائب جميلة تسر الناظرين ، ذلك أن أسلحة السلطان قد صنعت من ذهب ، فكانت الشمس تشرق على هذه الاسلحة فتزيدها بريقا ولمعانا ، وكانت الجلبة التى تحدثها صنوجهم وأبواقهم تدخل الرعب فى نفوس السامعين (٢) ، وفى اليوم الثانى استطاع الفرنسيون أن ينزلوا عسكرهم الى البر بعيدا عن معسكر المصريين ، ثم بدأت المناوشات بين الجيشين ، واستشهد من المسلمين عدة من الامراء، ولكن بات واضحا أن كفة المصريين كانت الراجحة فالجيش المصرى كثيف العدد وقد انضم اليه جماعة من الاتراك وقوة من عرب كنانة ، ودمياط على البر الشرقى مدينة مسورة

(١) المقريزى ، السلوك ، ج١ قسم٢ ص ٣٣٣ - ابو المحاسن بن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة، نشر: الكتب المصرية، ج٦ ، ص ٦٣٨.

(2) Joinville (Jean) : The history of saint louis, ed by Joan Evans, Oxford, 1938 p40.

وحصينة، قد شحنها السلطان بوفرة من الجند والاقوات والسلاح اذ كان مايزال يذكر أن سبب الهزيمة الاولى كان انعدام الاقوات بعد طول الحصار، فلو أن الأمور سارت سيرها الطبيعي لكان المصريون قد أوقعوا به وبالحملة هزيمة نكراء رغم قوتها ووفرة جنودها ، ولامكنهم ردها عن مصر في سهولة ويسر، ولكن الحوادث تطورت تطورا آخر، فكما أن مؤامرة ابن المشطوب كادت تنزل الهزيمة بالجيش المصرى وتتسبب في إحداث الاضطراب والارتباك بين صفوفه في عهد الكامل، كذلك وقع في حملة لويس حادث خطير مماثل كاد ينهى بها الى نفس النتيجة، فقد كان السلطان الملك الصالح قد نزل في أشموم طناح كما أسلفنا القول ، وقد اشتد به المرض فلما وصلت سفن الصليبيين الى البّر الغربي من دمياط أطلق الامير فخر الدين الحمام الزاجل يحمل النبأ الى السلطان،وتعددت رسائله دون أن يتلقى ردا، فأيقن أن السلطان قد مات، فانتظر حتى أقبل الليل ثم انسحب بجيشه كله من دمياط وسار جنوبياً متجها الى معسكر السلطان عند أشموم طناح ولشدة عجلته نسى أن يحطم الجسر الذى كان يربط البرين الغربى والشرقى ونظر أهل دمياط فوجدوا الجيش الذى خصص لحمايتهم قد غادر المدينة، فخافوا على أرواحهم وخرجوا أثناء الليل تاركين ديارهم وأموالهم، ولم يبق بالمدينة أحد، وفروا الى أشموم طناح مع العسكر ، وهم حفاة عراة جياع فقراء حيارى بمن معهم من الاطفال والنساء، وساروا الى القاهرة، فنهبهم الناس في الطريق، ولم يبق لهم مايعيشون به، فعدت

هذه الفعلة من الأمير فخر الدين من أقبح مايشنع به [1]، وغضب السلطان غضبا شديدًا لتراجع العسكر من المدينة وتركها غنيمة للفرنج، واشتد حنقه على الكنانيين الذين كان قد عهد اليهم بالتصدى للفرنج، فأمر بشنق مايزيد على خمسين أميرا منهم، وهم بعض الامراء بقتل فخر الدين ، ولكن الظروف لم تكن مواتية لمحاسبة المذنبين من الامراء، أما الفرنج فقد أصبحوا يوم ٢٣ من صفر فرأوا أبواب دمياط مفتحة لايحميها أحد ، فلما تأكدوا من خروج أهلها منها دخلوها بغير كلفة ولا مؤونة حصار واستولوا على مافيها من آلات الحربية والاسلحة والعدد والاقوات والذخائر والاموال عفوا بدون قتال. وكان فى امكان لويس التاسع أن ينتهز فرصة الارتباك الذى حدث نتيجة سقوط دمياط ويمضى جنوبا دون تلكأ ويتغلب فى يسر على قوات نجم الدين أيوب ، غير أنه تباطأ كثيرا، فأقام فى دمياط مايقرب من ستة أشهر ينتظر وصول بقية سفنه التى جنحت بها الريح نحو شواطىء سوريا .

وكانت هذه الفترة كافية ليفيق المصريون من الصدمة ويعيدوا جمع صفوفهم ، وكان الملك الصالح فى هذه الاثناء قد أمر بالرحيل الى المنصورة فحمل فى حراقة حتى أنزل بقصر المنصورة على شواطىء النيل فى ٢٥ صفر، وأقبل الى المنصورة الغزاة والراغبون فى الجهاد من عامة المصريين من جميع النواحى كما انضم اليهم اعداد كبيرة من العربان، وبدأ عسكر مصر يحصنون المنصورة، فأصلحوا السور

(١) المقريزى ، السلوك ، ج١ قسم ٢ ص ٣٣٥

الذى كان يدور بهارزودوه بالستائر، وقدمت الشوانى المصرية بالعدد الكاملة والرجالة. وأخذ المجاهدون والعربان يهاجمون معسكرات الفرنج حتى أقضوا مضاجعهم، ولم يكن يمر يوم واحد دون أن يعودوا بعدد من الاسرى . ولما وصلت السفن الفرنسية الشاردة الى دمياط، دعا الملك لويس التاسع قواته للتشاور ولاختيار الطريق الذى يسلكونه، أيتجهون الى الاسكندرية أم الى القاهرة؟ وأشار بعض قواده عليه بالسير نحو الاسكندرية والبدء بالاستيلاء عليها، وكانت حجتهم معقولة وصحيحة من الوجهة العسكرية، فالاسكندرية كميناء تفضل دمياط لأنها أصلح لايواء سفنهم، واليها يستطيع أسطولهم أن يصل بالميرة من بلادهم فى وقت قصير وجهد قليل. غير أن الكونت أرتوا عارض هذا الرأى، ونصح أخاه الملك بالاتجاه مباشرة نحو القاهرة والاستيلاء عليها، وحجته فى ذلك أن القاهرة هى عاصمة الديار المصرية، والاستيلاء عليها يؤدى حتما الى الاستيلاء على مصر كلها، وأضاف الى ذلك بقوله «اذا أنت أردت أن تقتل الأفعى فاضربها على رأسها» (1)، واستجاب الملك لرأى أخيه ولم يتعظ من الفشل الذى انتهت اليه حملة جان دى بريين من قبل، فكان هذا القرار حلقة جديدة فى سلسلة الأخطاء التى انتهت بفشل الحملة.

وفى هذه الأثناء توفى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بالمنصورة فى ليلة الاثنين النصف من شعبان سنة ٦٤٧هـ (٢٢ نوفمبر

(1) Joinville, op. cit. p. 54.

١٢٤٩م) عن أربع وأربعين سنة بعد أن عهد بولاية العهد من بعده لابنه الملك المعظم تورانشاه وحلف له من يثق به، وبعد أن سجل قبل موته عشرة آلاف علامة (أى توقيع سلطانى) يستعان بها فى المكاتبات على كتمان موته الى أن يصل ولده تورانشاه من حصن كيفا. ثم حمل جسده فى تابوت الى قلعة الروضة المعروفة بقلعة المماليك البحرية التى أنشأ فيها مماليكه الصالحية [١] .

فلما توفى الصالح أحضرت زوجته شجر الدر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ والطواشى جمال الدين محسن وكانا أقرب الناس الى السلطان، وعهدت إليهما القيام بأمر مماليكه وحاشيته، وأعلمتهما بموت السلطان، وأوصتهما بكتمان موته خوفا من الفرنج، فاتفقا مع شجر الدر على القيام بتدبير أمور الدولة واصدار المراسيم السلطانية الى أن يصل الملك المعظم تورانشاه، وعهدت الى الفارس أقطاى أحد كبار المماليك البحرية بالسير الى حصن كيفا لاحضار الملك المعظم، وكانت شجر الدر تدبر أمور الدولة ،فكان الأطباء يدخلون الى حجرة السلطان كل يوم وكأنهم يعودونه، كما كانت المناشير والأوراق الرسمية تدخل الى نفس الغرفة وتخرج ممهورة بعلامة السلطان. أما قيادة الجيوش فقد أسندتها الى الأمير فخر الدين. وبهذه

(١) اهتم الصالح نجم الدين أيوب باقتناء طائفة كبيرة من المماليك قبل توليه السلطنة، فلما ظفر بدست السلطنة أقبل على شراء المماليك واتخذ منهم معظم عسكره وساهم بالبحرية لسكناهم معه فى قلعة الروضة

الاجراءات السريعة الحكيمة أنقذت مصر من أزمتها ، وسارت الأمور سيرا طبيعيا [1] .

ولكن أخبار وفاة السلطان رغم هذا التكتم الشديد وصلت الى الفرنسيين ، وكانوا قد قرروا السير الى القاهرة. فخرجوا من دمياط فارسهم وراجلهم ونزلوا على فارسكور وشوانيهم فى النيل تحاذيهم، ثم أبحروا من فارسكور فى ٢٥ من شعبان نحو الجنوب، فصدر من المعسكر كتاب فيه حض الناس على الجهاد ، فقرىء على الناس بمنبر الجامع الأزهر ، فارتجت له القاهرة وانزعج الناس ، فخرج لتلبية الدعوة للجهاد عالم عظيم. ووصلت قوات الفرنج المنصورة ، فعسكرت شمالى بحر أشموم طناح، وأصبح هذا البحر حاجزا بين معسكرهم ومعسكر المسلمين ، وبدأ كل فريق يستعد للمعركة الحاسمة، واهتم الفرنج بتحصين مركزهم، فحفروا حول معسكرهم خندقا، وأقاموا سورا تتقدمه ستائر أمامية ونصبوا المجانيق ، وأتت شوانيهم فوقفت بازائهم فى النيل. أما المصريون فقد كانوا مطمئنين الى حصانة مدينتهم ، فأخذوا يناوشون الفرنج ويتحيلون فى اختطافهم وأسرهم، ويأتون فى ذلك بكل غريب وفى ذلك يقول المقريزى : « وكانوا يتحيلون فى خطفهم بكل حيلة حتى أن شخصا أخذ بطيخة أدخل فيها رأسه،

(١) يذكر المقريزى فى ذلك أن الدهليز السلطانى ظل على حاله والسماط فى كل يوم يمد، والامراء تحضر الخدمة وهى تقول : « السلطان مريض مايصل اليه أحد » (السلوك ، ج١ ، قسم ٢ ص ٣٤٦) .

وغطس فى الماء الى أن قرب من الفرنج ، فظنوه بطيخة ، فما هو الا أن نزل أحدهم فى الماء ليتناولها اذ اختطفه المسلم وعام به حتى قدم به الى المسلمين [1] .

ورأى لويس التاسع أنه لايمكنه التغلب على المصريين الا اذا التحم معهم فى معركة، ولاسبيل الى هذا وبحر أشموم يفصل بينه وبينهم، وفكر فى بناء جسر ، ولكن ما يكاد الفرنج يبنون بضعة أمتار منه حتى تتساقط عليهم قذائف المصريين فيرتدون على أعقابهم، فاضطر الفرنج الى اقامة برجين مشحونين بالمقاتلة ورماة السهام لحماية العمال القائمين ببناء الجسر، ولكن المسلمين استطاعوا بمهارتهم الحربية أن يفسدوا على أعدائهم عملهم، فكان الفرنج كلما أتموا من جسرهم مترا هدم المسلمون أمتارا أمامه فى البر المقابل، فاتسع المجرى من جديد، وهكذا كان المصريون الكفة الراجحة، ولو سارت الأمور سيرها الطبيعى لتم لهم النصر النهائى ، ولكن خائنا من البدو دل الفرنج على مخائض فى بحر أشموم . فلم يشعر الأهالى الا والفرنج معهم فى المعسكر، وكان الأمير فخر الدين فى الحمام، فأتاه الصريخ بأن الفرنج هاجموا المعسكر ، فخرج وهو مضطرب لينظر الخبر وليس معه سوى بعض مماليكه وأجناده، فصدمته قوة من الفرنج الداوية وحملوا عليه، ففر من كان معه وظل يدافع وحده عن نفسه، فاعتورته السيوف من كل ناحية واستشهد . ثم وضع لويس التاسع خطة تتلخص

(١) المقريزى ، السلوك ، ج١ قسم ٢ ص ٣٤٨ .

فى أن يعبر أخوه الكونت أرتوا بفرقة من الفرسان من هذه المخاضة، فاذا وصل الى البر الذى يعسكر فيه المسلمون يشتبك معهم فى قتال مؤقت يلهيهم عن مهاجمة الفرنج أثناء اقامتهم للجسر، فاذا ما تم بناء الجسر أمكن لويس أن يعبر عليه ببقية جيشه وينضم اليه فرسان أخيه أرتوا ،ثم ينقضوا جميعا على جيش المصريين فيفتكوا بهم.. غير أن الكونت أرتوا لم ينفذ هذه الخطة، فقد عبر المخاضة فى ٤ ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ (فبراير ١٢٥٠م) وانقض على معسكر المسلمين فجأة فشتت شملهم اذ لم يخطر على بالهم أن الفرنج سيهاجمونهم من تلك الناحية، ثم كان اشتباك الفرنج مع الأمير فخر الدين واستشهاده ، ففرح أرتوا بهذا النصر السريع وملكه حماس الشباب ، فلم يقف عند نهاية الجسر لحماية العاملين فيه، كما أمره أخوه ، وانما غره الانتصار فاندفع بفرسانه داخل شوارع المنصورة، وتقدم حتى وصل الى قصر السلطان بها، ولكنه اصطدم بفرقة المماليك البحرية والجمدارية وفيهم ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وحمل المماليك على الفرنج حملة عنيفة زلزلت صفوفهم وأزاحوهم عن باب القصر، فلما ولوا الأدبار أخذتهم السيوف والدبابيس حتى قتل من شجعانهم نحو ألف وخمسمائة، وبذلك قضى المماليك على فرقة الفرسان بأكملها ، وكان أرتوا نفسه فى مقدمة القتلى . وكان الفرنج أثناء هذه المعركة يجدون فى اتمام اقامة الجسر، فلما وصلتهم أنباء الهزيمة الساحقة التى نزلت بفرسانهم حتى انهارت عزائمهم ، وأخذوا يلقون بأنفسهم فى النيل ابتغاء العودة الى معسكرهم. وبفضل بيبرس وفرسانه عاد الفريقان الصليبى والاسلامى

الى ما كانا عليه ، كل منهما على بر والبحر الصغير يفصل بينهما .

ومضت بضعة أيام على هذا الانتصار ثم وصل الملك المعظم تورانشاه الى الصالحية فى ١٥ من ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ ثم رحل الى تلبانة وسار منها الى المنصورة فتلقاه الامراء المماليك، ونزل فى قصر أبيه وجده فى ١٩ من ذى القعدة (فبراير ١٢٥٠م) ، وفرح المصريون بسلطانهم الجديد واستبشروا به خيرا، وبدأوا يستعيدون الثقة بأنفسهم. وعمد تورانشاه الى الحيلة التى سبق أن لجأ اليها جده الملك الكامل عندما نزلت بنفس الموضع جيوش جان دى برين، فأمر بتجهيز عدة سفن فى المنصورة وحملها مفصلة اجزاء على الجمال وانزالها بعد اعادة تركيبها فى بحر المحلة وراء معسكرات الفرنج، وشحنها بالمقاتلة، وذلك لقطع طريق الامدادات الصليبية القادمة من دمياط الى موقع معسكرات الفرنج. فلما أقبلت سفن الامدادات لبحر المحلة خرجت عليها السفن المصرية بغتة وقاتلتها ، وفى نفس الوقت قدم أسطول المسلمين من جهة المنصورة، «فأخذت مراكب الفرنج أخذا وبيلا، وكانت اثنين وخمسين مركبا، وقتل منها وأسر نحو ألف افرنجى وغنم سائر ما فيها من الأزواد والأقوات ، وحملت الأسرى على الجمال الى المعسكر، فانقطع المدد من دمياط عن الفرنج، ووقع الغلاء عندهم، وصاروا محصورين لايطيقون المقام ولايقدرون على الذهاب ، واستضرى المسلمون عليهم، وطمعوا فيهم [1] ». واشتدت الضائقة بالفرنج لانقطاع الميرة عن دمياط ، وعاد الفرنج يستصرخون

(١) المقريزى ، المصدر السابق ، ج١ قسم ٢ ص ٣٥٤.

اخوانهم بدمياط ، فأرسل هؤلاء اليهم عددا كبيرا من السفن مشحونة بالأقوات، فالتقت بها شواني المسلمين فاستولت على ٣٢ مركبا صليبيا منها ٩ شواني، وعندئذ شرع الفرنج في مراسلة السلطان يطلبون منه الهدنة، فسألوا أن يسلموا دمياط ويأخذوا عوضا عنها مدينة القدس وبعض الساحل ، فلم يجابوا الى ذلك، فلم يجد لويس التاسع بدا من الاستمرار في مقاومة ميئوس منها ربما لانقاذ مايمكن انقاذه،فأقدم على اشعار النار في اسلحته ومعداته، ثم رحل بجيشه ليلة الأربعاء ٣ من المحرم ٦٤٨هـ (أبريل ١٢٥٠م) في اتجاه دمياط، فركب المسلمون أقفيتهم بعد أن عبروا الى برهم واتبعوهم، وأدركوهم عند فارسكور وأحاطوا بهم ، وأذرعوا فيهم سيوفهم، وقتلوا منهم أعدادا هائلة بلغت عشرة آلاف في قول المقل، وثلاثين ألفا في قول المكثر، وأسر من خيالة الفرنج ورجالتهم المقاتلة وصناعهم وسوقتهم ما يناهز مائة ألف [1] ، وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال مالا يحصى كثرة، وأبلى المماليك البحرية وعلى رأسهم بيبرس البندقداري في هذه الموقعة بلاء حسنا. والتجأ الملك لويس التاسع وعدة من قواده الى تل يقال له تل المنية (يقصد به منية عبد الله) وطلبوا الأمان فأمنوا على أرواحهم، وتم أسرهم وفيهم الملك لويس نفسه فحملوا الى المنصورة، وقيد الملك بقيد من حديد، واعتقل بدار القاضي فخر الدين ابراهيم بن لقمان كاتب الانشاء، ووكل بحراسته الطواشي صبيح المعظمي ،

(١) نفس المصدر ، ص ٣٥٥

واعتقل معه أخوه .

ثم رحل السلطان تورانشاه الى فارسكور وضرب بها الدهليز السلطاني، وعمل فيه برجا من خشب ، وأقام على لهوه ، ثم أنه أساء الى رجال دولته، فاعتقل الكثيرين منهم، وبعث الى شجر الدر يتهددها ويطالبها بمال أبيه وما تحت يدها من الجواهر، ولم يقدر لها تدبيرها لأمور الدولة بعد وفاة أبيه الى أن تسلم الحكم، فاستاء المماليك من أفعاله لعزله الأمراء الأكابر أهل الحل والعقد واقصائه لغلمان أبيه واختصاصه بجماعته الذين وفدوا معه من حصن كيفا وتقديمه للأراذل، واشتد استياؤهم منه عندما بلغهم أنه صار اذا سكر فى الليل جمع ما بين يديه من الشمع وضرب رؤوسها بالسيف حتى تنقطع ويقول : هكذا أفعل بالبحرية ، ويسمى كل واحد منهم باسمه. فنفرت قلوب المماليك البحرية منه واتفقوا على قتله، واقتحموا عليه البرج فى ٢٦ من المحرم، ففر الى أعلاه وأغلق بابه، فأضرموا النار فى البرج، ورموه بالنشاب ، فألقى بنفسه من أعلى البرج وتعلق بأذيال الفارس أقطاى واستجاره فلم يجره، فرمى بنفسه فى النهر، فسبحوا خلفه فى الماء، وقطعوه بالسيوف قطعا حتى مات جريحا حريقا غريقا فى ٢٩ من المحرم سنة ٦٤٨هـ (مايو ١٢٥٠م) .

وهكذا قضى المماليك البحرية على آخر سلاطين الدولة الأيوبية، وكادوا يفقدون بهذه الفعلة الشنعاء النصر الباهر الذى أحرزوه ولما يمضى عليه غير ٢٥ يوما. ولكن المماليك سرعان ماتداركوا الموقف فأجمعوا على اقامة شجر الدر ملكة على مصر، فكان حدثا غريبا فى

تاريخ العالم الاسلامى كله، كما نصبوا الأمير عز الدين أيبك أتابكا للعسكر. ثم بدأت المفاوضات بين لويس التاسع وبين المصريين، ومثل مصر فى هذه المفاوضات الأمير حسام الدين بن أبى على نائب السلطنة فى عهد الملك الصالح أيوب، وتم الاتفاق أخيرا على اطلاق سراح الملك وجميع الاسرى من الفرنج على أن يخلوا دمياط، وأن يدفعوا ٤٠٠ ألف دينار فدية للملك على دفعتين ؛ الأولى وهو نصف المبلغ قبل اطلاق سراحه والنصف الآخر بعد وصوله الى عكا، فأطلق المصريون سراح الملك وأفرجوا عن أخيه وزوجته ومن بقى من أصحابه [1] وسائر الأسرى بمصر والقاهرة ممن أسر فى هذه الواقعة بالاضافة الى من أسر فى عهد العادل أبى بكر والكامل محمد والصالح أيوب وكانت عدتهم فيما ذكره المقريزى اثنى عشر الف ومائة وعشر أسير [2] ثم ركب الفرنج السفن وأقلعوا الى جهة عكا. وبعودة دمياط الى مصر ضربت البشائر وأعلن على الناس بالسرور والاحتفالات. وفى أسر الملك لويس التاسع وسجنه يقول الشاعر جمال الدين بن مطروح ساخرا :

قل للفرنسيس اذا جئته ... مقال نصح من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى ... من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرا تبتغى ملكها ... تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين الى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح

(١) المقريزى ، السلوك، ج١ قسم ١ ص ٣٦٣. ومن المعروف أن الملكة مرجريت البروفنسية زوجة لويس التاسع كانت مقيمة فى دمياط فترة احتلال الفرنج لهذه المدينة، وهى التى جمعت نصف الفدية المقررة، وينفرد المقريزى بهذا الخبر دون المصادر الأخرى.

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٦٣ .

الى أن يقول :

وقل لهم ان أزمعوا عودة — لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها — والقيد باق والطواشي صبيح

وبتولية شجر الدر السلطنة فى مصر تبدأ صفحة جديدة فى تاريخ مصر الاسلامية باعتبارها أول من مسه الرق من سلاطين مصر أو أول من ملك مصر من ملوك المماليك الترك، وانقرضت بذلك دولة بنى أيوب . تولت الأسرة الأيوبية الملك على مصر مايقرب من ثمانين سنة وتولى السلطنة على مصر من أفرادها تسعة ملوك أولهم شيركوه وآخرهم تورانشاه وكان لأربعة من هؤلاء الملوك الفضل الاعظم فى تسجيل مآثر هذه الأسرة وهم: صلاح الدين والملك العادل والملك الكامل والملك الصالح . ومن أبرز الأحداث التى جرت فى عصر الأيوبيين الانقلاب المذهبى الذى حدث بعد القضاء على المذهب الشيعى الاسماعيلى والعودة للمذهب السنى . وقضت مصر فى العصر الايوبى فترة من الهدوء الداخلى، ولكنها انصرفت لمواجهة المد الصليبى فى الشام ومصر، ومع ذلك فقد شهدت مصر رخاء وازدهارا واضح المعالم نتيجة لرواج التجارة وسلامة الطرق المؤدية الى مصر. ويهمنا هنا أن نتعرض لازدهار الحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر الأيوبى وأثر ذلك فى اتساع العمران المدنى وتقدم الحركة الانشائية فى البلاد .

تجارة مصر في العصر الأيوبي :

أصحبت الاسكندرية في العصر الأيوبي سوقا هامة للتجارة العالمية. فاليها كانت تتدفق معظم منتجات الشرق من طيب ويواقيت وعطور وتوابل وغير ذلك من التجارة الشرقية وقد ذهل بعض الرحالة الاوربيين أمثال بنيامين التطيلي ، وبرخارد الذى قدم الى مصر سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م) سفيرا للأمبراطور فردريك بربروسة لكميات التوابل الهائلة التي كانت تحملها السفن في النيل الى الاسكندرية(١) .

ويذكر ابن سعيد المغربي أن ما كان يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراني والبحر الحجازي يفوق الوصف(٢). وربما يرجع هذا الازدهار الى عناية صلاح الدين وخلفائه بالثغر السكندري وحرصهم على تحقيق الأمن وحرية التنقل للتجار الوافدين الى مصر. وقد نتج عن ازدهار التجارة في مصر في هذا العصر أن كثر عدد التجار الافرنج لاسيما في ثغر الاسكندرية، فقد ذكر المقريزي أنه اجتمع منهم نحو ثلاثة آلاف في سنة ٦٠٨هـ في سلطنة الملك العادل(٣) . وقد أشار بنيامين التطيلي الى اسماء دول كثيرة كانت تتعامل مع الاسكندرية وكان لكل منها فندق لتجارها، فيقول : « وهذا البلد تجاري ، يؤمه الناس من جميع الشعوب والأمم المسيحية ، فمن بلاد

(1)Heyd, Histoire du commerce du Levant aumoyen âge t.I. Leipsig, 1923, P. 364.

(٢) المقريزي ، نفح الطيب من غصن اندلس الرطيب ، تحقيق محي الدين عبد الحميد، ج٣ ، ص١٠٦ .

(٣) المقريزي ، الخطط ، ج١ ص ٣٠٦ - السلوك ، ج١ ص ١٧٥ .

المعرب البندقية ولمبارديا وتسكانه وأبولية وأمالفي وصقلية وقلورية ورومانيا وكازاريا وباتزيناكيا وهغاريا وبلغاريا وراكوفيا وكرواتيا واسكلافونيا وروسيا والمانيا وسكسونيا ودنمركه وأيسلندا والنرويج وانكلتلندا وفرنسا وانجلترا وفلاندرز ونورماندا وأنجو وبواتو وبورجونيا وبروفنس وجنوة وبيشه وغسقونية وأرغون، ومن بلاد الاسلام الاندلس والمغرب وافريقية وبلاد العرب والهند والحبشة وليبية واليمن وبابل وسورية وتركيا. وتأتيها السلع الهندية وجميع أنواع التوابل التي يشتريها التجار المسيحيون. وهى مدينة عامرة بالمتاجر ولكل بلد فندق [1].

وكانت السفن تصل اليها من الفسطاط عبر خليج الاسكندرية وتدخل من باب البهار وهو باب العمود أو باب سدرة، ويذكر ابن مماتي أن المراكب كانت تسير بخليج الاسكندرية وتحمل اليها الشب والغلال والكتان والبهار والسكر وغير ذلك من الأصناف، كما تحمل من الاسكندرية الأخشاب والحديد برسم عمارة المراكب وذلك فى شهر مسرى الموافق لشهر آب (أغسطس) حيث ترتفع مياه النيل ويمتلىء خليج الاسكندرية بمياه النيل [2].

وجرت العادة فى الاسكندرية بألا تقلع أى سفينة من السفن التجارية الايطالية الا اذا دفعت ما كان مقررا عليها من الرسوم [3].

---

(1) Benjamin de Tudela. Viaje de Benjamin de Tudela. Madrid 1918. p. 115.

(٢) ابن مماتي: كتاب قوانين الدواوين. جمع وتحقيق د. عزيز سوريال عطية. القاهرة ١٩٤٣. ص ٢٥٧

(٣) ثناء العربي: مصر فى عصر الأيوبيين ص ٢٠٣. المقريزى: السلوك، جـ١ ص ٦٣

وكانت هذه الرسوم تصل الى الخمس، فما زاد على العشر رتبه صلاح الدين لفقهاء الثغر، وعرفت هذه الرسوم الاضافية بصادر الفرنج [1].
وكان أمناء السلطان يقومون بتقييد جميع ما يدخل بر الاسكندرية من سلع أو مال، ليفرضوا عليهم ضريبة جمركية، وفي سبيل ذلك كانوا يفتشون المسافرين. وقد أبدى كثير من الرحالة امتعاضهم من هذا الاجراء التعسفي، وانتقدوه نقدا وصل في بعض الاحيان الى حد التجريح والسب. فابن جبير عند نزوله بالاسكندرية لاحظ سوء معاملة رجال الديوان للمسافرين الوافدين الى مصر، يقول ابن جبير: « فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء الى المركب من قبل السلطان بها، لتقييد جميع ما جلب فيه، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدا واحدا، وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو مما لم يحل، وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم، فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل حال عليه حول أم لا، واستنزل أحمد بن حسان بها ليسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب، فطيف به مرقبا على السلطان أولا ثم على القاضي، ثم على أهل الديوان، ثم على جماعة من حاشية السلطان، وفي كل يستفهم، ثم يقيد قوله، فخلي سبيله، وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فضل

(1) ابن مماتي، المصدر السابق، ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

من أزودتهم، وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم ، ويحمل جميع ما أنزلوه الى الديوان ، فاستدعوا واحدا واحدا، وأحضر ما لكل واحد من الأسباب ، والديوان قد غص بالزحام، فوقع التفتيش لجميع الاسباب، مادق منها وما جل ، واختلط بعضها ببعض وأدخلت الأيدى الى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون فيها، ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا. وفى أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدى وتكاثر الزحام، ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزى عظيم ... »[1]. كذلك انتقد العبدرى ما فعلته رجال الديوان وأمناء السلطان من تعسف واذلال للمسافرين، فقال بعد وصفه الاسكندرية: « ومن الأمر المستغرب والحال الذى أنصح عن قلة دينهم أنهم يعترضون الحجاج، ويجرعونهم من بحر الاهانة الملح الأجاج ، ويأخذون على وفدهم الطرق الفجاج، يبحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال ، وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد له عجبى ، وجعل الانفصال عنهم غاية أربى، وذلك لما وصل اليها الركب جاءت شرذمة من الحرس لا حرس الله مهجتهم الخسيسة، ولا أعدم منهم لأسد الآفات فريسة، فمدوا فى الحجاج أيديهم، وفتشوا الرجال والنساء ، وألزموهم أنواعا من المظالم ، وأذاقوهم ألوانا من الهوان، ثم استحلفوهم وراء ذلك كله، وما رأيت هذه العادة الذميمة، والشتيمة اللئيمة فى بلد من البلاد ولا رأيت فى الناس أقسى قلوبا ولا

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

من أهل هذا البلد »[1] . ومن العجيب أن هذه القاعدة التى جرى عليها ديوان الاسكندرية استمرت حتى نهاية عصر دولة المماليك، وكانت الادارة الايوبية تفرض على التجار الرسوم الباهظة بعد اجراء تفتيش شامل على كل ما يحملونه معهم، وقد وصف فريسكودى بالدى (القرن الثامن الهجرى) مالاقاه على ايدى حراس الديوان والمفتشين ، وقال فى جملة ما قاله : « فاستلمنا بعض الحراس، وأخذونا فى عدد كالبهائم ، ثم أثبتوا العدد فى دفاترهم، ولم يلبثوا أن فتشونا تفتيشا دقيقا وتركونا فى حراسة قنصل فرنسا، ثم حملت أمتعتنا الى الديوان، وأعيدت وفحصت فحصا شديدا. وقد علل الاستاذ جاستون فييت[2] تشدد ديوان الاسكندرية فى التفتيش منذ عصر الدولة الأيوبية بأن مصر كانت فى حرب مع الصليبيين فى بلاد الشام .

- وقد ترتب على ازدهار التجارة فى مصر فى العصر الأيوبى ازدهارا اتسم به العمران المدنى فى القاهرة والفسطاط وقوص وعيذاب والاسكندرية ودمياط . ومما لاشك فيه أن العمران السكندرى تطور تطورا كبيرا فى العصر الأيوبى بسبب المكانة السامية التى كانت تشغلها علميا واقتصاديا ، وموقف أهلها المؤيد لصلاح الدين أيام توليه الوزارة، ويرجع سبب هذا الازدهار الى اهتمام السلاطين بهذا الثغر

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد، ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة فى القرنين السادس والسابع للهجرة، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية، مجلد ٨ ، ١٩٥٤ ، ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) فييت . المواصلات فى مصر ، مقال فى كتاب « فى مصر الاسلامية » ترجمة الأستاذ محمد وهبى ، القاهرة ، ١٩٣١ ، ص ٤٠ .

وعنايتهم به وبمنشآته، ويعبر عن ازدهار العمران السكندرى امتداح الرحالة الذين زاروه فى تلك الفترة لحسن وضعه واتساع مبانيه ومسالكه [1] . وعمرت الاسكندرية فى هذا العصر بالمساجد العديدة التى بالغ الرحالة فى عددها فابن جبير يذكر ان الاسكندرية أكثر بلاد الله مساجد حتى أن تقدير الناس لها يطفف ، فمنهم المكثر والمقلل فالمكثر ينتهى فى تقديره الى اثنى عشر ألف ، والمقل ما دون ذلك لاينظبط ، فمنهم من يقول ثمانية آلاف ومنهم من يقول غير ذلك ، وبالجملة فهى كثيرة جدا، تكون منها الأربعة والخمسة فى موضع [2] . ذكر الهروى « أن ابن منقذ أخبره أن بها اثنى عشر ألف مسجد فسأل الهروى القاضى الكاتب عن ذلك، فقال : ان الملك العزيز عثمان كشف ذلك فوجدوا بها عشرين ألف مسجد ، وأنا فما عددتها والله أعلم بصحة ذلك [3] » . وعلى الرغم من وضوح عنصر المبالغة فى هذه الأرقام الا أننا نخرج من رواية ابن جبير والهروى بكثرة مساجد الاسكندرية فى العصر الأيوبى ، وهو أمر يعبر عن غلبة النزعة الدينية فى الاسكندرية فى عصر سيطرت فيه الرغبة فى الجهاد والرباط .

النشاط المعماري فى عصر الدولة الأيوبية :

صحب قيام الدولة الايوبية نشاط معمارى كبير فى مصر وبلاد

---

(١) مجهول ، كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار، تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية، ١٩٥٨ ص ١٠٠ ، وانظر ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٠ ، ٤١ .

(٢) ابن جبير ، ص ٤٣ .

(٣) الهروى ، كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات ، تحقيق جانين سورد يل طومين ، دمشق ١٩٥٣ ص ٤٧ وما يليها .

المشرق، فقد أقيم في الثمانين سنة التى دام فيها حكم هذه الدولة عدة كبيرة من العمائر الهامة فى أنحاء الدولة ،وليس أدل على ذلك مما سجله المؤرخون وخاصة المقريزى فى كتابه المواعظ والاعتبار ، وقد أثبت المقريزى كما أثبت غيره من المؤرخين كثيرا مما أقامه سلاطين هذه الدولة وأمراؤها من قلاع وحصون وأسوار ومساجد ومدارس ومارستانات وقصور، واذا كان معظم هذه الأبنية قد اندثر فى الوقت الحاضر ولم يبق منها الا النذر اليسير فانه مما يؤكد ما ذكره المؤرخون عن وفرة النشاط المعمارى فى عصر الدولة الأيوبية كثرة ما تبقى من نقوش كتابية من هذا العصر، يرجع السبب فى اهتمام سلاطين هذه الدولة بالعمارة الحربية والمدنية والدينية الى عاملين رئيسيين :

الأول : أنه كان للصليبيين معاقل وحصون منيعة فى القدس وسواحل الشام، فنشط سلاطين بنى أيوب فى تحصين بلادهم، وفى تجديد أسوار حواضرهم وقلاعها ، وتعمير ما تهدم فى أعقاب المعارك والحرائق ، والبناء نظيرها مبالغة فى مناعتها ، وحرصا على سلامتها من أى عدوان صليبى عليها. من ذلك أن صلاح الدين أمر بتحصين ثغر دمياط واقامة أبراج فيها وأسوار وخنـدق [1] كما أنه أنشأ قلعة فى تنيس [1] ، وجدد أسوار الاسكندرية فعمر أسوارها وأبراجها وأبدانها فى سنة ٥٦٦، واكتملت عمارة السور المحيط بالاسكندرية فى سنة ٥٧٢هـ [2] ، وعندما افتتح القدس أمر باحكام سورها ، وأسس المدرسة

(١) المقريزى ، السلوك ، ج١ قسم ١ ص ١١١.
(٢) نفس المصدر ، ج١ ص ٧٦.
(٣) أبو شامة ، ج٢ ص ٤٨٦ . ابن واصل ، ج١ ص ١٩٩ .

والرباط والبيمارستان وأوقف عليها الأوقاف [1] ، وكذلك أقام بالاسكندرية مدرسة وبيمارستانا ودارا للمغاربة فى سنة ٥٧٧هـ [2] .

٢- قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية وكان حريصا على نشر المذهب السنى وازالة آثار التشيع، فاهتم لذلك بانشاء المدارس السنية ورعاية التعليم السنى، والمعروف أن أول مدارس خاصة اقيمت فى الاسلام هى المدارس التى اتخذها اصحابها فى دورهم بخراسان فى عهد السلطان محمود الغزنوى (أواخر القرن الرابع الهجرى) وأهمها البيهقية ومدرسة الاستراباج، ثم ظهر نظام الملك وزير السلطان ملكشاه، بعد ذلك بخمسين سنة فأنشأ اول مدرسة رسمية وهى المدرسة النظامية، وأصبحت المدارس منذ ذلك الحين منشأة من منشآت الدولة يتخرج فيها الاداريون ، كما اتخذ نظام الملك من المدارس وسيلة من وسائل الدعاية السنية لمحاربة الشيعة ، فأكثر من انشاء المدارس فى نيسابور وبغداد والبصرة وأصفهان، وانتشرت المدارس بعد نظام الملك فى دولة السلاجقة ، ثم على أيدى الأتابكة ، وأقام عماد الدين زنكى وولده نور الدين محمود الكثير منها فى الموصل وحلب ودمشق ، ثم قدر لصلاح الدين أن ينشر نظام المدارس السلجوقية فى مصر والشام ، ففى مصر أقيم ما يقرب من عشرين مدرسة فى العصر الايوبى نذكر منها: المدرسة الناصرية (سنة ٥٦٦هـ) والمدرسة القمحية والمدرسة القطبية (سنة ٥٧٠هـ) والمدرسة السيوفية

(١) ابن الأثير ، ج١٢ ، ص ٨٧
(٢) المقريزى، السلوك ج١ ص ٧٦

(سنة ٥٧٢) ومدرسة الخبوشاني (٥٧٥هـ) ومدرسة منازل العز أو التقوية التي أنشأها تقي الدين عمر (٥٧٩هـ) والمدرسة الفاضلية (٥٨٠هـ) والمدرسة الشرفية (٥٨٩) والمدرسة الأركشية (٥٩٢هـ) والمدرسة العادلية والمدرسة المصرورية (٦١٠) والمدرسة الكاملية (٦٢٢هـ) والمدرسة الفخرية (٦٢٢) ،والمدرسة الصيرمية (٦٣٦) والمدرسة الفائزية (٦٣٦) والمدارس الصالحية (٦٣٩). ولم يبق من هذه المدارس كلها في الوقت الحاضر الا آثار المدرسة الكاملية، والمدارس الصالحية بالقاهرة، ومدرسة البجم بالفيوم، وكانت جميع هذه المدارس مخصصة لتدريس مذهب واحد إما الشافعي أو المالكي.

أما المدرسة الكاملية [1] فقد تبقت منها آثار قليلة لاتكفي للدلالة على نظامها التخطيطي، وذكر المقريزي أن الكامل محمد أنشأ هذه المدرسة في سنة ٦٢٢هـ وأنه خصصها للحديث النبوي، ثم درس فيها المذهب الشافعي، وموقعها في خط بين القصرين وكانت هذه المدرسة تشتمل على ايوانين مقببين وهما قاعتان كبيرتان متقابلتان يصل بينهما رواق ويتوسطهما فناء مركزي ويطل عليه من الايوانين قوسان كبيران. ومن المعتقد أن نظام هذه المدرسة والمدارس المماثلة مشتق من نظام المسجد وليس كما يزعم كررول من نظام الدار.

المدارس الصالحية:

بدأ تأسيسها في خط ما بين القصرين في سنة ٦٣٩هـ [2]، وهي

(١) وتعرف أيضا بدار الحديث (المقريزي، الخطط، ج٢ ص ١٩٧)

(٢) المقريزي، السلوك، ج١ قسم ٢ ص ٣٠٨

أول مدرسة أقيمت فى مصر لتدريس المذاهب الأربعة. وقد سبقتها فى بغداد المدرسة المستنصرية. وآثار المدارس الصالحية ما تزال واضحة وكاملة ويعلو واجهة بناء هذه المدارس أكثر من نقش كتابى أحدها بطالع فيه (بسمله أمر بانشاء هذه المدارس المباركة مولانا السلطان الأعظم الملك الصالح نجم الدين بن محمد بن أبى بكر بن أيوب فى سنة إحدى وأربعين وستمائة) ومنها نقش كتابى آخر نقرأ فيه : (بسم الله أمر بانشاء هذه المدارس المباركة ابتغاء مرضاة الله تعالى وطلبا لجزيل ثوابه مولانا السلطان الأعظم الملك الصالح نجم الدين سلطان الاسلام والمسلمين أبو الفتح أيوب بن السلطان الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين أعز الله سلطانه ونصر أولياءه وأعوانه)

ومن بين الآثار الأيوبية فى مصر الامام الشافعى التى بنيت فى سنة ٥٧٥هـ، وقبة ضريح الامام الشافعى الملاصقة لها وأقيمت فى عهد الكامل محمد سنة ٦٠٨هـ، ومنها ضريح الأمير أبى منصور اسماعيل بن حصن الدين ثعلب الذى جدد سنة ٦٤٠هـ، ومئذنة مشهد الحسين التى أنيمت فى سنة ٦٣٣هـ وقبة شجر الدر التى أقيمت فى بداية عصر المماليك ودفنت فيها السلطانة شجر الدر، وقد نقش تحت القبة نقش كتابى فى افريز ملون بطالع فيه (بسملة هذه تربة الستر الرفيع والحجاب المنيع عصمة الدنيا والدين والدة الملك المنصور خليل ابن مولانا السلطان الصالح نجم الدين أبى الفتح أيوب بن مولانا السلطان الملك الكامل ناصر الدين أبى المعالى محمد بن أبى بكر بن

أيوب خليل أمير المؤمنين قدس الله روحها ونور ضريحها التى حظيت الأقلام بمناقبها على منابر الطروس ، وشهدت لها المفاخر بالمجد الثابت فى أعلى الفردوس الذى أضحت شموس مملكة لها طالعة وآراء الأمراء لها مطيعة وسامعة أعز الله أنصارها وضاعف اقتدارها وأعلى منارها ووفق آراءها وجعل الجنة مثواها الأعلى أمين انها مؤيدة منصورة على مر الليالى والأيام بمحمد وبصحبه الطيبين الطاهرين الكرام).

أعمال صلاح الدين الحربية فى القاهرة :

بدأ صلاح الدين فى تعمير أسوار القاهرة فى ٥٦٦هـ (١١٧٠م) لأن اجزاء كبيرة من الأسوار الفاطمية كانت قد تخربت وتفتحت القاهرة فى هذه القطاعات للداخلين اليها والخارجين منها. وأغلب الظن أن هذه القطاعات كانت تقع شرقى القاهرة وجنوبها. ومضت بعد ذلك أعوام شغل خلالها صلاح الدين بتدعيم ملكه فى مصر والشام ثم فكر صلاح الدين فى انشاء قلعة بالقاهرة ، فبالرغم من اعتزازه بقوته وثقته فى استقرار حكمه فانه فكر فى أن يكون له بالقاهرة حصن يتحصن فيه وقت الحاجة ويحتمى فيه عند الضرورة، و ولعل ما كان يعرفه عن النظم الدفاعية ببلاد الشام وعن احاطة مدنها بأسوار قوية لحمايتهما من الاعداء، وحيازتها على حصون وقلاع يلوذ بها سكان المدينة فى ساعات الخطر ، أو يلجأ اليها الولاة اذا ثار الأهالى عليهم ، لعل فى ذلك ما دفعه الى التفكير الجدى فى تدعيم اسوار القاهرة وتزويد عاصمة ملكه باحدى القلاع. ويذكر المقريزى فى ذلك أن

سبب بنائه لها: « أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لما أزال الدولة الفاطمية من مصر، واستبد بالأمر لم يتحول من دار الوزارة بالقاهرة ولم يزل يخاف على نفسه من شيعة الخلفاء الفاطميين بمصر ومن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي سلطان الشام رحمة الله عليه، فامتنع أولا من نور الدين بأن سير أخاه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب في سنة تسع وستين وخمسمائة الى بلاد اليمن لتصير له مملكة تعصمه من نور الدين، فاستولى شمس الدولة على ممالك اليمن، وكفى الله تعالى صلاح الدين أمر نور الدين ومات في تلك السنة فخلا له الجو وأمن جانبه، وأحب أن يجعل لنفسه معقلا بمصر، فانه كان قد قسم القصرين بين امرائه وأنزلهم.[1] ». ولاشك أن موقع القلعة كان جديرا بالاختيار من الوجهتين الاستراتيجية والمناخية، وأنه كان يجمع بين صعوبة المنال وجفاف الجو. وأسند بنيانها الى بهاء الدين قراقوش الأسدى وفى ذلك يقول المقريزى: « وقدم القاهرة في سادس عشرى ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين بعد ما كانت لعساكره حروب كثيرة مع الفرنج، فأمر ببناء سور يحيط بالقاهرة ومصر (أى الفسطاط) وقلعة الجبل، وأقام على بنائه الامير بهاء الدين قراقوش الاسدى، فشرع فى بناء قلعة الجبل وعمل السور، وحفر الخندق حوله[2] ». ويتبين من هذا النص أن أعمال صلاح الدين الانشائية الحربية فى القاهرة كانت تهدف الى غرضين: الأول تحصين القاهرة ضد

(١) المقريزى، الخطط، ج٣ ص ١٢١
(٢) نفس المصدر، ص ١٦٨

العدو أيا ماكان واحاطتها بسور من جميع الجهات، والثانى اقامة قلعة بالقاهرة لحمايته بحيث تضم جميع المرافق التى تحتاج اليها فى أوقات الحصار من أسواق ومتاجر ومساكن واصطبلات وثكنات للجند وحمامات ومساجد. غير أن صلاح الدين ظل يقيم بدار الوزارة ولم ينزل بالقلعة التى أنشأها ولا بأحد قصرى الخلافة الفاطمية على الرغم من استيلائه عليهما بعد وفاة العاضد ، ويقال أنه كان يتردد على القلعة للاقامة فيها أيانا، ولهذا سميت دار الوزارة فى عهد صلاح الدين بالدار السلطانية، ونزل بها ابنه الملك العزيز عثمان والملك المنصور محمد والملك العادل أبو بكر ثم الملك الكامل محمد . وكان الكامل هذا أول من انتقل من دار الوزارة الى القلعة وأقام بها وسكنها مع أهله وحاشيته، وكان انتقاله الى القلعة فى سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) أيام كان نائبا عن أبيه العادل. ثم سكن القلعة منذ أيام الكامل حكام مصر حتى عهد محمد على باشا . .

ولم يتح لصلاح الدين أن يشهد تتمة الأعمال الانشائية التى شرع فيها بالقلعة وقد تعهد العادل وابنه الكامل هذه الاعمال واستكملا انشاءها ، وكان مشروع انشاء القلعة يستلزم حفر خندق عميق يحيط بالأسوار الشمالية والشرقية، وقد شاهد المقريزى آثار الخندق باقية. وكان الخندق عاملا كبيرا فى زيادة مناعة الاسوار بالاضافة الى المرتفعات الصخرية التى كانت تحدها جنوبا وشرقا .

وصف أسوار القاهرة وقلعة الجبل:

كانت أسوار القاهرة فى عهد المعز لدين الله الفاطمى مقامة من الآجر أو اللبن وكان لها بابان ينفتحان فى الجنوب هما بابا زويلة، وبابان غربا هما باب الفرج وباب سعادة [1] وأضيف الى بابى زويلة وبابى الفرج وسعادة باب ثالث هو باب القنطرة وباب رابع باب الخوخة ينفتحان أيضا فى السور الغربى . أما السور الشمالى فكان ينفتح فيه بابان هما باب الفتوح وباب النصر ، والسور الشرقى بابان أيضا هما باب البرقية وباب القراطين الذى أطلق عليه فيما بعد اسم باب المحروق [2] ثم أضيف اليهما باب يعرف بالباب الجديد [3] . ثم اتسعت القاهرة، وفاض عمرانها خارج النطاق المسور، واضطر الأهالى الى نقب ثغرات فى أسوار القاهرة تيسيرا للاتصال بين ظاهر المدينة وبين المدينة نفسها، وأصبحت القاهرة مفتوحة للداخلين اليها والخارجين منها، وساعد ذلك على اضطراب أحوال المدينة فى عهد المستنصر بالله عندما اشتد الصراع بين العسكر التركى وأجناد السودان مما دعا الوزير بدر الجمالى الى عمارة السور القديم بحيث يضم السور الجديد المناطق التى استجدت خارج أسوار جوهر، وكان شروع بدر الجمالى فى بناء السور الجديد سنة ٤٨٠ هـ ، وأقامه من اللبن فى حين أسس الأبواب من الحجارة فى سنة ٤٨٥ هـ. واتخذ لبابى الفتوح

(١) هو سعادة بن حيان غلام المعز لدين الله، قدم الى القاهرة فى سنة ٣٦٠هـ فدخل من هذا الباب وبه عرف

(٢) المقريزى ، الخطط ج٢ ص ١٧٥ ، ١٧٦

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٠٦

والنصر باشورة أو عطفة منكسرة لتعوق المغيرين على المدينة عن هدفهم، بينما أقيم باب زويلة بدون باشورة [1] .

وعندما تولى صلاح الدين الوزارة للعاضد ابتدأ فى عمارة السور الثالث فى سنة ٥٦٦هـ ، فلما دالت دولة الفاطميين وقامت الدولة الأيوبية انتدب صلاح الدين بهاء الدين قراقوش الأسدى لبناء السور ، فبناه بالحجارة سنة ٥٧٢هـ ، وكان يهدف الى ضم القاهرة والفسطاط والقلعة بسور واحد ، ولهذا زاد فى سور القاهرة الفاطمى القطاع الممتد من باب القنطرة الى باب الشعرية [2] ، ومن باب الشعرية الى باب البحر حيث بنى قلعة المقس وهى برج كبير يطل على النيل كان يعرف ببرج قراقوش . ومد السور الشمالى من جهة الشرق مما يلى باب النصر الى باب البرقية والى درب بطوط والى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل [3] ، وكان مشروع صلاح الدين يهدف الى احاطة الفسطاط بسور جنوبى يضم آثار العسكر والقطائع والفسطاط وينتهى عند النيل ، كما كان يهدف الى احاطة القاهرة من الجهة الغربية بسور يمتد بحذاء النيل، ولكن هذه السور لم يتم انشاؤه اكتفاء بجسر النيل. كذلك لم يتهيأ لصلاح الدين أن يستكمل السور الممتد من القلعة الى جنوبى الفسطاط استنادا الى قول المقريزى : « وكذلك لم يتهيأ له أن يصل سور قلعة الجبل بسور

---

(١) نفسه ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٢) نسبة الى طائفة من البربر يعرفون ببنى الشعرية وهم مزاتة وهوارة.

(٣) نفسه ، ص ٢٠٥ .

مصر »[1]، وان كانت الحفائر الحديثة قد أثبتت أن قطاعا من هذا السور قد شيد بالفعل ، كما أثبتت الدراسات الأثرية أن السور الشرقى قد أقيم بالفعل ، وتبقى منه برج الظفر .

أما القلعة فمدينة عظيمة تحدها أسوار وأبراج ضخمة تحيط بها من كل الجهات ، وتنقسم القلعة الى قسمين واضحى المعالم : الأول شمالى شرقى ، والثانى جنوبى غربى، وكل من القسمين تحده أسوار ويشتركان معا فى قطاع مشترك من هذه الأسوار. وبينما يدل مظهر القسم الجنوبى الغربى على أنه اشترك فى بنائه وبناء أسواره ولاة متعاقبون منذ عهد صلاح الدين الى عهد محمد على باشا فان مظاهر الاسوار فى القسم الشمالى الشرقى تدل على تناسق فى البناء وعلى انتمائها الى عصر واحد. وقد أثبتت الدراسة الأثرية أنها أقيمت فى العصر الأيوبى وأن القسم الأعظم منها يرجع الى أيام صلاح الدين والعادل والكامل محمد، وهذا القسم عبارة عن مستطيل غير منتظم الشكل يبلغ طوله ٥٦٠ مترا من الشرق الى الغرب، وعرضه نحو ٣١٧ مترا من الشمال الى الجنوب ، ويبلغ محيط الاسوار جميعا نحو ٢ كيلو مترا. أما السور المشترك فيمتد مسافة ١٥٠ مترا وهو سور سميك ضخم ينتهى صرفاه ببرجين عظيمين وتتوسطه بوابة كبيرة تعرف بباب القلة وتسمى أيضا بالبوابة الداخلية ، ويحف بها برجان. أما القسم الجنوبى الغربى من القلعة فأصغر قليلا من القسم الشمالى ، وينفصل

---

(١) المقريزى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٥ .

عنه بزاوية حادة، وشكله غير منتظم. وتختلف أسوار هذا القسم عنها فى القسم الشمالى، إذ بينما تعترض الاسوار فى القسم الشمالى الشرقى أبراج عديدة مستديرة وشبه مستديرة فان أسوار القسم الجنوبى الغربى تكاد تنتصب فى شكل ستارة ممتدة لاترتكز عليها أبراج، فهى بدنة متصلة. كذلك يختلف القسم الشمالى عن الجنوبى فى أن الأول يتخذ مظهر التحصينات العسكرية بينما يتخذ القسم الجنوبى الغربى مظهر المدينة الملكية التى تضم القصور والمساجد والحمامات والاسواق. ويتمثل هذا الاختلاف فى قول المقريزى: « وصفة قلعة الجبل أنها بناء على نشز عال يدور بها سور من حجر بأبراج وبدنات حتى تنتهى الى القصر الأبلق ثم من هناك تتصل بالدور السلطانية على غير أوضاع أبراج القلاع »[(1)].

ويدخل الى القلعة من بابين أحدهما باب المدرج، والثانى باب القرافة الذى كان يسمى احيانا بباب سرية وأحيانا بباب الأمام.

ومن المظاهر المعمارية لأسوار القلعة وأبراجها أن الاسوار تمتد فى سمك يبلغ ثلاثة أمتار، ويتخلل هذه الاسوار ممر يبلغ عرضه نحو ٩٠ سم، وتنفذ فى هذا السور فتحات كثيرة للاضاءة، وترتكز بدنات السور على أبراج تتوزع على مسافات متقاربة، وهذه الأبراج مختلفة الشكل فمنها أبراج نصف أسطوانية وأخرى متجاوزة نصف الاسطوانية ومنها مايتخذ شكل مستطيل. وتتميز أبراج عصر صلاح الدين بأن

(١) نفسه، ج٣، ص ١٢٣.

جميعها نصف أسطوانية أو متجاوزة حسب موقعها من الاسوار، وأن كل برج منها يشتمل على غرفة مستطيلة الشكل ٢,٥ ×٥,٥ م٢ تقريبا وتنفتح فى هذه الغرفة غرفتان جانبيتان على هيئة ذراعين ، ولكل منها ثلاث مزاغل للسهام. أما الأبراج التى أقيمت زمن العادل أو الكامل محمد مثل برج الطرفة وبرج كركيالان فلكل منها ٣ طوابق ، وتتعدد فيها المزاغل وغرف الرماة .

وتتميز الاسوار والأبراج بأنه استخدم فى بنائها كتل حجرية مسنمة، وأنه كان يعلوها فى بعض الأبراج شرفات بارزة (مشكولى) ويتمثل هذا فى برج الحداد (حيث توجد ثلاث شرفات) وفى برج كركيالان (حيث توجد ٥)، وقد انتشر استخدام هذا العنصر المعمارى فى العمارة الحربية الاسلامية قبل أن يشيع استخدامه فى العمارة الحربية الأوروبية [١]

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن القلعة، ارجع الى :

Greswell, Archaeological researches at the citadel of Cairo. B.I.F.A.O. t XXIII, Le Caire, 1924.

وبول كازانوفا ، تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ترجمة دكتور أحمد دراج، القاهرة ، ١٩٧٤

ثانيا - المماليك البحرية

(١)

أصل المماليك وأولويتهم فى العالم الاسلامى

يعتبر عصر المماليك من أهم عصور مصر الاسلامية سواء من حيث التاريخ السياسى أو من حيث الازدهار الحضارى، وعلى الرغم من أن سلاطين المماليك كانوا غرباء عنها الا أن هذه الدولة حققت للبلاد المصرية والشامية السيادة والاستقلال، ودفعت مصر الى مركز الزعامة بين الدول الاسلامية بوجه عام . وقد حكم المماليك مصر ٢٧٥ سنة هجرية (٦٤٨ -٩٢٣هـ) أو ما يقابل ٢٦٧ سنة ميلادية (١٢٥٠ - ١٥١٧م) .

والمملوك [١] عبد يباع ويشترى الا أنه اصطلح على اطلاقه على فئة من العبيد كان الأمراء والسلاطين والخلفاء يشترونهم لتكوين فرق خاصة فى جيوشهم، ومن المعروف أن خلفاء الدولة العباسية وأمراء الدولة الاموية فى الاندلس وأمراء الدول المنقطعة فى المشرق والمغرب،

---

(١) انظر : الدكتور أحمد فكرى ، السلوك ، مجلة الكاتب المصرى، القاهرة ١٩٤٦ (عدد يونيو) - أحمد مختار العبادى، الصقالبة فى اسبانيا، منشورات المعهد المصرى بمدريد ، مدريد ١٩٥٣

أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك فى مصر والشام ، الاسكندرية ١٩٨٢.

سعيد عاشور مصر فى عصر دولة المماليك البحرية؛ القاهرة ١٩٥٩.

سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام، القاهرة ١٩٦٥

ابراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة ١٩٦٠.

عبد المنعم ماجد : نظم المماليك ورسومهم فى مصر ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٦٤

أقبلوا على شراء المماليك الترك والصقالبة واستخدموهم كعنصر حربي بديل عن العنصر العربي أو الفارسي في الجيش وفي الادارة الحكومية وفي القصور، ويعتبر الخليفة المعتصم العباسي أول من استكثر من خلفاء بني العباس من الترك لاستخدامهم في الجيش كقوة فتية جديدة ربما لما كانوا يتصفون به من شجاعة وبسالة في القتال [1]. أو لان المعتصم لم يكن يثق في الفرس وأراد أن يكسر حدة شوكتهم وذلك بالاعتماد على عنصر جديد غيرهم [2] أو اعتقادا منه خطأ بأن الترك مجردون من الطموح الذى اتصف به الفرس ومن العصبية التي عرف بها العرب [3]. ومن المعروف أن الخليفة العباسي المأمون كان أول من أقبل على شراء العبيد الترك واستخدمهم في بعض حرسه، وان كانوا قد بدأوا يتسللون في الجيش العباسي قبل ذلك في عهد المنصور، وفي عهد المهدى، وأدوا دورا هاما في القضاء على مقاومة الخوارج الذين ثاروا بقيادة عبد السلام اليشكري في عهد المهدى [4]، وقد استعان المأمون بالمماليك الاتراك بالاضافة الى أجناده الفرس وبعض رجالات العرب في صراعه ضد أخيه الأمين. وفي عهده أهدى اليه نوح بن أسد الساماني عامل بخارى غلمانا من الاتراك، من بينهم طولون الذى قدر لابنه أحمد فيما بعد أن يستقل بمصر مؤسسا الدولة الطولونية. ويذكر

(١) فاروق عمر، محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية في عهد الفوضى العسكرية، بغداد ١٩٧٣، ص ٢٨.
(٢) عبد المنعم ماجد، العصر العباسي الأول ،ج١ ، القاهرة ١٩٧٢، ص ٣٨٨.
(٣) أحمد مختار العبادى ، في التاريخ العباسي والفاطمي ، الاسكندرية ١٩٨٢، ص١١٧.
(٤) فاروق عمر ، المرجع السابق ص ٢٦

المقريزى أن طولون هذا من قبائل الطغزغز التركية ،وأنه حمل الى المأمون سنة ٢٠٠هـ [1] ويعتبر الطولونيون والإخشيديون أول من استكثر من مماليك الترك فى مصر، فقد ذكر المقريزى أن ابن طولون استكثر من اقتناء المماليك الاتراك حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك، ويذكر ابن تغرى بردى أن محمد بن طغج الاخشيد كان ينهج نهج الطولونيين فى اتخاذ المماليك الترك والعبيد السود ، وأن عدد المماليك الأتراك بلغ فى أيامه ثمانية آلاف [2] .

أما المماليك الصقالبة فقد اختص بهم الامويون فى الاندلس والاغالبة ثم الفاطميون فى المغرب ومصر، وكان معظم المماليك الصقالبة يجلبون من سواحل البحر الأسود ومن لمبارديا وقلورية (كالابريا) ومن قطلونية وجليقية فى شبه جزيرة أيبيريا . وفى ذلك يقول ابن حوقل : « ومن مشهور جهازهم الرقيق من الجوارى والغلمان والروقة من سبى افرنجة وجليقية والخدم الصقالبة، وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان فمن جلب الاندلس .. والنصف الشمالى (من بلاد الصقالبة) يسبيه الاندلسيون من جهة جليقية وافرنجة وانكبردة وقلورية .. » [3] . وكانوا يأتون بهؤلاء الرقيق الصقالبة أطفالا الى الاندلس، فيدربونهم على القتال وأعمال القصر ثم

(١) المقريزى، الخطط ، ج٢ ص ٩١ .
(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج٣ ص ٢٥٦
(٣) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ . وارجع إلى أحمد مختار العبادى فى كتابه « الصقالبة فى إسبانيا » من منشورات المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد .

يستخدمونهم فى قيادة الجيش وفى ادارة الدواوين والخطط الرئيسية فى الدولة ، وكذلك يكلون اليهم القيام بالاشراف على البنيان، وقدر للصقالبة أن يؤسسوا دولا مستقلة فى عصر الطوائف فى شرق الاندلس، ومنها دولة خيران وزهير العامريين فى المرية ودولة مبارك ومظفر العامريين الصقلبيين فى بلنسية، ودولة مجاهد العامرى فى دانية [1] . أما فى المغرب فقد كان مصدرهم جزيرة صقلية وسواحل الادرياتى ، ويشير البكري الى أن بنى صالح أصحاب نكور بالمغرب الاقصى ، اعتمدوا على المماليك الصقالبة، ولكثرتهم أقاموا لهم قلعة خاصة تقع على مقربة من نكور عرفت بقلعة الصقالبة، وكذلك اعتمد الأغالبة فى المغرب الادنى على الفتيان الصقالبة بعد أن أصبح الاغالبة يملكون جزيرة صقلية وسواحل ايطاليا الجنوبية، ومن الامثلة الدالة على كثرتهم أن زيادة الله الثالث عندما رحل الى مصر وقت سقوط دولته على أيدى الفاطميين انتخب من عبيده الصقالبة ألف خادم، وجعل على وسط كل واحد منهم ألف دينار [2] ، وورث الفاطميون عن الاغالبة هذه التقاليد، فاتخذوا المماليك الصقالبة فى قيادة الجيوش وفى ادارة شؤون الدولة، وبرز منهم جوهر الصقلى أو الصقلبى ، ودنيا الصقلبى ، وبرجوان الصقلبى ، وأطلق الفاطميون على أحد شوارع القاهرة اسم

---

(١) أحمد مختار العبادى ، الصقالبة فى اسبانيا ، ص ٢٠ - ٢٦ ، قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ص ٣٦ - ٥٧ .

(٢) ابن الخطيب ، كتاب أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، القسم الخاص بتاريخ المغرب ، تحقيق د. أحمد مختار العبادى والاستاذ محمد ابراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ ص ٤٣ .

ومع ذلك فقد كان المماليك الاتراك يشكلون فى العصر الفاطمى قوة هائلة ، وكثيرا ما اشتبكوا مع العناصر العربية فى معارك طاحنة الأمر الذى أدى الى استنجاد المستنصر بالله بأمير الجيوش بدر الجمالى ، ونجح بدر الجمالى فى القضاء على رؤوس الفتنة وأعاد الامن الى نصابه . وكان طبيعيا أن يعتمد صلاح الدين بعد قضائه على الدولة الفاطمية على العناصر التركية بالاضافة الى الاكراد فى فرق الجيش متبعا فى ذلك التقاليد السلجوقية والأتابكية ، ومن المعروف أن الأتابكية كانوا فى الأصل مماليك للسلاجقة ، وكان معظم مؤسسى الأتابكيات من المماليك الذين كانوا يجلبون من بلاد القفجاق وتولوا أرفع المناصب ، وقد نجح هؤلاء الأتابكة – بعد تصدع دولة السلاجقة وانقسام السلاجقة على أنفسهم – فى اقامة أتابكيات مستقلة لهم ، ومن أشهر هذه الأتابكيات أتابكية الأراتقة أصحاب حصن كيفا وماردين (1) ، وأتابكية خوارزم وتنسب الى محمد خوارزم شاه بن

---

(1) ينتسب الأراتقة الى الأمير أرتق بن أكسب التركمانى أحد كبار مماليك ملكشاه السلجوقى ، وهو جد الأراتقة أصحاب حصن كيفا وماردين (ابن الأثير ، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل ، تحقيق عبد القادر طليمات ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٢٥. وكان أرتق قد استولى على القدس فى سنة ٤٤٧ هـ ، ولما توفى فى سنة ٤٨٤ هـ ، تولى بعده ولداه سكمان وايلغازى ابنا أرتق ، ثم تمكن الوزير الأفضل شاهنشاه من انتزاع القدس منهما سنة ٤٩١ هـ ، فالتجها الى الجزيرة الفراتية ، وتملكا ديار بكر ، واستولى نجم الدين ايلغازى على مدينة ماردين سنة ٥٠١ هـ (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، مجلدا ، بيروت ١٩٦٨ ، ترجمة رقم ٨٠ ، ص ١٩١)

أنوشتكين [1] ، وأتابكية أرمينية [2] وأتابكية أذربيجان [3] ، وأتابكية الموصل التى أسسها عماد الدين زنكى بن قسيم الدولة آقسنقر فى سنة ٥٢١هـ [4] ، وأتابكية دمشق التى تنسب الى طغتكين [5] .

---

(١) كان أنوشتكين مقربا من السلطان ملكشاه، وكان يشغل وظيفة الساقى فى بلاطه، وتدرج فى المناصب فى عهده، وارتفعت منزلته فى عهد السلطان بركيارق بن ملكشاه، وكانت لابنه محمد شهرة واسعة فى العلوم والآداب، فقلده السلطان بركيارق ولاية خوارزم ومنحه لقب شاه وتوارث بنوه هذا اللقب فعرفوا بشاهات خوارزم واتسعت أملاك محمد بن أنوشتكين وشملت مناطق واسعة من بلاد الخطا والعراق العجمى ، وذلك على أثر هزيمة طغرلبك آخر سلاطين السلاجقة بالعراق فى سنة ٥٩٠هـ ، وزاد اتساعها فى عهد علاء الدين خوارزم شاه فشملت بلاد ما وراء النهر وامتدت بعد استيلائه على غزنة فى سنة ٦١٢هـ حتى بلغت غربى نهر السند، وعرفت مملكته بالدولة الخوارزمية وقد سقطت هذه الدولة على أيدى المغول بعد مصرع جلال الدين منكبرلى بن علاء الدين خوارزم شاه بجبال كردستان سنة ٦٢٨هـ (الذهبى ، دول الاسلام ، حيدر أباد الدكن ، ١٣٦٤هـ ، ج٢ ص ١٠١ - حسين أمين ، العراق فى العصر السلجوقى ، بغداد ، ١٩٦٥ ، ص ٢٦٨ وما يليها).

ومن فلول الجيش الخوارزمى تشكلت فرق الخوارزمية المرتزقة الذين اشتغلوا لحسابهم الخاص ودخل بعضهم فى خدمة ملوك بنى أيوب ، ومنهم كانت البذور الاولى التى نبتت منها دولة المماليك البحرية .

(٢) مؤسسها سقمان القطبى مملوك قطب الدين اسماعيل والى مدينة مرند بأذربيجان .

(٣) أسسها ايلدكز مملوك السلطان مسعود السجلوقى ، وقد سقطت هذه الأتابكية على يد منكبرلى فى سنة ٦٢٢ هـ .

(٤) انظر التفاصيل عن نشأة أتابكية الموصل فى د. رشيد الجميلى ، دولة الأتابكة فى الموصل بعد عماد الدين زنكى ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٣٥ -٤٨ . ومن الجدير بالذكر أنه عن طريق آل زنكى كان ظهور الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الذى استقل بمصر مؤسسا الدولة الأيوبية .

(٥) هو ظهير الدين طغتكين أتابك أحد قادة جيش السلاجقة، وكان مملوكا للسلطان تاج الدولة تتش، ثم أصبح بعد مصرع تتش أتابكا لولده شمس الملوك دقاق بن تتش . ولما توفى شمس الملوك فى سنة ٤٩٧هـ ، تولى ظهير الدين طغتكين أتابكية دمشق مستغلا حضانته لتتش ولد شمس الملوك دقاق الصغير، وقد توفى طغتكين فى سنة ٥٢٢هـ ، وخلفه ابنه تاج الملوك بورى واستمرت أتابكية دمشق تابعة لبنى طغتكين الى أن استولى نور الدين محمود بن زنكى على دمشق سنة ٥٤٩هـ وانتزع الأتابكية من صاحبها مجير الدين أبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بورى بن طغتكين (ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ١٤٤ - ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ، ج١١ ،ص٩٧)

كان طبيعيا أن يتأثر صلاح الدين بالنظم السلجوقية التى توارثها أتابكة الموصل وحلب ودمشق وينقلها الى مصر بعد توليه السلطنة، ومن هذه النظم على سبيل المثال استخدام الجاليش [1] فى مقدمة الجيوش، وحمل الغاشية بين يدى السلطان فى المواكب [2]، والاستكثار من المماليك الترك واستخدامهم فى الجيش رغم كون الأيوبيين أكرادا ؛ فكانت هناك طائفة من المماليك الأسدية، والمماليك الصلاحية أو الناصرية والمماليك العادلية، والمماليك الكاملية شاركت فى المعارك التى خاضها سلاطين بنى أيوب ضد قوى الفرنج كما لعبوا دورا هاما فى الصراعات القائمة بين أمراء البيت الأيوبى، بل أن هذه الصراعات دفعت الكثيرين من أمراء الايوبيين وسلاطينهم الى الاستكثار من المماليك بحيث أصبحوا القوة المسيطرة على الدولة، وصار فى امكانهم خلع السلاطين الضعاف وتولية سلاطين آخرين، والى الملك الصالح نجم الدين أيوب يرجع الفضل فى انشاء قلعة المماليك البحرية المنسوبين اليه (الصالحية)، وسموا كذلك أما لاقامتهم فى جزيرة الروضة ببحر النيل، أو لأنهم أتوا من وراء البحار [3] . كذلك استحداث نظام المدارس السلجوقية السنية لمحاربة المذهب الشيعى ، وهو نظام انتشر فى دولة السلاجقة ثم فى الأتابكيات

---

(١) الجاليش خصلة من الشعر كانت ترفع بأعلى الراية فى مقدمة الجيش ثم أصبحت تطلق على طلائع الجيش والجاليشية هم مقدمة الجيش وطليعته .

(٢) الغاشية سرج من الجلد المخروز بالذهب يحمل بين يدى السلطان، وأصبحت فى عصر الايوبيين والمماليك رمزا للملوكية .

(٣) أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ٩٩

المختلفة منذ أن أسس الوزير نظام الملك السلجوقي المدرسة النظامية .

وكان الصالح نجم الدين أيوب قد بالغ في شراء المماليك الأتراك وكون منهم معظم جيشه [1] ، وخصص لإقامتهم - لما تزايدت اعتداءاتهم على الأهالي - قلعة بجزيرة الروضة ابتناها لهم خصيصا سنة ٦٣٨هـ (١٢٤١م) وعرفت بقلعة المقياس وبقلعة الروضة، وبقلعة الجزيرة وبالقلعة الصالحية [2] ، وانتقل لسكناها من القلعة ، وقد قيل عن المماليك الأتراك المجلوبين من القفجاق أو من بلاد فرغانة وأشروسنة وأنه لم يكن لديهم تمسك بدين ولا رزانة في عقل، ومع ذلك فقد كانوا مثلا رائعا في الوفاء لساداتهم، وشجاعة في القتال مع تمام قاماتهم وحسن صورهم وطرافة شمائلهم، وقد حمد لهم الاسلام مواقفهم البطولية المشرفة في الذب عن الدين وحمايته والتفاني في الدفاع عنه، وعلى الرغم من ظروف نشأتهم وشراستهم واكتظاظ عهودهم بالدسائس والفتن، فانهم سواء في ذلك الأمراء منهم أم السلاطين كانوا ينعمون بجميع ألوان الترف في الحياة، وحاطوا أنفسهم بكل مظاهر الفن والجمال، ولهذا كان عصرهم عصر ازدهار للفنون جميعا ، وليس أدل على ذلك من آثارهم المعمارية التي امتلأت بها القاهرة، والتحف الفنية التي اكتظت بها المتاحف من احجار ومعادن وخزف وزجاج وخشب، حتى قيل أن المماليك كانوا يتخذون الفن مظهرا من مظاهر سلطانهم وأداة لاشباع أطماعهم ، ولم يبلغ الفن

(١) المقريزي ، السلوك ، ج١ ص ٣٤٠
(٢) المقريزي ، الخطط ، ج٣ ص ٩٣

الاسلامى فى مصر فى أى عصر من العصور ما بلغه فى عصر المماليك من تنوع المصادر والأشكال والعناصر والألوان، لاسيما فى القاهرة التى أصبحت فى هذا العصر زعيمة العالم الاسلامى وأبعدها أثرا فى الفنون والبناء. ويكفى للدلالة على تفوق القاهرة على حلب ودمشق والقدس وغيرها من حواضر العالم الاسلامى استعراض قائمة الآثار المعمارية المتخلفة من عصرهم فى القاهرة دون الأخذ فى الاعتبار مدى فخامة هذه الآثار الملوكية والعناية الفائقة التى خص بها المماليك مبانيهم وهذا يعبر فى حد ذاته عن التشجيع المتواصل الذى كان يسبغه سلاطين المماليك وأمراؤهم لرجال الفن والصناعة وبسط حمايتهم على الفنون ، واذا كان هناك من يقول بأن المشرف على البنيان فى عصر المماليك كان يشهر السوط على العبيد، ويكره العمال على العمل بالضرب المبرح فليس من المنطقى أن نصدق هذا الزعم ونتخيل أن المبانى المتخلفة من هذا العصر والتى تتمثل فى بنائها كل مظاهر الجمال من حيث التوازن والانسجام مع الضخامة والاتساع إنما أقيمت وصيغت عن طريق القهر والضرب بالسياط ، بل على الضد من ذلك فان هذه المبانى العظيمة والتحف القيمة التى تخلفت من عصر المماليك لتنطق بما لايدع مجالا للشك بأن الحياة الفنية كانت ميسرة لهؤلاء القوم الذين أقاموها ، وأن الظروف كانت مواتية بحيث حببت الى رجال الفنون والبناء أعمالهم وانتاجهم الفنى ، فليس فى تصميم الواجهات المعمارية وانتصاب المآذن ذات المباخر والجواسق المسحوبة وارتقاء القباب مايوحى بنوع من الضغط والاستعباد الفنى .

ثم أن تخطيط المباني ونظام بنائها وتوزيع الكتل والفراغ بها على نحو متناسق تنهض دليلا ساطعا على مقدرة رجال البناء، وعلى معرفتهم التامة بأصول الهندسة والرسم والحساب ، وعلى ارتفاع ذوقهم الفنى وقدرتهم البالغة على استيعاب أسرار الجمال .

كان عصر المماليك عصرا يموج بالأحداث المتلاحقة، من فتن وثورات ومعارك فى الداخل وفى الخارج ومصادمات، ولهذا انتشرت الفوضى والاضطراب فى عصرهم بل أن النظام الذى وضع بينهم كان مبعثا لهذه الفوضى، اذ أن الأمير منهم كان يبذل قصارى جهده للاكثار من عدد مماليكه زيما للمباهاة أو حرصا على سلامته ، وكثيرا ما كان يترك لهم المجال لشلب الناس أقواتهم عوضا عن الأجور التى كان يفرض عليه دفعها لهم، أو أنه كان يستغل نفوذه ومركزه السامى ليستولى على الأموال أينما تيسرت له وكيفما توصل الى الحصول عليها إما للبذل والبرطلة أو لشراء وظيفة أكثر سموا وإما ادخارا ليوم تفرض فيه عليه الغرائم الفادحة، وكان من العوامل المساعدة على ذلك وما يترتب عليه من سلب ونهب ودس وسفك دماء شعورهم بأن حياتهم رهينة بالاحداث ، فكانوا لايثقون فى غد ولايطمئنون لمستقبل ولهذا لم يتركوا أى فرصة تمنح لهم دون استغلالها إشباعا لاطماعهم وتحقيقا لمآربهم ، وكان الشعب المصرى الضحية دائما، فقد قاسى الأهالى الأهوال مما تسببه المماليك من اضطراب فى الحياة، ومن ارتكاب الاعمال الوحشية ، فكثيرا ما كانت القاهرة مسرحا لمعاركهم عندما يستضعفون سلطانا أو عندما تقع المنافسة بين اميرين من كبار

أمرائهم: كل هذا أحاط عصر المماليك بسلسلة متصلة من الفوضى وجعل القاهرة أشبه ببلد رزئت بالهزيمة، وتدفق فيها الغزاة، فاختلطت الجماهير فيها بالاجناد، ومن الغريب أن هؤلاء المماليك كانوا يستطيعون الجمع بين القسوة الوحشية وبين العطف والرحمة ، إما عن عقيدة واسخة أو عن سياسة كامنة، واستطاعوا رغم ذلك أن يجعلوا مصر عاصمة امبراطورية شاسعة الاطراف وزعيمة العالم الإسلامى ومقر الخلافة الإسلامية، واليهم يرجع الفضل فى القضاء على الإمدادات الصليبية فى الشام وتحرير مدنه من الاستعمار الصليبى، وحق لسلاطينهم أن يحملوا تلك الألقاب العديدة التى كانوا يسجلونها فى مكاتباتهم وعلى آثارهم ومنها: (السلطان الأعظم ، المالك ، الملك الأشرف ، السيد الأجل العالم العادل المؤيد المجاهد المرابط المثاغر المظفر الشاهنشاه ، ناصر الظالمين وارث الملك ، سلطان العرب والعجم والترك ، فاتح الأقطار ، مانح الممالك والأمصار ، اسكندر الزمان ولى الاحسان ، جامع كلمة الايمان ، مملك أصحاب المنابر والتخوت والتيجان ، ملك البحرين ، حامى الحرمين الشريفين ..) .

(٢)

مرحلة الانتقال من الأيوبيين إلى المماليك

افتتحت شجر الدر عصر المماليك بتوليها ملك مصر، وشجر الدر هي الملكة عصمة الدين أم خليل، كانت تركية الجنس، اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب، وحظيت عنده بحيث كان لايفارقها سفرا ولا حضرا، وأنجبت منه ابنا اسمه خليل توفي وهو صغير [١].

وهي أول ملكة حكمت مصر في العصر الاسلامي بل المرأة الوحيدة التي ارتقت عرش السلطنة المملوكية [٢] وهي على هذا النحو أول من تولى السلطنة من فئة المماليك الارقاء، وكان المماليك أمراؤهم وعساكرهم يحفظون لها ولزوجها الصالح جميل رعايتهما لهم، فاتفقوا على تنصيبها دست السلطنة، وأن تكون العلامات السلطانية على التواقيع تبرز من قبلها، وأن يكون مقدم العسكر الأمير عز الدين أيبك التركماني الصالحي، وحلفوا على ذلك في العاشر من صفر سنة ٦٤٨هـ (مايو ١٢٥٠م)، وخرج عز الدين الرومي من الدهليز السلطاني الى قلعة الجبل وأنهى الى شجر الدر ماتم الاتفاق عليه، وأصبحت التواقيع تبرز من قلعة الجبل وعلامتها عليها « والدة خليل »، وخط ب

---

(١) لمقريزى، السلوك، ج١ قسم ٢ ص ٣٦١

(٢) سبقتها السلطانة رضية الدين سلطانة دلهى (٦٣٤ -٦٣٨هـ ١٢٣٦ - ١٢٤٠م) وقد انتهى أمرها بأن قتلت في سنة ٦٣٨هـ راجع محمودة زكاة الله، دولة المماليك في الهند، رسالة دكتوراه).

لها على منابر مصر والقاهرة (١) «ونقش اسمها على السكة (٢)، وكان الخطباء يذكرون في الدعاء «اللهم وأدم سلطان الستر الرفيع، والحجاب المنيع، ملكة المسلمين، والدة الملك خليل»، وبعضهم الآخر يقول بعد الدعاء للخليفة :« واحفظ اللهم الجهة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح (٣)»، ويبدو أنها سجلت نسبتها الى الخليفة العباسي المستعصم في السكة والخطبة ترضيه للخليفة العباسي كي يعترف بشرعية حكمها (٤)، ولما انتهت مراسم توليها السلطنة ندبت الامير حسام الدين محمد بن أبي على الهذباني لاجراء المفاوضات مع الفرنج لتسليم دمياط والافراج عن ريدا فرنس (لويس التاسع ملك فرنسا) وتم تسليم دمياط للمصريين وابحار الملك لويس وأتباعه الى عكا في صفر ٦٤٨هـ. واحتفلت شجر الدر بذلك، وخلعت على الامراء وأرباب الدولة وأنفقت فيهم الأموال وفي سائر العسكر. ويبدو أن تولية شجر الدر السلطنة على مصر لم يلق قبولا حسنا عند الأمراء القيمرية بدمشق فلم يقبلوا توليها السلطنة واعترضوا على ذلك وبادروا باستقدام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى صاحب حلب، فخرج بعساكره ودخلها هو وأصحابه بدون قتال في ١٠ ربيع الآخر سنة

---

(١) نفس المصدر، ص ٣٦٢ - الخطط، ج٣ ص ١٧٤

(٢) يحتفظ المتحف البريطاني بدينار ضرب في القاهرة بتاريخ ٦٤٨هـ يحمل ألقاب شجر الدر ونصه :« المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة خليل أمير المؤمنين».

(٣) أحمد مختار العبادى، قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام، ص ١١٩ .

(٤) المقريزى، السلوك، ج١ قسم ٢ ص ٣٦٦

٦٤٨هـ ، كما استولى الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل أبي بكر على أموال مدينة غزة وملك قلعة الصبيبة، واستقل الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل بالكرك والشوبك وحلف الناس له [١] .

تحرج مركز شجر الدر بسبب ذلك، ولكن هذا الحرج ازداد عندما أبدى المصريون أنفسهم استياءهم من أن تحكمهم امرأة، ووقعت اضطرابات في القاهرة أدت الى اغلاق أبواب المدينة حتى لاتتسرب أنباء الاضطرابات ، اذ كانوا يعارضون أن تتولى السلطنة امرأة، وكان على رأس هؤلاء الفقهاء الشيخ عز الدين بن عبد السلام الشافعي [٢] . واضطر امراء المماليك الصالحية المؤيدون لشجر الدر الى أن يكتبوا الى الخليفة العباسي المستعصم يطلبون منه تعضيد مركز شجر الدر بسند شرعي يتمثل في اقرارها على السطنة. غير أن الخليفة أنكر ذلك ولم يتردد في ابداء معارضته لتوليها السلطنه وكتب يقول : « ان كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير اليكم رجلا [٣] . واتفق وصول كتاب الخليفة في نفس وقت ورود الخبر باستيلاء الملك الناصر على دمشق ، ففت ذلك في عضد الامراء البحرية، واجتمعوا للتشاور ، واتفقوا على اقامة الأمير عز الدين أيبك مقدم العسكر في السلطنة ولقبوه بالملك المعز، ولكي يسترضوا أمراء البيت الايوبي في الشام

(١) المقريزي ، السلوك ، ج١ قسم ٢ ص ٣٦٦ .
(٢) السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة ١٣٤٧ ص ١١٩
(٣) المقريزي ، السلوك، ج١ قسم ٢ ص ٣٦٨

اتفقوا أيضا على اقامة الملك الأشرف مظفر الدين موسى [١] بن الملك المسعود المعروف باسم اقسيس بن الكامل محمد، وكان له من العمر نحو ست سنين، ليكون شريكا للملك المعز أيبك، على أن يقوم الملك المعز بتدبير أمور الدولة ، فأقاموه سلطانا مشاركا فى ٣ جمادى الاولى من نفس السنة، فكانت المراسيم والمناشير تخرج من الملكين الاشرف والمعز. أما شجر الدر وكانت قد تزوجت من المعز أيبك فى ٢٩ ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ (أول أغسطس ١٢٥٠م) فقد كانت غزيرة العقل داهية التدبير ، قوية العزم، شاركت زوجها الصالح نجم الدين أيوب فى ادارة شئون البلاد [٢]، وانفردت بادارتها فترة من الوقت بعد وفاته، وعرفت عنها هذه المقدرة، فعظم مركزها فى النفوس ، ووقعت مهابتها فى القلوب ، ولم يبالغ ابن تغرى بردى عندما يصفها بأنها امرأة صعبة الخلق شديدة الغيرة قوية البأس ذات شهامة زائدة وحرمة وافرة [٣] ويذكر المؤرخون ان شجر الدر كانت تشارك زوجها أيبك فى الحكم طيلة السنوات السبع التى ولى فيها السلطنة وأنها كانت تدبر معه شؤون المملكة حتى آخر أيامه، بل أنها كانت تستبد ببعض الأمور ولاتطلعه على البعض الآخر منها، وقيل أيضا أنها كانت

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٧٤ .

(٢) كان الملك الصالح يحبها حبا عظيما، ويعتمد عليها فى أموره ومهماته (ابن تغرى بردى ، ج٦ ، ص ٣٧٤).

(٣) ابن تغردى بردى ، ج٦ ص٣٧٥ وابن اياس ، بدائع الزهور ، فى وقائع الدهور طبعة بولاق، ١٣١١هـ، ج١ ص ٨٩. ومما يعبر عن غيرتها أنها علمت برغبة أيبك فى التزوج بنت الملك الرحيم صاحب الموصل، عملت على قتله ، وقتلته فى الحمام، وأعانها على ذلك جماعة من الخدام وتم ذلك فى ٢٣ ربيع أول سنة ٦٥٥هـ .

(انظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٣٧٥ ، ج٧ ص ١٣).

تتحكم فيه الى حد أنها ألزمته بطلاق امرأته الأولى (١)، وكانت تتزعم حزبا قويا من الامراء والمماليك وأنها كانت تطلب مشورتهم في الأمور العظام فاذا رأت رأيا منهم استصوبته أخذت به واذا استصوبوا لها رأيا أقروها عليه. وهؤلاء المماليك الصالحية حاولوا الدفاع عنها عندما تم القبض عليها بعد أن قتلت زوجها أيبك وأودعت البرج الأحمر بالقلعة (٢).

أما المعز أيبك فكان ملكا حازما شجاعا سفاكا للدماء، قتل خلقا كثيرا، وشنق عالما من الناس بغير ذنب ليوقع مهابته في القلوب. وكان على علم بسطوة زوجته شجر الدر، فأظهر من حسن السياسة ما قرب هذه الملكة اليه وأخفى من الدهاء ما جعلها تطمئن الى ثبوت نفوذها عنده، وكانت السلطنة في فترة الانتقال هذه عبئا ثقيلا يتطلب الكثير من الجدارة والصبر والمثابرة. وكان أيبك يقدر أن الظروف قد تغيرت عما كانت عليه في عصر سلاطين بني أيوب، فلئن كان انفراد أيبك بالسلطنة قد جعل منه أول مملوك تركي يتبوأ دست السلطنة وكان عليه أن يجعل الناس يرضون بسلطان مسه الرق، فقد كان أيبك مملوكا للصالح أيوب شأنه في ذلك شأن الكثيرين من المماليك

---

(١) ذكر المقريزي أن شجر الدر كانت قد استبدت بأمور المملكة ولم تكن تطلعه عليها وأنها منعته من الاجتماع بأم ولده علي والزمته بطلاقها (السلوك، ج١ قسم٢ ، ص٤٠٣).

(٢) لما أقيم علي بن المعز أيبك في السلطنة بعد وفاة أبيه، حملت شجر الدر الى أمه في ٢٧ ربيع الأول سنة ٦٥٥ فضربها الجواري بالقباقيب حتى ماتت، ثم ألقوها من سور القلعة الى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقميص.
(المقريزي ، السلوك ، ج١ قسم ٢ ص ٤٠٤)

الصالحية، ولم يكن زملاؤه قد بايعوه الا لغرض فى نفوسهم، فقد ذكروا أنهم اختاروه ولم يكن من اعلاهم مرتبة ولا أقواهم شكيمه حتى يسهل عليهم خلعه اذا أرادوا . ويحكى فى ذلك أن سلطان دولة سلاجقة الروم لما استدعى فى سنة ٦٥٢هـ (١٢٥٤م) أمراء المماليك الذين كانوا قد لجئوا اليه فرارا من طغيان المعز أيبك بعد أن قتل فارس الدين أقطاى ورمى برأسه اليهم، فلم يشعروا الا ورأس أقطاى قد رمى بها المعز اليهم، فسقط فى أيديهم، وتفرقوا بأجمعهم وكانت طائفة كبيرة من كبار المماليك، نذكر منهم على سبيل المثال ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وسيف الدين بلبان الرشيدى ، وسيف الدين قلاوون ، وقشتمر العجمى ، وأيدمز الجمدار الرومى ، وأزدمر السيفى، استدعاهم اليه، وسألهم عن السبب فى خروجهم على استاذهم أيبك، فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى وقال : يامولانا من هو أستاذنا ؟ قال : الملك المعز صاحب مصر. فقال الباشقردى : يحفظ الله مولانا السلطان، ان كان الملك المعز قال فى كتابه انه استاذنا فقد اخطأ انما هو خوشداشنا ونحن وليناه علينا، وكان فينا من هو أكبر منه سنا وقدرا وأفرس وأحق بالمملكة، فقتل بعضنا ، وحبس بعضنا، وغرق بعضنا، فهربنا منه، وتشتتنا فى البلاد، ونحن التجأنا اليك، فأعجب سلطان الروم بهم واستخدمهم عنده »[1] .

واجهت السلطان المعز أيبك بعض المشكلات تتمثل فى ثورات الاعراب فى داخل مصر ضد حكم المماليك وفى تهديدات بقايا البيت

(١) المقريزى السلوك ، ج١ قسم ٢ ، ص ٣٩٣.

الايوبى فى الشام ، وأخيرا فى حركات المماليك ، فى الداخل والخارج.

١- ثورات الأعراب (٦٥١هـ) :

واجه أيبك مشكلة خطيرة فى الداخل تتمثل فى الثورة العارمة التى قام بها الأعراب فى مصر سنة ٦٥١هـ ، هؤلاء الأعراب أو العربان كما ورد فى المصادر العربية كانوا يشتغلون بالفلاحة، وكانوا يشاركون فى القتال ضد الصليبيين ، وقد أدوا خدمات جليلة للأيوبيين، ومع ذلك فقد أساء المماليك معاملتهم وتعسفوا معهم فى تحديد أثمان المحاصيل الزراعية واحتكروها مما أدى الى قيام هؤلاء العرب بالثورة على المماليك. وثورة الأعراب سنة ٦٥١هـ ترجع الى عوامل سياسية واقتصادية فى آن واحد فهم لم يرتضوا حكم المماليك الأرقاء كما أنفوا من خدمتهم ، ثم أنهم لم يمتثلوا لسياسة القهر التى درج عليها المماليك منذ أن قامت دولتهم .

تزعم هذه الثورة على الحكم المملوكى شريف علوى من بنى ثعلب هو الشريف حصن الدين ثعلب بن الامير نجم الدين على بن الأمير الشريف فخر اسماعيل بن حصن الدولة ثعلب الجعدى وأعلن أن ملك مصر يجب أن يكون للعرب وليس للعبيد الأرقاء (١) ، وفى ذلك يقول المقريزى : قال (يعنى حصن الدين ثعلب) : نحن أصحاب البلاد، ومنع الاجناد من تناول الخراج ، وصرح هو وأصحابه بأنا أحق بالملك من المماليك، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب وهم

(١) القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الانشا، القاهرة ١٩١٣، ج٤، ص٦٨.

خوارج خرجوا على البلاد ... ، وأنفوا من خدمة الترك، وقالوا انما هم عبيد للخوارج، وكتبوا الى الملك الناصر صاحب دمشق يستحثونه على القدوم الى مصر [١] .

ويذكر المقريزى أن العرب تجمعوا، وهم يومئذ فى كثرة من الخيل والمال والرجال الى الأمير حصن الدين ثعلب وهو بناحية دهروط صربان (ديروط الحالية) وأقبلوا اليه من أقصى الصعيد والوجه البحرى، وأطراف البحيرة والجيزة والفيوم وحلفوا له فبلغ عدة فرسانه ١٢ ألف فارس أما الرجالة فقد كانوا حشودا هائلة فاقت هذا العدد. وعلى الرغم من استطالة فارس الدين أقطاى كبير المماليك البحرية على المعز أيبك وتوثبه عليه هو ومماليكه حتى أنهم هموا بقتله، فقد جهز أيبك للعرب جيشا عدته خمسة آلاف فارس بقيادة فارس الدين أقطاى الجمدار وفارس الدين أقطاى المستعرب ووجهه الى الشرقية لاخماد ثورة الاعراب وعلى الرغم من التفوق العددى للعرب الا أنهم لم يتمكنوا من الصمود أمام فرسان المماليك، فولى حصن الدين ثعلب منهزما ، وركب المماليك أدبارهم يقتلون ويأسرون ويغنمون ، كما هاجموا عرب الغربية والمنوفية وهم قبيلتا سنبس ولواته فأوقعوا بهم فى سخا وسنهور ، وسبوا حريمهم ، وقتلوا الرجال. أما الشريف حصن الدين ثعلب فقد انضم الى من بقى من أصحابه ، وبعث يطلب الامان من الملك المعز أيبك، فأمنه ووعده باقطاعات له ولاتباعه ليصبحوا من

(١) المقريزى ، السلوك، ج١ قسم ٢ ص ٣٨٦ .

جملة العسكر عونا له على أعدائه، فانخدع الشريف وظن أن أيبك يحتاج اليه، فقدم وهو مطمئن الى بلبيس ، فلما اقترب من الدهليز السلطاني نزل عن فرسه فقبض عليه هو وسائر من معه وعدتهم ٢٦٠٠ من الفرسان والمشاه. فأمر الملك المعز أيبك بنصب الاخشاب من بلبيس الى القاهرة وشنق الجميع باستثناء حصن الدين الذى ارسله الى ثغر الاسكندرية فحبس بها. واصطنع المعز أيبك مع العرب بعد ذلك سياسة تقوم على البطش والقهر ، وأمر بزيادة ما يقرره عليهم من الاموال والهدايا من الخيل والابل [١] . وقدر لحصن الدين أن يقيم فيما بعد حكومة مستقلة فى مصر الوسطى وعجز أيبك ومن خلفه من السلاطين عن القبض عليه، الى أن تمكن الظاهر بيبرس من اعتقاله بعد أن أمنه ثم شنقه بالاسكندرية [٢] .

٢- تهديدات بقايا البيت الأيوبي :

واجه أيبك خطرا كبيرا أثاره ملوك الشام من سلالة الايوبيين ، ويبدو أنه كان يتوقع هذا الخطر وتوقعه معه أمراء المماليك منذ اليوم الذى بويع فيه أيبك بالسلطنة، وعمد المماليك الى محاربة أمراء الأيوبيين بسلاحهم «ويفسدوا عليهم حجتهم»، فاتفقت كلمتهم على أن يقيموا عليهم سلطانا مشاركا لأيبك من البيت الايوبى نفسه، يقبله الجميع فى مصر وفى خارجها، ويجمع المماليك والايوبيون على طاعته ويكون رمزا لاستمرار الحكم لهذه الاسرة، فاختاروا صبيا لايتجاوز

(١) نفس المصدر ، ص ٣٨٨

(٢) العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ، ١٣١٢ هـ ، ص ١٨٨

من العمر ست سنوات هو الملك الأشرف مظفر الدين موسى وولوه السلطنة وتم ذلك كله بعد خمسة أيام فقط من مبايعتهم لايبك، وخطب على المنابر للملكين المعز أيبك والأشرف. غير أن ذلك لم يمنع أمراء بني أيوب في الشام من التطلع الى مصر وتوجيه جيوشهم اليها لاسقاط حكم المماليك مستغلين مشاعر الشعب المصرى العدائية نحو المماليك، وكان الملك الناصر صلاح الدين يوسف أمير حلب قد بادر بالاستيلاء على دمشق قبل ذلك بنحو عشرين يوما ونصب نفسه سلطانا على الشام، وفى نفس الوقت استقل الملك المغيث عمر بحكم الكرك والشوبك، واستولى الملك السعيد على قلعة الصبية كما سبق أن أشرنا من قبل، ولم يسكت أيبك على ذلك، فأعد جيشا عدته الفا فارس بقيادة فارس الدين أقطاى الجمدار الذى خرج فى جمهور العسكر المملوكى من القاهرة، وتجمعت قوات المماليك فى الصالحية، وهناك وافاهم الملك المعز أيبك فى الوقت الذى وصل فيه الملك الناصر بقواته الى كراع القريبة من العباسة، وبدأ الاشتباك بين الفريقين فى ١٠ ذى القعدة واشتد القتال، فانكسرت ميسرة المصريين وولوا منهزمين وفى مقدمتهم الأمير حسام الدين أبو على الهذبانى، ولحق بالمعز أيبك، وهم الملك المعز أيبك بالفرار الى الشام مع لفيف من فرسانه ولكن مجرى الحوادث لم يلبث أن تغير اذ انكسرت ميسرة جيش الناصر، وأقدم مماليكه فى القلب على خذلانه والانضمام الى المصريين وانقلب بذلك ميزان المعركة لصالح أيبك، وتمزق جيش الناصر بعد أن غدر به مماليكه وكان عسكر الميسرة فى

جيش المماليك قد فروا الى الصعيد مرورا بالقاهرة فأشاعوا هزيمة أيبك، فخطب فى القاهرة يومئذ للملك الناصر كما خطب له بقلعة الجبل والفسطاط ، ويذكر المؤرخون أن الامير جمال الدين بن يغمور بالعباسة أحمى الحمام للملك الناصر وجهز له الاقامة، فلما عاد أيبك وقواته الى القاهرة انتقموا من أهلها، وقيل أن المماليك فعلوا يومئذ بأهل القاهرة مالم يكن يقدم الفرنج على فعله بالمصريين، وارتكبوا أفحش الجرائم من قتل ونهب وسبى للنساء [1] .

وقد ثبت هذا الانتصار من مركز معز الدين أيبك ورسخت قدمه، ولم يضع هذا الانتصار حدا للنزاع القائم بين الناصر وأيبك، فلم تكن هزيمة الناصر عن ضعف، ولم يكن انتصار أيبك عن تفوق فى القوة، فقد أرسل المعز أيبك بعد ذلك يشهر جيشا عدته ثلاثة آلاف الى غزة تحت قيادة فارس الدين أقطاى فاستولى عليها ، ثم استولى على نابلس وعاد بعدها الى القاهرة، وفى نفس الوقت جهز الناصر جيشا سيره الى غزه وعسكرت قواته فى تل العجول على مقربة من غزة، وعندئذ خرج المعز أيبك ومعه الأشرف موسى وفارس الدين أقطاى وسائر المماليك البحرية، ونزل بالصالحية على مقربة من العباسة، وترددت بين الفريقين الرسل [2] ، واستمرت العلاقات متوترة بينهما مايقرب من ثلاث سنوات حتى أرسل الخليفة العباسى المستعصم بالله رسولا من قبله [3] لاقرار

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٩
(٢) المقريزى ، السلوك ، ج١ ص ٣٨١
(٣) هو الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد بن الحسن البادرائى

الصلح بينهما، وقبل الناصر أن يتنازل للمعز عن غزة والقدس واعترف له بملك مصر ولكنهما اختلفا فيما بعد وتجدد الصلح سنة ٦٥٤هـ وكان تدخل الخليفة اعترافا صريحا باستقرار حكم المماليك على مصر .

٣- حركات المماليك في الداخل والخارج :

رأينا من قبل أن عز الدين أيبك التركماني لم يكن أكبر أمراء المماليك سنا حين بايعوه بالسلطنه ولا أحقهم بها، وربما كان ذلك من أسباب استطالة كبارهم على المعز أيبك نفسه اعتزاء بكبيرهم فارس الدين أقطاى الذى استولى على أمور الدولة، ولم يبق للملك المعز حل ولا عقد الا به ، وفي ذلك يقول المقريزى في حوادث سنة ٦٥٢هـ : « فيها استفحل أمر الفارس أقطاى الجمدار ، وانحازت اليه البحرية بحيث كان أقطاى اذا ركب من داره الى القلعة شغل بين يديه جماعة بأمره ولاينكر هو ذلك منهم، كانت أصحابه تأخذ أموال الناس ونساءهم وأولادهم بأيديهم ، فلا يقدر أحد على منعهم، وكانوا يدخلون الحمامات ويأخذون النساء منها غصبا ، وكثر ضررهم [1] » .

وكان من الطبيعي أن يتخذ أيبك حذره منه ومن زملائه المماليك البحرية، ويعمل على تقوية نفسه، فأنشأ فرقة من المماليك نسبوا اليه

(١) المقريزى السلوك ج١ ص ٣٩٠ . وفي موضع آخر يقول :« وفيها قويت البحرية وكبيرهم فارس الدين اقطاى على المعز، وكثر تعنتهم واستطالتهم وتوثبهم على الملك المعز، وهموا بقتله » .
(نفس المصدر ، ص ٢٨٦)

وعرفوا بالمعزية، كما نصب مملوكه سيف الدين قطز المعزى نائبا للسلطنة بمصر، ثم تخلص أخيرا من الملك الأشرف موسى ، فأزال اسمه من الخطبة، وانفرد باسم السلطنة، وسجن الأشرف ، واستولى على الخزائن. ولما أسرف أقطاى فى الاستهانة بالمعز أيبك والتجرؤ عليه أخذ أيبك ينظر فى أمره معه ، « فانه كان أمره قد زاد فى العظمة، والتفت عليه المماليك البحرية، وصار أقطاى المذكور يركب بالشاويش (الذين يتقدمون موكب السلطان أثناء سفره) وغيره من شعار الملك، وحدثته نفسه بالملك، فكان أصحابه يسمونه الملك الجواد فيما بينهم، كل ذلك والمعز سامع مطيع، حتى خطب أقطاى بنت الملك المظفر تقى الدين محمود صاحب حماة، وكان أخوها الملك المنصور هو يومئذ صاحب حماة بعد موت أبيه. وتحدث أقطاى مع الملك المعز أيبك أنه يريد يسكنها فى قلعة الجبل لكونها من بنات الملوك ولايليق سكناها بالبلد، فاستشعر المعز منه بما عزم عليه ، وأخذ يدبر أمره وعمل على قتله، فلم يقدر على ذلك »[1] . ويذكر ابن تغرى بردى أن المعز أيبك كتب يسأل الملك الناصر صلاح الدين يوسف رأيه فى قتله واستشاره فيما عزم عليه من التخلص منه، فلما أبطأ عليه جواب الناصر وتحقق أن بنت صاحب حماة فى طريقها الى القاهرة ، عمل على معاجلته، فانتهز فرصة دخول اقطاى عليه على عادته، وكان قد رتب له المعز أيبك جماعة للفتك به[2] ، وأمر بقتله ، فوثبوا عليه

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج٧ ص ١١ .
(٢) من بينهم الأمير سيف الدين قطز المعزى

وقتلوه في دار السلطنة بقلعة الجبل. ويصف المقريزى مشهد مصرعه فيقول : « فواعد (أى المعز) طائفة من مماليكه على قتله : وبعث المعز اليه وقت القائلة من يوم الأربعاء ثالث شعبان (سنة ٦٥٢هـ) ليحضر اليه بقلعة الجبل في مشور يأخذ رأيه فيه. فركب أقطاى على غير أهبة ولا اكتراث ، فعندما دخل من باب القلعة، وصار فى قاعة العواميد (وهى القاعة الكبرى برسم خوند الكبرى) أغلق باب القلعة، ومنع مماليكه من العبور معه. فخرج عليه جماعة بالدهليز قد أعدوا لقتله، وهم قطز وبهادر وسنجر الغشمى ، فهبروه بالسيوف حتى مات، فوقع الضريخ في القلعة والقاهرة بقتله، فركب في الحال من أصحابه نحو السبعمائة فارس، ووقفوا تحت القلعة وفى ظنهم أنه لم يقتل ، وانما قبض عليه، وأنهم يأخذونه من المعز، وكان أعيانهم بيبرس البندقدارى ، وقلاون الألفى ، وسنقر الأشقر ، وبيسرى ، وسكز ، وبرامق، فلم يشعروا الا ورأس أقطاى قد رمى بها المعز اليهم، فسقط في أيديهم وتفرقوا بأجمعهم، وخرجوا في الليل من القاهرة وحرقوا باب القراطين فعرف بعد ذلك بالباب المحروق الى اليوم[1] » وسكن الحال بعد ذلك في القاهرة ولكن مماليك أقطاى وخشداشيته خافوا من بطش أيبك بهم، ففروا من مصر، فمنهم من قصد الملك المغيث بالكرك، ومنهم من توجه الى الملك الناصر بدمشق ومنهم من آثر البقاء في أغوار الأردن والبلقاء والكرك والشوبك والقدس،وقطع الطريق

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ج١ قسم ٢ ص ٣٩٠ وما يليها .

وأكل بقائم سيفه، ومضى العدد الأعظم منهم مع جماعة كبيرة من المماليك الصغار الجمدارية الصالحية (١) الى السلطان علاء الدين كيقباذ ملك سلاجقة الروم .

ولكي يحمي نفسه في الداخل أمر أيبك باعتقال من بقي في القاهرة من أصحاب أقطاي ، فقتل بعضهم وحبس البعض الآخر وصادر أملاكهم وأموالهم واستصفى ذخائرهم ، ونودي في القاهرة والفسطاط بتهديد من أخفى أحدا من البحرية. أما بالنسبة للفارين منهم الى دمشق والكرك، فقد خاف غائلتهم، فكتب الى الملك الناصر يحذره منهم ومن غدرهم، فانتهز الناصر هذه الفرصة وطالب أيبك بأن يعيد اليه المدن التي كان قد انتزعها منه في فلسطين وهي القدس وساحل فلسطين، فاستجاب لطلبه ورد له هذه المدن .

ولما استتب له الأمر في مصر بعث رسولا الى الخليفة المستعصم بالله العباسي سنة ٦٥٣هـ (١٢٥٥م) يلتمس منه تشريفه بالتقليد والخلع والألوية أسوة بمن تقدمه من سلاطين بني أيوب ، وظن أيبك أنه بهذا قد ارتفع الى مرتبة السلاطين العظام، فتقدم لمصاهرة الملوك، وأرسل الى ملكين من ملوك بني أيوب يخطب بنتيهما، وهما الملك المنصور بن المظفر صاحب حماة، والملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل (٢) ، فكان ذلك سبب تغير شجر الدر عليه، فأخذت تدبر في قتله، وكان هذا هو الخطر الذي لم يستطع له دفعا، ودفع

(١) بلغ عدد من لاذ منهم بقونية حيث بلاط سلطان سلاجقة الروم ١٣٠ .
(٢) المقريزي ، السلوك، ج١ قسم ٢ ص ٣٩٨

حياته ثمنا لطموحاته فى ٢٣ ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ (١١ ابريل ١٢٥٧م) وبعد مقتله انقسم أمراء المماليك الى حزبين : حزب المعزية ونادوا بنور الدين على ابن سيدهم خلفا لابيه وتعصبوا له رغم أنه صبى عمره ١٥ سنة، وحزب البحرية الصالحية وكانوا يؤثرون واحدا من كبار الأمراء الصالحية وهو أتابك العسكر علم الدين سنجر خلفا لأيبك، وتم الاتفاق على مبايعة الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيبك ستارا لأطماعهم وانتظارا لفرصة مواتية يظفر بها أيهم أشد قوة وبأسا. أما علم الدين سنجر أتابك العسكر فقد قبض عليه المعزية وسجنوه فى الجب بالقلعة، واضطر مؤيدوه الى الفرار الى الشام. ثم أقام الأمراء المعزية الأمير سيف الدين قطز المعزى نائبا للسلطنة ، وأصبح مدبر دولة المنصور، كما نصبوا الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب الصالحى أتابكا للعسكر عوضا عن علم الدين سنجر الحلبى .

وتحركت من جديد مطامع ملوك بنى أيوب فى الشام وأولهم الملك المغيث صاحب الكرك ، فخرج على رأس جيشه بتحريض من بعض أمراء المماليك البحرية بعد ستة أشهر من ارتقاء المنصور نور الدين على دست السلطنة، واتجه نحو مصر فتصدى له سيف الدين قطز بقواته فى الصالحية وأوقع به الهزيمة ، فعاد مهزوما الى الكرك [١] . ثم عاود الملك المغيث الكرة مرة ثانية، وخرج قطز مرة أخرى لمواجهته وهزمه فى هذه المرة أيضا كما فعل فى المرة الأولى [٢] .

(١) نفس المصدر، ج١ قسم ٢ ص ٤١١.
(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٤٥

ومر على هذه الأحداث عام تغيرت فيه خريطة الشرق الاسلامي، ففي العاشر من المحرم سنة ٦٥٦هـ (١٢ فبراير ١٢٥٨م) وقع حادث خطير هز العالم الاسلامي وفجع له المسلمون شرقا وغربا ، فقد دخل التتار بغداد في ذلك اليوم وقضوا على الخلافة العباسية ،وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله في السادس من صفر، وسفكوا دماء أهلها وخربوا جوامعها ومشاهدها ،كما استولوا على اربل، وانتشر الذعر في نفوس المسلمين جميعا، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل ملوك الشام من بقايا البيت الايوبي يجرون وراء مطامعهم الشخصية حتى أن الملك الناصر صاحب دمشق لم يتورع عن ارسال ولده الملك العزيز رسولا الى هولاكو ومعه تقادم [١] وهدايا وطلب منه على لسان أبيه أن يمده ببعض قواته التتار لينتزع مصر من المماليك، مقابل خضوعه الى هذا الطاغية الذى كان ينظر اليه بقضائه على الخلافة العباسية على أنه ألد اعداء الاسلام. غير أن هولاكو كان يرى في الأمر رأيا آخر، اذ كان يريد مصر لنفسه، وأخذ يعد العدة للاستيلاء على الشام تمهيدا للسيطرة على مصر ، وبعث الى الناصر كتابا يأمره فيه بأن يضع فرسانه وأملاكه تحت طاعته [٢] ، فتحول الناصر من طلب ملك مصر الى طلب النجدة منها، وأرسل الى المماليك [٣] يلتمس منهم القدوم لنصرته، وأرسل زوجته وولده وأمواله الى الكرك، وسار كثير من أهل دمشق الى مصر .

---

(١) الشريزى ، المصدر السابق ، ج١ ص ٤١٠ .
(٢) انظر نص الكتاب فى السلوك، ج١ ص ٤١٥ ، ٤١٦ .
(٣) أرسل الناصر الصاحب كمال الدين عمر بن العديم الى مصر يستنجد بعسكرها (المقريزى ، السلوك، ج١ ص ٤١٦)

كانت جيوش التتار تقترب من دمشق، فاستولت على ديار بكر وآمد ثم استولوا على قلعة حران والبيرة، ثم نزلوا على حلب فى المحرم ٦٥٨ واستولوا عليها بعد عشرة أيام من الحصار ودخلوها قهرا، فاستباحوا دماء أهلها وسبوا النساء، فلما بلغ الملك الناصر سقوط حلب بادر بترك دمشق والفرار جنوبا، وأبدى من الجبن والنذالة ما جعله يترك عاصمته بغير مدافع رغم أنه اجتمع بها عدد كبير من المقاتلين العرب والعجم، فاضطربوا وتفرقت كلمتهم، وتركوا أحدهم يسلم مدينة دمشق الى رسل هولاكو، فدخلها التتار. وأحدث سقوط دمشق فى أيدى التتار دويا هائلا واضطرابا شديدا وأشاع الذعر والرعب فى قلوب أهل الشام، فلحق الاشرف موسى بن المنصور صاحب حمص بهولاكو، وسار الملك المنصور ابن المظفر صاحب حماة الى مصر بحريمه وأولاده [1]

ذاق أهل دمشق مر العيش فى تلك الاشهر رغم أن هولاكو كان قد أوصى نوابه بالرفق بهم، فقد استطال نصارى دمشق على المسلمين. وأهانوا أهلها من المسلمين معتزين فى ذلك بحماية كتبغا نوين نائب التتار عليها، فكانوا يتظاهرون بالخمر ويرشوه على ثياب المسلمين فى الطرقات، ويصبوه على أبواب المساجد، ويلزمون أصحاب الحوانيت بالقيام اذا مروا بالصليب عليهم، ولما ثار الامير بدر الدين محمد بن قرمجاه والى قلعة دمشق هو والأمير جمال الدين بن الصيرفى

(١) المقريزى، السلوك، ج١ ص ٤٢٣.

وأغلقا أبواب القلعة ضرب كتبغا القلعة بالمجانيق ، وخربوا مواضع كثيرة منها، ودخلوها وهدموا أبراجها .

ثم تقدم التتار من دمشق الى بعلبك، فخربوا قلعتها، وأوغلوا فى جنوب الشام. أما الملك الناصر ففر الى مصر ولكنه عاد أدراجه قبل أن يصل اليها، فقبض الملك سيف الدين قطز على الامراء الذين كانوا بصحبته وعلى اتباعه بمصر فصادر أموالهم. وعقد قطز اجتماعا دعا اليه الامراء والقضاة واعلن فى مصر تحرج الموقف واشتداد خطر التتار، وكان يرمى من وراء ذلك الى غرضين : الأول أن يستولى برضائهم على أموالهم، والثانى أن يعزل بموافقتهم الملك المنصور نور الدين على ويستولى على السلطنة، وقد تم له تحقيق الهدفين وتخلص من المنصور وأخيه وأمه .

(٢)

السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز بطل عين جالوت

١- الغزوة المغولية الغاشمة :

يشبه المؤرخون ظهور المغول على مسرح التاريخ فى أواسط العصور الوسطى بحركة الجرمان فى بدايات هذه العصور ،وذلك لأن جميع غزوات المغول أو التتار صحبتها موجة عاتية من الدمار وسفك الدماء قضت على مراكز الحضارة الاسلامية والاسيوية، وكادت تقضى على آخر معقل اسلامى فى الشرق الإسلامى وهو مصر لولا أن اصطدمت فى عين جالوت بقوة المماليك المتفوقة التى قضت على أسطورة المغول، وجعلت من المماليك أبطال الاسلام الذين استطاعوا ايقاف التيار المغولى المدمر، وحالوا بينه وبين البقية الباقية من مراكز الحضارة الاسلامية، ونصبوا أنفسهم بحق المدافعين عن الخلافة الاسلامية.

والمغول شعب كبير من الأمة التركية ومنه تتفرع معظم بطونها، ولقد سمى المغول كذلك نسبة الى نشأتهم الاولى فى هضبة منغوليا الواقعة شمالى صحراء جوبى . وهو اسم عام يطلق على مجموعة قبائل بدوية تنتمى الى جنس واحد من الناس، وأشهر قبائلهم : التتار وهى أشد قبائل الجنس المغولى قسوة وبطشا، وقد أطلق اسم هذه القبيلة على اتباع جنكيز خان بعد انتصاره عليها ، وأصبحوا يعرفون بالتتار أو التتر، ومنها قبائل كيرايت ، وكانوا يستوطنون السهول الشرقية فى

شمال صحراء جوبى وجنوب بحيرة بايكال. وكانت هذه القبائل من اكثر قبائل المغول بأسا ومنها قبيلة مركيت وقبيلة نايمان (١) .

ويعتبر الغزو المغولى للدولة الخوارزمية وأراضى الخلافة العباسية أكبر غزو بربرى شهدته الانسانية من قديم الزمان الى وقت ظهور المغول ، ويشبهه المؤرخون بطوفان من التخريب والدمار وسفك الدماء ، ولم تأخذ هذه الغارة أو الغزوة المغولية فى الاعتبار الحضارة الزاهرة التى كان العالم الاسلامى قد بلغها انذاك، فلم يرعوا حرمة المسلمين ولا علمائهم ولامكتباتهم، ولم يكن المغول يقنعون باسقاط المدن والاستيلاء عليها، وانما كانوا ينتقمون من سكانها بابادتهم شيوخا ونساء وأطفالا ، وقد غرسوا فى نفوس الناس الرعب الشنيع، ويكفى للدلالة على ذلك من الاشارة الى ما اقترن باستيلائهم على بلدة أوترار وهى أول مدينة افتتحها المغول من مدن اقليم ما وراء النهر، فلما سقطت فى أيدى المغول وقع ينال خان حاكمها فى أسرهم، فأرسل الى معسكر جنكيز خان فانتقم منه ابشع انتقام اذ أمر بصهر الفضه وسكبها فى عينيه وأذنيه حتى مات. ولما دخل المغول أوترار أذرعوا فى

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن المغول ارجع الى : فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول فى التاريخ، ابراهيم أحمد العدوى ، العرب والتتار، المكتبة الثقافية عدد ٨٨، القاهرة ١٩٦٣ ، حسن ابراهيم حسن ، انتشار الاسلام بين المغول والتتار، القاهرة ١٩٣٣ مصطفى طه بدر، محنة الاسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدى المغول ، القاهرة ١٩٤٦ ، تحافظ أحمد حمدى ، الدولة الخوارزمية والمغول ، القاهرة ١٩٤٩

D' oheson, Histoire des Mangols depuis Tchinguiz khan Jusqu'a Tiniur bay outamerlan paris, 188.

Hiworth. history of he Mongols, Lenden. 1670.

Mihat pradit, Genghis khan, paris, 1551.

أهلها ذبحا ، ونهبوا مافيها من نفائس ، ودمروها تدميرا تاما. وكذلك فعلوا فى بخارى وسمرقند . ويصور ابن الأثير غزوة المغول تصويرا معبرا يثير الرعب والهلع، يقول : « لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها، كارها لذكرها ، فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك، فياليت أمى لم تلدنى ، وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا. الا أنه حثنى جماعة من الاصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ، ثم رأيت ترك ذلك لايجدى نفعا » ، ثم يقول : « فلو قال قائل ان العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتل بمثلها لكان صادقا، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل ، وقتلوا الاجنة، فانا لله وإنا اليه راجعون، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم، لهذه الحادثة التى استطار شررها، وعم ضررها وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح [1] ». وكان من نتائج الغزوة المغولية الغاشمة لاراضى الاسلام إصابة الحضارة الاسلامية فى الصميم، كما أصيبت اللغة العربية بهذا الغزو اصابة عنيفة، والنتيجة الثانية ضياع ما يقرب من نصف العالم الاسلامى ووقوعه فى يد دولة وثنية وحشية لاحظ لها من الحضارة، وكان ذلك كارثة كبرى أن تسقط الخلافة الاسلامية ، ويفقد المشرق الاسلامى

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ، ج١٢ ص٣٥٨ ، ٣٥٩ .

استقلاله، وهو الذى كان يمثل آنئذ أرقى ما عرفته الانسانية من تقدم ثقافى واجتماعى واقتصادى، والنتيجة الثالثة أن المسلمين أحسوا بحرج بالغ بعد سقوط الخلافة العباسية، فقد كانوا يعتقدون أن الخلافة تدوم الى قيام الساعة فلما وجدوا هذا النظام الركين ينهار من اساسه أصابتهم صدمة عنيفة .

ب - انتصار المماليك على المغول فى عين جالوت :

بعد أن استولى المغول على دمشق توغلوا فى جنوب الشام، فاستولوا على نابلس وقتلوا جميع من تصدى لهم من حاميتها، ثم تقدموا نحو غزة دون أى مقاومة واستسلمت لهم حامية عجلون ولم يبق أمامهم سوى مدن قليلة من بلاد الشام الجنوبية قبل أن يجتاحوا الحدود المصرية. وعلى هذا النحو استطاع المغول فى أمد وجيز اخضاع بلاد الشام تحت سيطرتهم، وقد أذهل ذلك المسلمين جميعا وجعلهم يميلون الى الاعتقاد بان هؤلاء المغول ليسوا من البشر وأنهم أقرب الى المردة ، ابتلى بهم الاسلام ، وأنه لن تستطيع قوة على البسيطة أن تقف أمامهم. ثم وقع حادث أرغم هولاكو على الرحيل الى فارس ، فقد وصلت اليه أنباء بوفاة أخية الاكبر منكوخان فى الصين سنة ٦٥٥، وتنازع أخويه الآخرين قوبيلاى خان وأريقبغا على العرش . وعلى الرغم من أن هولاكو كان الابن الرابع لتولوى ، ومن حقه أن ينافس أخويه فى اعتلاء عرش المغول ، الا أنه عدل عن ذلك بعد أن تحقق له فتح بلاد فارس والعراق والشام، وكان يميل الى مساندة قوبيلاى ، ولهذا عمل على حضور مجلس القوريلتاى ليؤكد تأييده لقوبيلاى خانا أعظما

للمغول . ثم انه كان يعلم انه مهدد من جهة الحدود القوقازية من قبل ابن عمه بركة خان الذى كان يحكم بلاد القبجاق خاصة وأنه كان قد اعتنق الاسلام وصار يتوعد هولاكو بالانتقام منه بسبب ما اقترفه من مذابح راح فيها ألوف من الضحايا المسلمين، ولتجرئه على مقام الخلافة واقدامه على قتل الخليفة المستعصم. ويبدو أيضا أن هؤلاكو كان قد اكتفى بفتح ما فتحه من بلاد ، ولكن الحاج هيثوم ملك أرمينية الصغرى ، وكان قد تحالف مع هولاكو لاستخلاص الشام وتحرير بيت المقدس من ايدى المسلمين، وانضم بوهمند السادس صاحب انطاكية الى هذا الحلف لمجاورته لهيثوم ولمصاهرته له من ابنته جعله يوافق على أن يترك كتبغا نوين خلفا له وقائدا لقوات المغول بعد أن ترك له عشرة آلاف مقاتل لاتمام فتح مصر. وعلى الرغم من أن كتبغا كان يميل الى المسيحية لايمانه بجدوى مخالفة المغول للصليبيين، وعلى الرغم من أن بوهمند كان يشارك كتبغا هذا الشعور، فان بارونات عكا ظلوا ينظرون الى المغول كبرابرة لايمكن أن يفضلوا المسلمين. ووقع حادث قلب هذا الحلف الصليبي المغولى الى عداء ، فقد هاجم أحد باروناته عكا ويعرف باسم جليان الصيداوى دورية مغولية قتل فيها ابن أخى كتبغا ، فغضب كتبغا لذلك وهاجم صيدا ، واضعا بذلك حدا لهذا الحلف الضمنى بين المغول والفرنج .

وكانت مصر المملوكية قد استعادت ثقتها فى مقدرتها الحربية منذ أن تولى سيف الدين قطز السلطنة فى ذى القعدة سنة ٦٥٧، وكان هولاكو قد أرسل اليه قبل أن يرحل الى فارس فى سنة ٦٥٨هـ رسالة

تحمل كل معانى الوعد والوعيد، يأمره فيها بالدخول فى طاعته ويحثه على الاتعاظ بغيره من الملوك الذين سقطت بلادهم فى يديه، ورسالة هولاكو تتضمن فقرات تصور المماليك بأنهم قوم أكلوا الحرام وخانوا العهود والايمان، وتفشى فيهم العقوق والعصيان وهو لهذا يبشرهم بالمذلة والهوان . ونستخلص من فقرة أخرى أن هولاكو حقق كل مطامعه فى الفتوحات ولم يبق له مقصد سوى مصر . ونص الرسالة التى حملها رسل هولاكو هى كما يلى (من ملك الملوك شرقا وغربا ، القان الاعظم ، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء ، يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا الى هذا الاقليم ، يتنعمون بأنعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك، يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته واهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا الينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء ، فتندموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن ما نرحم من بكى ، ولانرق لمن شكى . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الارض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب. فأى أرض تأويكم ، وأى طريق تنجيكم وأى بلاد تحميكم؟ فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ، فالحصون لدينا لاتمنع عند الكلام، وخنتم العهود والايمان وفشا فيكم العقوق

والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان « فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون. وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ». فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم. فان أنتم لشرطنا وأمرنا أطعتم . فلكم مالنا وعليكم ما علينا، وان خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم. فقد حذر من أنذر ، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة. فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل ، وبغير الأهنة ما لملوككم عندنا سبيل. فلا تطيلوا الخطاب ، وأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاها ولا عزا ولا كافيا ولا حرازا، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية. فقد أنصفناكم اذ راسلناكم. وأيقظناكم اذ حذرناكم، فما بقى لنا مقصد سواكم. والسلام علينا وعليكم، وعلى من أطاع الهدى وخشي عواقب الردي وأطاع الملك الأعلى .

ألا قل لمصرها هلاون قد أتى   بحد سيوف تنتضى وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة   ويلحق أطفالا لهم بالأكابر [1] »

فعقد قطز مجلسا من أمراء دولته وكبار أمراء المماليك، وكان قد عاد الى مصر طائفة من أمراء المماليك البحرية ممن كانوا بدمشق وقونية والكرك ومنهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى، وحسام

(١) المقريزي: السلوك ج١ ص ٤٢٨ ، ٤٢٩.

الدين طرنطاى ، وبدر الدين طيدمر، وبدر الدين أيدمر الدوادار ، فرحب بهم قطز وقربهم اليه وأجزل لهم العطاء، فهم على أية حال أنصار سعوا اليه قبل أن يسعى اليهم، وقدموا على الأقل للمشاركة فى الجهاد ضد المغول وفى معركة المصير، وكان لابد له أن ينسى الاساءة ويتناسوها هم الآخرون ، وبحث قطز فى هذا المجلس الموقف، فأجمع الحاضرون على قتل الرسل والسير الى الصالحية. فأمر قطز باعتقالهم وكانوا أربعة فوسط واحدا بسوق الخيل أدنى القلعة، ووسط آخر بظاهر باب زويلة، ووسط الثالث ظاهر باب النصر ووسط الرابع بالريدانية ، وعلقت رؤوسهم على باب زويلة [1] . ثم نودى فى القاهرة والفسطاط وسائر اقليم مصر بالخروج الى الجهاد فى سبيل الله .

وكانت قد تجمعت فى مصر أفواج من فلول الجيوش الاسلامية المهزومة التى فرت أمام جيوش المغول ، فكان لوصولهم الى مصر أعمق الأثر فى نفوس الأهالى، وجسم لهم المخاوف من الهزيمة، فزاد ذلك من الروع والرعب الشديد فى قلوب الناس، وفر من مصر جماعة الى المغرب وجماعة الى الحجاز واليمن [2] ، وأجمع السواد الأعظم على البقاء انتظارا للحوادث وترقبا لما سيكون. ثم أن قطز بادر بجمع الأمراء من جديد وصارحهم بعزمه على السير لمواجهة التتار ، فأبدوا اعتراضهم على الخروج معه، فأظهر ما تنطوى عليه نفسه من الشجاعة والجدارة بالسلطنة عليهم، وأعلنهم أنه قائم بالحملة ولو اقتضى الأمر أن

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٤٢٩.
(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٧٨

يلقى التتار وحده ، وذكرهم بأنهم كانوا يتنعمون طوال حياتهم على حساب المسلمين فكيف يكرهون ملاقاة الغزاة وصد الطغاة اذا حان الوقت لذلك. وكانت لكلماته أثرها العميق في نفوسهم فاستجابوا للجهاد وكان الأمير ركن الدين بيبرس أول من ناصره. ويروى المقريزى تفاصيل ذلك بقوله « وتقدم الملك المظفر لسائر الولاة بازعاج الأجناد في الخروج للسفر، ومن وجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع، وسار حتى نزل بالصالحية وتكامل عنده العسكر، فطلب الأمراء وتكلم معهم في الرحيل، فأبوا كلهم عليه وامتنعوا من الرحيل. فقال لهم: ياأمراء المسلمين! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع الى بيته، فان الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين. فتكلم الأمراء الذين تخيرهم وحلفهم في موافقته على المسير، فلم يسع البقية إلا الموافقة، وانفض الجمع. فلما كان في الليل ركب السلطان، وحرك كوساته وقال : « أنا ألقى التتار بنفسي ، فلما رأى الأمراء مسير السلطان ساروا على كره » [1] .

ثم أمر السلطان سيف الدين قطز الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري أن يتقدم في عسكر ليعرف أخبار التتار، فسار بيبرس الى غزة وكانت تحتلها حامية مغولية يقودها بيدرا ، فأجلاها بيبرس عن غزة، وتمكن من الاستيلاء عليها، وأدركه السلطان قطز بحشود العسكر،

---

(1) المقريزى ، نفس المصدر ، ص ٤٣٩.

فأقام بها يوما ثم رحل من طريق الساحل الى بارونية عكا فخرج اليه الفرنج بتقادم وأرادوا أن يسيروا معه نجدة فشكرهم وأخلع عليهم، واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتار [1] . وعندما وصلت الأنباء الى كتبغا نوين بهزيمة بيدرا ثار وعزم على الانتقام، وكان الجيش المملوكي قد اجتاز بلاد الفرنج نحو نهر الأردن، فتقدم كتبغا بجحافله ومن انضم اليه من النجدات الأرمنية. أما قطز فقد أمر بالأمراء فجمعوا، وحضهم على قتال التتار، وذكرهم بما ارتكبوه من مذابح فى كل بلد يحلون به وخوفهم من وقوع مثل ذلك اذا ما فترت الهمم، وحثهم على استنقاذ الشام ونصرة الاسلام ،فضجوا بالبكاء، وتحالفوا على الاجتهاد فى قتال التتار ودفعهم من البلاد. ثم أمر السلطان الأمير ركن الدين بيبرس بأن يتقدم بفرقة من العسكر المملوكى ، فتقدم بفرقته حتى أدرك موقع العسكر المغولى ، فكتب الى السلطان يخبره بذلك ، وأخذ يناوشهم الى أن وافته جيوش مصر فى عين جالوت بين بيسان ونابلس .

وتم الاشتباك يوم الجمعة الموافق ٢٥ من شهر رمضان سنة ٦٥٨هـ (٣ سبتمبر ١٢٦٠م)، واشتد القتال ، وحمى وطيس المعركة، فاضطرب جناح عسكر السلطان ،وانتقض طرف منه، فألقى الملك قطز عند ذلك خوذته على رأسه الى الأرض ، وصرخ بأعلى

(١) المقريزى ، السلوك ، ج١ قسم ٢ ص ٤٣٠.

صوته وإسلاماه ، وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة فأيده الله بنصره وقتل كتبغا مقدم التتر وقتل بعده الملك السعيد حسن بن العزيز وكان مع التتر، وانهزم باقيهم، ومنح الله ظهورهم للمسلمين»[1] .

وحاول المغول جمع صفوفهم من جديد، واشتبكوا مرة ثانية مع قوات المماليك وصدموهم صدمة عنيفة زلزلت صفوفهم ، فاختلت ، وخشى قطز الهزيمة، ويقول المقريزى : « أنه صرخ صرخة عظيمة سمعها معظم العسكر وهو يقول « واسلاماه » ثلاث مرات « يالله انصر عبدك قطز على التتار » ، فلما انكسر التتار الكسرة الثانية ، نزل السلطان عن فرسه ، ومرغ وجهه على الأرض يقبلها، وصلى ركعتين شكرا لله تعالى ثم ركب »[2] .

ولى المغول الأدبار ، فتتبعتهم عساكر مصر بقيادة ركن الدين بيبرس فقتلت منهم أعدادا هائلة وأعادت هذه الموقعة ذكرى انتصارات ملوك مصر فى العصر الأيوبى، وحركت مطامع قطز فى ضم ولايات الشام الى مصر، أما أمراء الشام فكان التتار قد أضعفوا هيبتهم، وكان كبيرهم الناصر رهينة عند هولاكو سلمه اليه بعض أفراد حاشيته عند قفوله من مصر ، فلما انهزم جيش التتار فى عين جالوت وقتل كتبغا نوين وحملت رأسه الى القاهرة، عظم على هولاكو الأمر ، وأقدم على قتل الملك الناصر فى ١٨ شوال من نفس السنة، بل أنه أمر بقتل كل

(١) نفس المصدر ، ص ٤٣١ .

(٢) نفس المصدر .

من كان مع الناصر من الأمراء الايوبيين ومنهم الملك الظاهر غازى ، والملك الصالح بن شيركوه. وأما أهل دمشق فقد بادروا بعد أن بلغهم خبر انتصار المماليك الى دور النصارى فنهبوها وأخربوا ما استطاعوا تخريبه وهدموا كنيسة القيامة وكنيسة مريم وأحرقوهما. وأما قطز فقد استولى على سائر بلاد الشام كلها من الفرات الى حدود مصر ، فأقطع الامراء الصالحية والمعزية اقطاعات عديدة بالشام، ونظم أحوال النواب والولاة ببلاد الشام، ثم خرج من دمشق فى ٢٦ شوال سنة ٦٥٨هـ متجها الى مصر، وكان قد أبدى رغبته فى التوجه الى حلب، ثم عدل عن ذلك عندما بلغه تنكر الأمير بيبرس وتغيره عليه ، وأنه أشاع عن عزمه على محاربته، والظاهر أن بيبرس كان قد طلب من السلطان قطز أن يوليه نيابة حلب، فاعتذر له قطز وآثر على نيابة حلب الملك المظفر علاء الدين على بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار. وعندئذ غضب بيبرس وأضمر السوء لقطز ، وأدرك قطز ما يضمره له بيبرس فتحرز منه. ويبدو أن بيبرس دبر خطة لقتل السلطان قطز بالاتفاق مع عدة من امراء المماليك المعزية من بينهم الأمير سيف الدين بهادر المعزى ، والأمير بدر الدين بكتوت الجوكندار المعزى . فلم يزل السلطان يواصل سيره الى مصر حتى اقترب من الصالحية، وهناك أبدى رغبته فى الصيد برفقة الأمراء، فلما فرغ من صيده ، وعاد الى الدهليز السلطانى، طلب منه بيبرس امرأة من سبى التتر ، فأنعم بها عليه، فأخذ بيبرس يد السلطان ليقبلها ، وكانت اشارة بينه وبين الامراء: فبدره الأمير بدر الدين بكتوت بالسيف وضرب به عنقه، واختطفه الأمير أنس

(بدر الدين أنس الاصبهانى) والقاه عن فرسه ، ورماه الأمير بهادر المعزى بسهم أتى على روحه ، وذلك يوم السبت الخامس عشر من ذى القعدة [1] ولما قتل قطز ، تقدم القتلة الى الدهليز السلطانى وهم شاهرون سيوفهم ، ونزلوا ودخلوا ، وخرج الأتابك على باب الدهليز ، فأخبروه بما فعلوا . فقال من قتله منكم ؟ فقال بيبرس : أنا ، فقال ياخوند اجلس على مرتبة السلطان » [2]

ومما يروى عن شجاعة قطز أن جواده قتل يوم عين جالوت فظل يحارب راجلا ، فرآه بعض الأمراء الشجعان فترجل ، عن جواده ، فامتنع قطز عن ركوبه وقال له : ماكنت لأمنع المسلمين الانتفاع منك فى هذا الوقت . وذكروا أن بعض خواص قطز لاموه على عدم ركوبه ، وقالوا له ياخوند لو صادفك والعياذ بالله تعالى بعض المغل وأنت راجل كنت رحت وراح الاسلام . فقال لهم : أما أنا فكنت رحت الى الجنة انشاء الله تعالى ، وأما الاسلام فما كان الله ليضيعه [3] لقد كان الملك المظفر سيف الدين قطز سلطانا حازما حسن التدبير ، شجاعا مقداما لايهاب الموت ، واليه يرجع الفضل فى اعادة روح المقاومة والتصدى عند المسلمين بعد أن وصلت الممالك الاسلامية الى أدنى درجة من الهزيمة السياسية ، وهو الذى حرك بشجاعته القوة الكامنة فى نفوس المسلمين .

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ١ قسم٢ ص ٤٣٥ ، ابن تغرى بردى ، ص ٨٤.
(٢) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق .
(٣) نفس المصدر ، ص ٨٦ .

وكانت موقعة عين جالوت من المواقع الحاسمة فى التاريخ الاسلامى خاصة والتاريخ العالمى بوجه عام، لما ترتب عليها من نتائج نجملها فيما يلى :

١- كانت ضربة قاصمة أنزلها المماليك فى مصر بجيش التتار الذى لم يهزم قط، ولم تنكس للتتار راية من قبل ، فالهزيمة ومقتل القائد المغولى فرضا أسطورة التتار، وهى أسطورة سجلتها انتصاراتهم المتواصلة واسقاطهم للخلافة العباسية .

٢ تتجلى أهمية انتصار المسلمين فى عين جالوت اذا تصورنا عكس ما حدث ، فلو أن المغول هم الذين انتصروا لكانوا قد قضوا على آخر معقل اسلامى وهو مصر ، فلولا انتصار المماليك لكان الاسلام قد قضى عليه ، ولتغير مجرى تاريخ الشعوب الاسلامية .

٣- كان انتصار المماليك فى عين جالوت مقدمة لتوطيد العلاقات بين حكام المغول المسلمين فى القبجاق وبين المماليك فى مصر والشام، وقد تحالف الفريقان ضد العدو المشترك الذى يتمثل فى أسرة هولاكو بفارس ، وقد نتج عن هذا التحالف انتشار الاسلام بين سكان هذه المناطق ، ووصول تأثيرات مغولية الى مصر والشام بسبب التحالف مع القبيلة الذهبية، وبسبب مصاهرة المماليك لسلاطين المغول المسلمين .

٤- أحدث انتصار المماليك فى عين جالوت رد فعل عند المسلمين الذين خضعوا للمغول وخاصة فى فارس التى تحملت وطأة

الغزو المغولى كله، وعانى أهلها من العذاب والاضطهاد والتشريد، فقوى موقف المسلمين هناك واستطاعوا الصمود أمام مناورات المسيحيين واليهود ، وينافسونهم فى تبوأ الزعامة والصدارة فى دولة الايلخانيين ، وأخذوا يشرحون للحكام المغول تعاليم الاسلام ويرغبونهم فى اعتناق هذا الدين حتى تكللت مساعيهم بالنجاح، وأصبح الاسلام دينا رسميا لدولة المغول فى فارس .

٥- أسفرت هذه المعركة عن فشل ذريع لسياسة الصليبيين فى الشرق والغرب، ورفعت مصر المملوكية الى مركز الزعامة فى العالم الاسلامى، وكان ينظر الى مصر على أنها الدولة الوحيدة التى تصدت للمغول وللصليبيين فى آن واحد .

٦- أتاحت هذه الموقعة الفرصة لاتحاد مصرَ والشام فى ظل المماليك بعد أن تمزق هذا الاتحاد عقب سقوط الدولة الايوبية، وجعل انتصار المماليك فى هذه الموقعة من هذه الدولة المملوكية قوة يخشى الغرب الاوربى والمغول الايلخانيون بأسها .

(٤)

التعريف بسلاطين المماليك البحرية

أجهز الأمير ركن الدين بيبرس على الملك المظفر سيف الدين قطز، ونودى فى القاهرة فى غداة ذلك اليوم « ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس » ، ثم فى آخر النهار أمر بالدعاء للملك الظاهر [١] وكانت القاهرة قد زينت لاستقبال الملك المظفر، والناس مبتهجين لهزيمة التتار ، فلما بلغهم نبأ مقتله اغتموا وترحموا عليه . ويعد الظاهر بيبرس من أعظم سلاطين المماليك، بل من المؤسسين الحقيقيين لدولة المماليك، وقد اجتمعت فيه صفات العدالة والفروسية والشجاعة، وكان قد أبلى بلاء حسنا فى موقعة المنصورة ، وعرف عنه اخلاصه لسيده الصالح نجم الدين أيوب ولشجر الدر. وتاريخ سلطنته فى مصر يتلخص فى أنه أعاد الخلافة العباسية وجعل مقرها القاهرة، فقد استقدم أحد أمراء العباسيين وهو أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر بالله العباسى وبايعه، ودعا القضاة فى مصر بمبايعته ، ولقبه بالمستنصر بالله، واكسب بذلك حكمه صفة شرعية، ونقشت السكة باسميهما معا، وأراد بيبرس أن يسترد المستنصر بالله بغداد من أيدى التتار، ولكنه قتل فى هيت ،

---

(١) المقريزى ، السلوك . ج١ ص ٤٣٧ . ونلاحظ أن بيبرس كان قد تلقب بالملك القاهر م ١٧ ذى القعدة، ثم استقر على لقب الملك الظاهر بعد دخوله قلعة الجبل .

فاستدعى بيبرس أميرا آخر من بنى العباس هو أبو العباس أحمد بن أبى بكر على وبايعه بالخلافة ولقبه بالحاكم بأمر الله واستبقاه فى مصر وذلك فى ٩ من المحرم سنة ٦٦١هـ (١٢٦٣م). ومنذ هذا التاريخ استمرت الخلافة العباسية قائمة بمصر حتى الفتح العثمانى[١]، وواصل بيبرس صراعه مع الصليبيين فى الشام، فحاربهم بدون هوادة، وكان يبعث الحملات الواحدة تلو الأخرى حتى أنه افتتح قبل وفاته ما يقرب من ٦٠ بلدا وحصنا، أهمها أنطاكية، واشترك بنفسه فى ٣٨ معركة، وانتصر فى جميع هذه المعارك منها ٢١ معركة ضد الصليبيين، ٥ معارك ضد الأرمن حلفاء الصليبيين، و ٩ معارك ضد التتار، وثلاث معارك ضد الحشيشية. وتوفى بيبرس فى دمشق فى المحرم ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) ودفن بها فتولى السلطنة من بعده ولى عهده ابنه الملك السعيد محمد بركة خان وكان قد بلغ من العمر ١٨ سنة، ولكن الأمراء تألبوا عليه وحاصروه فى قلعة الجبل وخلعوه عن السلطنة بعد أن أمضى فى الحكم نحو سنتين، وولوا من بعده ابنه بدر الدين سلامش، الذى تلقب بالملك العادل، وكان طفلا فى السابعة من عمره وتولى الأمير سيف الدين قلاوون منصب الأتابك لهذا السلطان، وقد أقدم قلاون على خلعه بعد مائة يوم من توليه السلطنة، وبعث به الى الكرك، فسجن مع أخيه بركة، ثم تولى قلاوون السلطنة، وكان قلاوون تركى الأصل، جلب صغيرا واشتراه الامير علاء الدين آقسنقر

(١) عن احياء الخلافة العباسية بالقاهرة أنظر محمد عبد العال أحمد، أضواء جديدة على احياء الخلافة العباسية أسبابها وموقف حكام بعض الاقطار الاسلامية منها، الاسكندرية ١٩٨٧.

الساقي العادلي بألف دينار فعرف لذلك بالألفي ، ثم انتقل بعد وفاة اقسنقر الى الملك الصالح نجم الدين أيوب في سنة ٦٤٧ ، فجعله من جملة البحرية، ثم تدرج في المناصب حتى وصل الى منصب أتابك العسكر في أيام العادل بركة وبدر الدين سلامش ، وذكر اسمه مع العادل سلامش على المنابر ، ثم جلس على سرير السلطنة بقلعة الجبل في ٢٠ من رجب سنة ٦٧٨ وتلقب بالملك المنصور سيف الدين قلاوون. وكان قلاوون من بين أمراء المماليك البحرية الذين خرجوا من مصر بعد مصرع أقطاي، وشارك في الغارات التي وجهها أمراء البيت الايوبي على مصر، ثم عاد الى مصر عند استفحال الخطر المتغولي صحبة بيبرس لمعاونة قطز في مواجهة المغول، ومن انجازاته العظيمة أنه استرد حصن المرقب واسقط امارة طرابلس الصليبية، واسترد للاسلام هذه المدينة العريقة ، وأسس تجاهها على ربض القبة مدينة طرابلس المملوكية بعد أن خرب المدينة القديمة المطلة على البحر .[1]

ويرجع الى قلاوون الفضل في القضاء على الفتنة التي أضرم نارها الأمير سنقر الأشقر نائب الشام، فقد أنكر سنقر ما أقدم عليه قلاوون من خلع سلامش والظفر بدست السلطنة لنفسه ، وأعلن نفسه سلطانا على الشام وتلقب بالملك الكامل، ومازال به يستألفه حتى استسلم له فاستقدمه الى القاهرة وأكرم وفادته [2]. وحاول قلاوون أن يحرر الشام من الاحتلال الصليبي ، فخرج لغزو الفرنج بعكا ، وهو مريض ، فتوفى

(١) المقريزي ، الخطط ، ج٢ ، ص١٧٦.

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ص ٣٠١

خارج القاهرة في ٦ ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ (١٢٩٠م) ويرجع الفضل الى قلاوون في انشاء طائفة المماليك الجراكسة، فقد أفرد من مماليكه ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك من الامراء والجراكسة وجعلهم بالقلعة، وسماهم بالبرجية .

خلف قلاوون ابنه الأشرف خليل الذى ينسب اليه فتح عكا في ٣ ربيع الاول سنة ٦٩٠هـ وبسقوطها في أيدى المماليك واستردادهم لمدن الساحل صور وحيفا وعتليث وانطرطوس وصيدا يكون الاشرف خليل قد حرر الشام كلها من السيطرة الصليبية. ولم يطل به العهد في السلطنة فقد لقى نفس مصير قطز؛ فعندما خرج للصيد وبلغ الطرانة في ١٢ من المحرم سنة ٦٩٣هـ اقتحم عليه الامير بيدرا في جماعة من المماليك فقتلوه وأقاموا من بعده أخوه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وكان عمره يوم توليه السلطنة سبع سنوات ، فقام الأمير زين الدين كتبغا بتدبير أمور الدولة، ثم خلعه بعد مضى سنة من توليه السلطنة وتولى مكانه. والسلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى من مماليك المنصور قلاوون، وكانت أيامه على حد قول المقريزى شر أيام لما حدث فيها من انخفاض مياه النيل وارتفاع الأسعار وتفشى الوباء في البلاد (١)، فخرج عليه نائبه الأمير حسام الدين لاشين المنصورى وهو عائد من دمشق بمنزلة المرجاء في ٢٨ المحرم سنة ٦٩٦هـ ، ففر العادل الى دمشق واستولى لاشين على السلطنة وتلقب لاشين بالملك المنصور، وكان قد تزوج من بنت السلطان

(١) المقريزى ، الخطط ، ج٣ ، ص ١٧٧ .

قلاوون ليضفى على حكمه نوعا من الشرعية، وتظاهر بولائه لبنى قلاوون فاكتفى بابعاد الناصر محمد بن قلاوون الى الكرك بحجة اكتساب الخبرات والتجارب تؤهله مستقبلا لتسلم السلطنة، وقال له : « أنا مملوكك ومملوك والدك ، أحفظ لك الملك وأنت الآن تروح الى الكرك الى أن تترعرع وترتجل وتتخرج وتجرب الأمور وتعود الى ملكك »[1] . والى حسام الدين لاشين يرجع الفضل فى اصلاح الجامع الطولونى فأنفق على ذلك عشرة آلاف دينار ، ولكنه استثار غضب أمراء المماليك عندما عزل الأمير قراسنقر من نيابة السلطنة وجعل مكانه عليها مملوكه منكوتمر ، فنفرت القلوب عنه لاسيما مماليك الاشرف خليل، فوثبوا به وقتلوه فى ١١ من ربيع الآخر سنة ٦٩٨، واستدعوا الناصر محمد بن قلاوون من الكرك،فأعيد الى السلطنة للمرة الثانية، وتولى نيابة السلطنة كل من الاميرين سلار وركن الدين بيبرس الجاشنكير [2] وكان عمر الناصر وقت عودته الثانية للسلطنة ١٤ سنة، وكانت أهم حوادث السلطنة الثانية للناصر التغلب على المغول فى مرج الصفر عند قرية شقحب الواقعة قبلى دمشق يوم ٢ من رمضان سنة ٧٠٢هـ [3] (١٣٠١م) ،وجاء هذا الانتصار ردا على هزيمة المماليك على أيدى قوات المغول بقيادة غازان خان فى مجمع المروج فى٢٧ من شهر ربيع الاول سنة٦٩٩هـ(١٢٩٩م)ولم يلبث الناصر

(١) المقريزى ، السلوك ، ج١ قسم ٢ ص ٨٣٢.
(٢) عرفا ككفيلين للناصر محمد بسبب صغر سنه .
(٣) الحسن بن عمر بن حبيب ، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، تحقيق د. محمد محمد أمين ، ج١ ، القاهرة ١٩٧٦ ، ٢٤٦ ومايليها .

محمد أن اعتزل السلطنة وأقام فى الكرك معرضا عن الملك فى شوال ٧٠٨هـ (١٣٠٨م)وذلك بسبب سيطرة الاميرين سلار وركن الدين بيبرس على شؤون الدولة واستبدادهما بأمورها، وقدم المماليك البرجية على السلطنة مكانه الأمير بيبرس الجاشنكير الذى تلقب بالسلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس وذلك فى ٢٣ ذى القعدة من سنة ٧٠٨هـ [1] وفى عهده القصير الذى لم يتجاوز السنة تفشى الوباء ، وعز الدواء ، واشتد الغلاء ، وتوقفت زيادة النيل ، فعظم ذلك الناس، واشتد سخطهم على السلطان، وذاعت شهرة احدى الاغانى الشعبية التى تندر به نصها : « سلطاننا ركين ، ونائبنا دقين ، يجينا الماء منين ، جيبوا لنا الأعرج يجى الماء ويدحرج »، وبينما فقد ركن الدين بيبرس شعبيته. كان الناصر محمد يجتذب الأنصار فى الكرك ، فقد قصده عدد كبير من أمراء المماليك فى الشام ومصر ، وطالبوه بالعودة إلى القاهرة ، وارتقاء دست السلطنة ، فسار الى دمشق فى شعبان سنة ٧٠٩ هـ ، ودخلها بغير قتال ، وخطب له فى منابرها . واضطر الملك المظفر إلى عقد اجتماع مع جميع الأمراء ، واستشارهم فيما يفعل ، فأشار عليه الأمير بيبرس الدوادار والأمير بهادر بالنزول عن السلطنة فأعجبه ذلك . وفى ١٩ رمضان خطب له فى منابرهم . وتعتبر السلطنة الثالثة للناصر محمد أزهى عصور الدولة المملوكية، ففيها امتد النفوذ الخارجى لمصر الى آفاق بعيدة، فبلغ مكة والمدينة واليمن والمغرب

(١) نفس المصدر، ص ٢٢٠ ، وذكر المقريزى أنه تولى فى ٢٣ من شوال (السلوك ، ج١ قسم ٢ ج٤).

(٢) سعيد عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، ص ١١٤.

والاندلس ، ونعمت مصر فى عهده برخاء واستقرار كبيرين وازدهرت الحياة العلمية ازدهارا ينعكس على الآثار الرائعة التى أقامها فى مصر والشام [٢] والتى وصلت الينا، ومنها جامعه بالقلعة ومدرسته بالنحاسين ، وتوفى الناصر محمد فى ٧٤١هـ (فى ٢١ ذى الحجة) .

وتولى بعد الناصر محمد من أبنائه وأحفاده سلاطين ضعاف صغار السن هم على التوالى : الملك المنصور سيف الدين أبو بكر ، وخلع بعد ٥٩ يوما ، والملك الاشرف علاء الدين كجك وكان عمره ٨ سنوات وخلع بعد ٥ أشهر وعشرة أيام من تولية السلطنة، ثم الملك الناصر شهاب الدين أحمد وخلع بعد ثلاثة أشهر و١٣ يوما، ثم الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ومات فى ٤ ربيع الآخر سنة ٧٤٦ بعد ٣ سنوات وشهرين ، ثم الملك الكامل سيف الدين شعبان وخلع بعد سنة و ٥٨ يوما، ثم الملك المظفر زين الدين حاجى ، وذبح فى ١٢ رمضان سنة ٧٤٨ بعد حكم دام سنة وثلاثة أشهر، ثم الملك الناصر بدر الدين أبو المعالى حسن وخلع وسجن بعد ٤ سنوات تقريبا ، ثم الملك الصالح صلاح الدين صالح وخلع وسجن بالقلعة بعد ٣ سنوات وثلاثة أشهر من الحكم، ثم الملك الناصر حسن للمرة الثانية فى ٢ شوال سنة ٧٥٥هـ وقتل بعد حكم دام ست سنوات وسبعة أشهر، وكل هؤلاء من أبناء الناصر محمد . ثم تولى من أحفاد الناصر المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجى وكان عمره ١٤ سنة يوم تولى عرش السلطنة ولم يطل به العهد فخلع وسجن بالقلعة بعد سنتين من الحكم، ثم الملك الاشرف زين العابدين ابو المعالى شعبان بن حسين

بن الناصر وتولى وعمره عشر سنوات ، ثم قتل فى ٦ ذى القعدة سنة ٧٧٨، بعد ١٤ سنة وشهرين فى الحكم، وخلفه ابنه الملك المنصور علاء الدين على بن شعبان وعمره ٧ سنين وأقام فى السلطنة التى لم يكن حظه منها سوى الاسم خمس سنين وثلاثة أشهر، ومات فى ٢٣ صفر سنة ٧٨٣ وخلفه أخوه الملك الصالح زين الدين حاجى، فقام بأمر السلطنة وتدبير شؤون الدولة الأمير الكبير برقوق الذى أقدم على خلعه فى ٩ رمضان سنة ٧٨٤هـ أى بعد سنة وشهرين من توليه السلطنة، وبه ينتهى عصر دولة المماليك الاولى المعروفة بدولة المماليك البحرية .

ويتبين مما سبق أن دولة المماليك الاولى استمرت قوية مرهوبة الجانب حتى نهاية عصر الناصر محمد بن قلاوون ، الذى أحدثت وفاته فى سنة ٧٤١هـ (١٣٤١م) فراغا كبيرا لم يستطع أحد من أبنائه أو أحفاده أن يملأه ، اذ كان هؤلاء الابناء والاحفاد عند ارتقائهم عرش السلطنة أطفالا يخلعون بنفس السرعة التى يتولون فيها وفقا لاهواء كبار أمراء المماليك أمثال قوصون وطشتمر ويلبغا وصرغتمش .

(٥)

المماليك البحرية وتصفية الامارات الصليبية

استمرت الهدنة المعقودة بين الصليبيين والسلطة المملوكية سارية المفعول بعد اطلاق سراح الملك لويس التاسع، حتى مصرع المعز أيبك رغم محاولات لويس التاسع وهو بعد فى الشام التحرش بالمماليك [١]. ولكن منذ أنْ تولى الظاهر بيبرس عرش السلطنة وهو يعمل جاهدا على تنظيم قواته، وتعزيز أسطوله، وترميم حصون الاسكندرية، والاهتمام بحراسة مداخل النيل عند دمياط ورشيد مما يؤكد أنه كان يتأهب للقيام بمشروع عسكرى واسع النطاق [٢]، وربما

(١) منذ أن عقد الصلح بين الناصر صاحب دمشق وبين المعز أيبك فى صفر سنة ٦٥١ هـ (مايو ١٢٥٤) والملك الناصر يوجه غاراته الى معاقل الصليبيين فى يافا وعكا وأرسوف وصيداء ربما بهدف التطلع الى اعلاء مكانته بين المسلمين، وقد رد لويس التاسع على هذه الغارات بمهاجمة نابلس التى كانت وفقا للصلح المبرم بين الملك الناصر والمعز أيبك تابعة لمصر، ولكن الاسبتارية و والداوية أثنوه عن متابعة هجومه عليها خوفا من استثارة المماليك فى مصر ورأوا ضرورة احترام الهدنة المنعقدة بين لويس التاسع والمصريين. وظلت هذه الهدنة قائمة وموضع احترام الجانبين الصليبى والمملوكي، ورأينا كيف وافق الصليبيون على أن يقفوا موقفا حياديا من المعسكرين المغولى والمملوكى على أن يسمحوا للجيش المملوكى العبور فى أراضيهم (سعيد عاشور مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، ص ٥٥ –٥٩).

(٢) سعيد عاشور، المرجع السابق، ص٥٩. ويعتبر الظاهر بيبرس أول سلطان مملوكي يولى الثغر الاسكندرية اهتماما خاصا وعناية فاقت من سبقه من السلاطين، وكان الخطران المغولى والصليبى حافزا له على زيادة الاهتمام بتحصينات الثغور المصرية بوجه عام، ففى عام ٦٥٩ أمر بعمارة أسوار الاسكندرية (محيى الدين بن عبد الظاهر، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، وانظر المقريزى، السلوك، ج٣ ص٤٤٦) وبنى بثغر رشيد مرقبا لكشف البحر ورؤيته، كما أمر بردم فم بحر دمياط، وسير لهذا الغرض من القاهرة عددا من الحجارين القوا فى نهر النيل عند المصب قطع عديدة من الكتل الحجرية حتى ضاق فم بحر دمياط وتعذر بذلك دخول المراكب منه الى دمياط (المقريزى، المصدر السابق ص ٤٤٦) وفى نفس الوقت خص البحرية بنصيب وافر من عنايته، فنظر فى أمر الشوانى الحربية واستدعى رجال الاسطول للغزو، ونزل بنفسه الى دار صناعة مصر لترتيب صناعة الشوانى وزيادة اهتمام الصناع بالانتاج، كما زار الاسكندرية فى أيام سلطنته أربع مرات (انظر التفاصيل فى السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى، الاسكندرية ١٩٨٢، ص ٢٧٧–٢٨٨).

كان الظاهر بيبرس متأسيا فيما قام به من استعدادات للحرب بصلاح الدين يوسف ، مقتديا به فى الجهاد ضد الصليبيين ، وكان الظاهر بيبرس حريصا على تأليف جبهة اسلامية متحدة تضم مصر والشام لمواجهة مؤامرات الصليبيين والمغول واحباطها ، والعمل على اخراج الصليبيين من الشام بصورة نهائية ، ولم يكن قد نسى بعد الدور الخسيس الذى لعبه بوهمند السادس ومن حذا حذوه من الصليبيين لمساعدة المغول[1] ، وقد كان لذلك أعمق الاثر فى عزم بيبرس على سحق الامارات الصليبية الباقية فى بلاد الشام فى أنطاكية وطرابلس وعكا[2] ، وعلى البدء بتسديد ضرباته الى امارة أنطاكية لمعاقبة أميرها بوهيمند السادس على محالفته للمغول . فقد كان بيبرس يرى فيه العدو

---

(١) كان هيثوم ملك أرمينية الصغرى قد تحالف مع المغول ضد المسلمين مستهدفا من وراء ذلك استنقاذ بيت المقدس من أيدى المسلمين . وانضم بوهمند السادس صاحب أنطاكية الى هذا الحلف لمجاورته لهيثوم ولمصاهرته له اذ كان قد تزوج من ابنته ، ثم أن دوقوز خاتون زوجة هولاكو المسيحية لعبت دورا هاما فى تمكين العلاقات الودية بين زعماء المسيحية وبين هولاكو الذى كان متيما بها لايتردد عن اجابة كل طلباتها ويكن لها كل احترام . ويذكر جروسيه أن خطة الحملة المغولية على الشام ومصر تقررت بعد بناء تم بين هولاكو وتابعه الارمنى هيثوم الاول ملك أرمينية الصغرى ، وكان هولاكو قد طلب اليه أن يتقدم بجيشه الارمنى الى الرها بحجة أنه ذاهب لتخليص الاراضى المقدسة من أيدى المسلمين وردها للمسيحيين فسر هيثوم بذلك وانضم بجيشه الى هولاكو . وقدم البطريرك الارمنى يمنح البركة للخان وقد شارك الارمن وفرنج أنطاكية قوات المغول فى حصار حلب ، ولما افتتحها المغول استباحوها سبعة أيام ، وقتلوا من أهلها عددا كبيرا امتلأت الطرقات بجثثهم ، واستغل هيثوم فرصة سقوط قلعة حلب فى ١١ ربيع الأول سنة ٦٥٧هـ وأحرق الجامع الكبير ، ثم أصدر هولاكو أمره بوقف المذابح وأعطى ملك الأرمن قسما من الغنائم وأعاد اليه الاقاليم التى كان قد استولى عليها مسلمو حلب ، كما رد الى بوهمند جميع ما كان المسلمون قد اقتطعوه من أراضيه

(٢) سعيد عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٥١ - العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة . ١٩٦٥ . ص ٥٩

الأعظم له من بين أمراء الفرنج جميعا لأنه كان يتلقى النجدات من أوربا، ويعين المعول في عزوهم لبلاد الشام، ويكثر من العيث وشن الغارات التخريبية على أراضي المسلمين. ولاشك أن بيبرس قد نهج نفس السبيل الذي كان قد انتهجه صلاح الدين صاحب الفضل الأعظم في اخراج الصليبيين من بيت المقدس ، بل أننا نراه يتقمص شخصية صلاح الدين ، ويقضي الشطر الأكبر من حياته مشاغرا ومجاهدا بين الشام ومصر. وقبل أن يشرع بيبرس في جهاده الأعظم بدأ يدعم مركزه سياسيا ضد الصليبيين وذلك بعقد سلسلة من الاتفاقات الودية مع بعض الحكام والملوك ومنهم الامبراطور البيزنطي ميشيل باليولوجس وما نفرد هو هنشتاوفن بن فردريك الثاني [1] ملك صقلية، وبركة خان زعيم مغول القفجاق [2] ، والسلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو سلطان دولة سلاجقة الروم [3] ، والفونسو

---

(١) كان بيبرس قد أرسل الى ما نفرد هدية من جملتها عدد من الزراف وجماعة من أسرى التتار بخيولهم التترية وعددهم (المقريزي ، السلوك ، ج١ قسم ٢ ص ٤٦٣ هامش ٢) ورد عليه ما نفرد بهدية
(السلوك ، ص ٤٦٩)

(٢) يذكر المقريزي أن بيبرس كتب الى بركة خان يغريه بقتال هولاكو ويرغبه في ذلك في سنة ٦٥٩هـ (السلوك، ج١ قسم ٢ ص ٤٦٥). والمعروف أن بيبرس كان قد تزوج بنت بركة خان وتحالف معه، وتبادل معه الهدايا

(٣) وفي شعبان سنة ٦٥٩ وصل الى القاهرة الامير شرف الدين الجاكي والشريف عماد الدين الهاشمي من قبل صاحب الروم ومعهما رسل السلطان السلجوقي (صاحب الروم) وهما الأمير ناصر الدين نصر الله بن قلج أرسلان أمير حاجب والصدر صدر الدين الاخلاطي يحملان كتاب السلطان السلجوقي بأنه نزل عن نصف بلاده للسلطان بيبرس ، ويبدو أنه طلب من بيبرس أن يمده بقوة عسكرية ضد أخيه ركن الدين قلج أرسلان وضد هولاكو ، فجهز له بيبرس نجدة بتقدمه الامير ناصر الدين أغلمش السلاحدار

العاشر العالم ملك قشتالة [1]، ولعله كان يهدف من وراء هذه الاتفاقات الودية وتبادل الهدايا والسفارات مع ملوك هذه الدول أن يحيد هذه الدول في صراعه المقبل مع الصليبيين ومع المغول، وأن يحكم الحصار على الفرنج فلاتصلهم أى معونات من الشرق أو من الغرب [2].

ويبدأ بيبرس بشن غاراته ضد الصليبيين منذ سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م)، ففى هذه السنة وجه الأمير شمس الدين سنقر الرومى للاغارة على أنطاكية، ونجح الأمير سنقر فى مهمته، وأحرق ميناء أنطاكية وعاد بصحبته ما يزيد على ثلاثمائة أسير [3]، وفى سنة ٦٦٤هـ (١٢٦٥م) اشتبكت قوات الأمير علم الدين سنجر الباشقردى نائب حمص مع قوات البرنس بوهمند (بيمند بن بيمند) صاحب انطاكية وطرابلس، وفى هذا الاشتباك انهزمت قوات الفرنج [4]. وفى هذه الغزوة سير بيبرس عسكرا بقيادة جمال الدين أيدغدى الطريزى، وعسكرا آخر بقيادة الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى للاغارة على

---

(١) يذكر بياستيروس أحد مؤرخى اسبانيا أن بيبرس تلقى من الفونسو العاشر هدية من الخيول العربية فى سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م)، وقد رد عليه بيبرس بهدية مماثلة من بينها زرافة وتمساح وناب فيل، ومازال التمساح وقد حنط بعد موته وناب الفيل معلقين بسقف المجنبة الشرقية تجاه المدخل الشرقي الى جامع القصبة الموحدية باشبيلية (راجع السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور فى الأندلس، سلسلة اقرأ، القاهرة ١٩٥٨) ويذكر المقريزى أن رسل التش (الفونسو العاشر) وصلت الى القاهرة سنة ٦٦٤هـ (السلوك، ص ٥٤٣).

(٢) سعيد عاشور، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، ص ٦١.

(٣) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، طبعة لبنان، صيدا، ١٩٥٩، ج٦ ص ١٢٢ - المقريزى، السلوك، ج١ قسم ٢ ص ٤٧٢.

(٤) المقريزى، السلوك، ج١ قسم ٢ ص ٥٤٣.

بلاد السواحـــل، فبثا الغارات على طرابلس وحصن الأكراد [1] كما أغارت قواتهما على ساحل البحر من جهة طرابلس ، ونزلت عساكرهم على حصن من عمل حصن الاكراد واستولوا عليه، كما استولوا على قلعة عرقة [2] ، وكانت هذه القلاع الثلاثة تشكل ما يشبه المثلث الذى يحمى طرابلس من جهة الشمال والشمال الشرقي ، لاشرافها على المنفذ الموصل بين طرابلس وحمص ، فكان استيلاء بيبرس عليها تهديدا مباشرا لطرابلس [3] ، ثم حاصر طرابلس فانحدر اليه الموازنة من قمم الجبال، فاضطرت قواته الى رفع الحصار عنها والرحيل .وفى شعبان سنة ٦٦٦هـ (١٢٦٧م) أعاد بيبرس الكرة، فوجه عساكره الى اقليم طرابلس ، وشن الغارة عليها ، وانتسف زروعها ، وخرب قراها، وغور أنهارها [4] . ثم رحل بعد ذلك الى حصن الاكراد ونزل بالمرج الذى يقع بأدنى الحصن، وكان قد وجه حملة تأديبية بقيادة الأمير سيف الدين قلاوون الى أرمينية سنة ٦٦٤ أغارت على مدنها الهامة مثل سيس واطنه وطرسوس والمصيصة ، وعاثت قوات المماليك فسادا مدة عشرين يوما فى أراضى أرمينية الصغرى وعادت بغنائم وفيرة وعدد كبير من الأسرى، من بينهم ليفون ابن ملك أرمينية هيثوم [5] .

---

(١) ابن تغرى بردى ، ج٧ ص ١٣٨ - منتخبات من كتاب عقد الجمان لبدر الدين العينى فى : Recucil des Historiens des Croisades, Partie lere. p. 221.

(٢) أبو الفدا ، ج٧ ص ٦

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١١٤٧ .

(٤) المقريزى، السلوك، ج١ قسم٢ ص ٥٦٦ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج٧ ص ١٤٢ .

(٥) المقريزى ، السلوك ، ج١ قسم ٢ ص ٥٥٢ ومايليها ، وقد صالح السلطان بيبرس هيثوم فى ٦٦٦هـ (١٢٦٨م) على شروط منها أن يسلم الى بيبرس بلاد بهسنا ودربساك ومرزبان ورعبان وشيخ الحديد، مقابل أن يطلق بيبرس سراح ولده ليفون، وقد سلم هيثوم الحكم لولده بعد ذلك، وآثر الانزواء فى دير الى أن توفى سنة٦٧٤هـ (١٢٧٥م).

وتوج بيبرس انتصاراته على الفرنج في شهر رمضان ٦٦٦هـ (١٢٦٨م) ؛ ففي الرابع من هذا الشهر دخلت قواته مدينة أنطاكية ، وتفصيل ذلك أنه توجه بعساكره مجتمعة [١] نحو أنطاكية، وفي أول رمضان حاصرت قوات بيبرس أنطاكية من كل جانب ، وأرسل السلطان الى الفرنج يدعوهم الى التسليم ويهددهم بالزحف عليهم، وظل يبعث اليهم الرسل للتفاوض دون أن يجيبوا عليه، فزحف عليها وقاتل أهلها قتالا شديدا. وتصور المسلمون الاسوار من جهة الجبل بالقرب من القلعة، ونزلوا المدينة، ففر أهلها الى القلعة، ووقع النهب والقتل والأسر في المدينة ، فلم يرفع السيف عن أحد من الرجال، وكان بها فوق المائة ألف . وأحاط الامراء بأبواب المدينة حتى لايفر منها أحد ، واجتمع بالقلعة من المقاتلة ثمانية آلاف سوى النساء والاولاد ، فبعثوا يطلبون الامان، فأمنوا ، وصعد السلطان اليهم ومعه الجبال، فكتفوا وفرقوا على الأمراء ، والكتاب بين يدى السلطان ينزلون الأسماء [٢] ، ثم أمر بيبرس باحراق القلعة، وامتد الحريق الى أنطاكية نفسها، فاستولى الناس على حديد أبوابها ورصاص كنائسها مالا يوصف . أحدث خبر سقوط امارة انطاكية دويا هائلا في العالم الاسلامي والمسيحي على السواء، ويعد سقوطها في أيدى المسلمين كارثة عظمى على القوى الصليبية، وقد وجه بيبرس بعد استيلائه عليها الى أميرها بوهمند

---

(١) كان عساكره تتألف من ثلاثة فرق : فرقة بقيادة الامير بدر الدين الخازندار ، وفرقة مع الأمير عز الدين ايغان ، وفرقة مع السلطان بيبرس نفسه (المقريزى ، السلوك، ج١ قسم ٢ ، ص ٥٦٧) .
(٢) المقريزى ، السلوك ، ج١ قسم ٢ ص ٥٦٧.

السادس الذى كان مقيما فى ذلك الوقت بطرابلس رسالة تفطر سخرية وتهكما لاذعا من انشاء ابن عبد الظاهر، نطالع منها : (.. فلو رأيت خيالتك وهم تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهابة فيها تصول ، والكسابة فيها تجول ، وأموالك وهى توزن بالقنطار ، ودامانك وكل أربع مهن تباع فتشترى من مالك بدينار، ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونشرت ، وصحفها من الاناجيل المزورة قد نثرت ، وقبور البطارقة قد بعثرت . ولو رأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القداس والمذبح، وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشماس ، والبطارقة وقد دهموا بطارقة، وأبناء المملكة قد دخلوا فى المملكة، ولو شاهدت النيران وهى فى قصورك تخترق ، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق ، وقصورك وأحوالها قد حالت ، وكنيسة بولص وكنيسة القسيان وقد زلت وزالت ، لكنت تقول ياليتنى كنت ترابا ، وياليتنى لم أوت بهذا الخبر كتابا، ولكانت نفسك تذهب من حسرتك ، ولكنت تطفىء تلك النيران بماء غيرتك ... وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة ، وطول العمر بكونك لم يكن لك فى أنطاكية فى هذه المدة أقامة، وكونك ما كنت بها فتكون إما قتيلا وإما أسيرا وإما جريحا واما كسيرا، وسلامة النفس هى التى يفرح بها الحى اذا شاهد الاموات..)[1]) .

ولم تتوقف فتوح بيبرس عند سقوط أنطاكية ، فقد عزم على

(١) طالع النص الكامل لهذا الكتاب فى : الملحق الثانى ، بآخر الجزء الأول من كتاب السلوك للمقريزى صفحات ٩٦٦ - ٩٦٩.

تحرير طرابلس كذلك ، ولكي يتحقق له ذلك كان عليه أن يقضى على حصونها الامامية، فبادر بمهاجمة طرابلس وانتزع صافيتا والمجدلى من الداوية، ثم عاود الكرة على حصن الاكراد [١]؛ وفى ١٠ رجب سنة ٦٦٩هـ (١٢٧٠م) هاجم طرابلس وانتزع صافيتا والمجدل من الداوية ثم عاود الكرة على حصن الاكراد في ١٩ رجب ، ونصب المجانيق على أسوارها ونقب أسوارها الثلاثة في ١٥ شعبان، ودخل الحصن بالسيف ثم أطلق من كان فيه من الفرنج فرحلوا الى طرابلس [٢]. ويفتح حصن الاكراد تفتحت المنافذ الى طرابلس نفسها، وعمد بيبرس الى ترميم بنيان الحصن واتخذه قاعدة لعملياته الحربية ضد امارة طرابلس الصليبية [٣]، ثم غادر بيبرس الحصن بعد أن أسند عمارته الى الأمير عز الدين الأفرم، وخاف صاحب انطرطوس أن تلقى مدينته نفس المصير ، فبعث الى بيبرس يسأله المهادنة، وأرسل اليه مفاتيح انطرطوس ، فصالحه على نصف ما يتحصل من غلال بلده، وجعل بأنطرطوس نائبا عنه فيها، ثم صالح صاحب المرقب على المناصفة أيضا فى أول رمضان سنة ٦٦٩هـ وعقد مع صاحبها هدنة تسرى مدة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام [٤] ، وعلى هذا النحو أصبحت قوات بيبرس تطبق على المرقب من الشمال والجنوب خاصة بعد أن افتتح

---

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج٧ ص ١٤٨.

(٢) نفس المصدر ، ج٧ ص ١٥٠ ، ١٥١ .

(3) King (E.J.) : The Knights hospitallers in the Holy Land, London, 1531, p. 271.

(٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج٧ ، ص ١٥١

المسلمون مرقية الواقعة جنوبي المرقب . ثم شرع بيبرس في شهر رمضان نفسه من السنة المذكورة في حصار حصن ابن عكار (ويعرف حاليا بعكار، وهي بلدة تقع شمالي طرابلس) آخر حصون طرابلس الامامية، ونصب عليه المجانيق ، ثم أخذ يطلقها بدون انقطاع فهدم قطاعا من السور، فبادر أهلها بطلب الامان على أرواحهم ، وسألوه ان يأذن لهم بالخروج الى طرابلس ، فأجابهم الى طلبهم [1] . وبسقوط حصن ابن عكار انقطع الاتصال في الساحل بين طرابلس واللاذقية ، وأصبح في امكان بيبرس بعد ذلك أن يشدد الخناق على طرابلس ويحقق حلمه بالاستيلاء عليها . ولكن أخبارا مزعجة بلغته بخروج حملة صليبية جديدة من فرنسا بقيادة لويس التاسع أنقذ طرابلس من المصير الذي لاقته أنطاكية. وكان لويس منذ حملته الفاشلة على دمياط يسعى سعيا حثيثا للعودة الى الشرق الاسلامي على رأس حملة صليبية جديدة، ولكن لم تتهيأ له الفرصة الا منذ سنة ٦٦٦هـ (١٢٦٧م) بسبب الانتصارات التي أحرزها بيبرس على القوى الصليبية في الشام وانتهت بسقوط أنطاكية، ولكن مشروعه تأجل ثلاث سنوات بسبب مرضه، فلما أبل منه أخذ يعد العدة للتوجه بحملته الى فلسطين. ولكن لأمر ما انصاع لويس التاسع لمشيئة أخيه شارل دانجو Charles d' Anjou الذي أصبح ملكا على صقلية وجنوبي ايطاليا منذ

ا

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج١ قسم ٢ ص ٥٩٢ – ابن تغري بردي – النجوم الزاهرة ج٧ ص ١٥٢.

سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٦م) وكان يستهدف القبض على خصومه الذين فروا الى تونس الحفصية [1]. وأدرك بيبرس مدى الخطورة التى تمثلها هذه الحملة اذا ما قدر نجاحها على مصر والشام، ولهذا تناسى خصومته مع السلطان الحفصى أبو عبد الله محمد المستنصر بالله الذى تلقب بالخلافة منافسا بذلك الخليفة العباسى بالقاهرة، وبادر بالكتابة الى المستنصر يفصح له عن عزمه على مساعدته عسكريا ، وفى ذلك يقول المقريزى : « وفيه (أى فى عام ٦٦٩هـ) ورد الخبر بمسير الفرنسيس وملوك الفرنج الى تونس ومحاربة أهلها » فكتب السلطان الى صاحب تونس بوصول العساكر اليه نجدة له على الفرنج، وكتب الى عربان برقة وبلاد الغرب بالمسير الى نجدته (أى نجدة المستنصر الحفصى) وأمرهم بحفر الآبار فى الطرقات برسم العساكر، وشرع فى تجريد العساكر، فورد الخبر بموت الفرنسيس وابنه وجماعة من عسكره، ووصول نجدات العربان الى تونس وحفر الآبار، وأن الفرنج رحلوا عن تونس فى خامس صفر » [2]. والواقع أن حملة لويس التاسع المعروفة بالحملة الصليبية الثامنة والموجهة الى تونس انتهت بالفشل ، بسبب مقاومة الحفصيين من جهة وتفشى الوباء فى معسكر الفرنج من جهة ثانية، ووفاة الملك لويس التاسع من جهة ثالثة [3]. وكتب بعض أدباء المستنصر واسمه أحمد بن اسماعيل الزيات يسخر من فشل هذه الحملة ويقول :

(١) محمد محمد أمين ، شمال افريقيا والحركة الصليبية ، مجلد معهد الدراسات والبحوث الافريقية العدد الثالث ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١٥٦ وما يليها .

(٢) المقريزى ، السلوك، ج١ قسم ٢ ص ٥٩٠.

(٣) محمد محمد أمين ، المرجع السابق ، ص ١٦٠

أفرنسيس تونس أخت مصر … فتأهب لما اليه تصير

لك فيها دار ابن لقمان قبر … وطواشيك منكر ونكير[1]

وكان الظاهر بيبرس أثناء وجوده بمصر تأهبا لأى اعتداء يوجه اليها، قد بالغ في الاحتياط والاستعداد، فأمر بقتل الكلاب بالاسكندرية ومنع الناس من فتح حوانيتهم بعد المغرب ومن ايقاد أى نار بها أثناء الليل[2]، كما اهتم بتحصين الاسكندرية، كما أمر في ذى الحجة من سنة ٦٦٨هـ (١٢٧٠م) بعمل جسرين على مراكب أحدهما يصل بين مصر وجزيرة الروضة، والآخر بين الجزيرة والجيزة ليسهل لعسكره العبور عليها نحو الاسكندرية اذا طرقها العدو[3].

بعد أن اطمأن بيبرس على أحوال مصر الدفاعية غادر البلاد المصرية وعاد الى مقاتلة الفرنج فى طرابلس من جديد سنة ٦٧٠هـ (١٢٧١م)، فأرسل اليه أميرها بوهمند السادس يطلب الصلح والمسالمة، وفى هذا الوقت وصلت الحملة الصليبية السابعة بقيادة الامير ادوارد الأول الى عكا، فاضطر بيبرس الى اجابة بوهمند الى طلبه، وعقد معه صلحا لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة

---

(١) المقريزى، الخطط، ج١ ص ٣٩٣ - المقرى، نفخ الطيب من غصن أندلس الرطيب، تحقيق محيى الدين عبد الحميد، ج٤ ص ٩٠ - مذكرات جوانفيل، ترجمة الدكتور حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٨ ص ٣١٣ - جوزيف نسيم يوسف، لويس التاسع فى الشرق الاوسط القاهرة ١٩٥٩، ص ٣٥٨.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧ ص ١٤٨، ١٤٩.

(٣) السيد عبد العزيز سالم تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى، الاسكندرية ١٩٨٢، ص ٢٨٤

أيام [١]. وبلغ بيبرس وهو فى الشام بخروج ملك قبرص للاغارة على عكا، وكان يحكم قبرص الملك هيو الثالث لوزنيان الذى عرف بعدائه الشديد لدولة المماليك ،فرأى بيبرس أن يبادر هو بمهاجمة قبرص قبل أن يهاجم ملك قبرص السواحل الاسلامية، فسير بيبرس لذلك ١٧ شينيا فى شوال سنة ٦٦٩هـ وتولى قيادة سفن دار صناعة مصر الرئيس ناصر الدين عمر بن منصور ، وسفن الاسكندرية شهاب الدين محمد بن ابراهيم بن عبد السلام رئيس البحر بالاسكندرية، وعلى أسطول دمياط شرف الدين علوى بن أبى المجد علوى العسقلانى ، وخرج الاسطول بقيادة أمير البحر الرئيس جمال الدين مكى بن حسون متجها نحو قبرص . وعندما اقترب الاسطول المصرى من الجزيرة عمل ابن حسون على مباغتة الفرنج بالهجوم ، فنصب على أعلام الشوانى صلبانا [٢] حتى يوهم القبارصة بأنها سفن مسيحية، ووصلت السفن المصرية إلى الجزيرة ليلا، ولكنها تعرضت لعاصفة عاتية أبعدتها عن مرسى ليماسوس (ليماسول) واصطدم الشينى المتقدم فى الطليعة ببعض الشعب فانكسر، واصطدمت به بقية الشوانى ، فتحطم من السفن مايزيد على ١١ سفينة ، وقيل تحطمت جميعها، وأسر القبارصة من المسلمين زهاء الف وثمانمائة رجل، ونجا الرئيس ابن حسون فى

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ، الاسكندرية ١٩٦٦ ، ص ٢٧٠ .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ص ١٥٤ – سعيد عاشور – قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٤٨ .

الشوانى السالمة [١] ، فعظم ذلك على بيبرس ، وعزم على انشاء شوانى جديدة أمر بانشائها بدار صناعة مصر والاسكندرية ودمياط انتهى العمل منها فى ١٤ المحرم سنة ٦٧١ [٢] .وتوفى بوهيمند السادس فى رمضان سنة ٦٧٣هـ (١٠ مارس ١٢٧٥م) وخلفه ابنه بوهيمند السابع، فاقتضى الأمر تجديد معاهدة الصلح . استجاب بيبرس لذلك وأرسل الامير سيف الدين بلبان الداودار رسولا من قبله الى بوهيمند السابع بطرابلس ليوقع معه اتفاقية الصلح، ودخل سيف الدين بلبان طرابلس فى ٨ المحرم سنة ٦٧٤هـ فى موكب حافل من المماليك السلطانية ومماليكه وأجناده، وتلقاه مقدمو طرابلس. واجتمع الامير بلبان ببوهيمند ، وسلم اليه كتاب السلطان، وتم عقد الصلح على أن يدفع بوهيمند لبيبرس مبلغا قدره عشرون ألف دينار صورية كل سنة، ويرد اليه عشرين أسيرا [٣] .

ومما لاشك فيه أن الخلافات الداخلية القائمة فى المعسكر الصليبى، والحروب الاهلية التى احتدمت فى امارة طرابلس – انطاكية على العرش ، والتفوق العسكرى للمماليك كقوة عظمى ظهرت على مسرح الاحداث فى الشرق الأدنى الاسلامى قلب موازين القوى لصالح المسلمين وكان له الفضل الاعظم فى التغلب على قوى المغول

(١) ابو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، ج٧ ص ١٠ – ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٥٤ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ج٣ ص ١١١ – ابن تغرى بردى ، المصدر السابق، ج٧ ص ١٥٥.

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، تحقيق الدكتور قسطنطين زريق والدكتورة نجلاء عز الدين ، ج٧ ، بيروت ١٩٣٩، ص ٤٠ – المقريزى ، السلوك، ج١ قسم ٢ ص٦١٩

والاحاطة بالحملات الصليبية المتأخرة سواء على مصر أو على الشام، فى الوقت الذى ارتبطت فيه مصر والشام فى وحدة شاملة فى عصر المماليك، كل هذه أمور ساعدت على انجاح حركة الظاهر بيبرس للجهاد ، واذا كان عماد الدين زنكى قد سجل له التاريخ استرداده لامارة الرها الصليبية ، وصلاح الدين يوسف بن أيوب استرجاعه لبيت المقدس ، فان بيبرس نجح أيضا فى استرداد امارة أنطاكية القاعدة الرئيسية للامارة الصليبية المتحدة طرابلس - أنطاكية ، وكان فى مقدوره استرداد طرابلس نفسها وما يتبعها من اقاليم بصفة نهائية بعد سلسلة الضربات المتواصلة التى سددها لهذه الامارة عامى ٦٦٤هـ ، ٦٦٩هـ لولا عدة عوامل أخرت الاسترداد الاسلامى لهذه الامارة وعوقت تقدم الجيوش المملوكية فى بلاد الشام ، نذكر منها عاملين رئيسيين هما :

١- تعاون الباطنية [١] والموارنة [٢] فى الشام مع الفرنج .

٢- تعدد جبهات القتال .

أما عن الموارنة وانضمامهم الى جانب الصليبيين فقد وضح تماما منذ بداية دخول الصليبيين فى الشام فى الحملة الأولى ، وارتبط

---

(١) هم الاسماعيلية الحشيشية اللذين تمركزوا فى قلاع الدعوة بالشام وكانوا يمثلون خطرا على الدولتين الايوبية والمملوكية.

(٢) ينسب الموارنة الى القديس مارمارون الذى عاش فى أواخر القرن الرابع الميلادى، وتوفى فيما يقرب من عام ٤١٠م (فيليب حتى ، لبنان فى التاريخ ، ترجمة د. أنيس فريحة ود . نقولا زيادة ، بيروت ١٩٥٩ ، ص (٣٠١، ٣٠٣) ويعتبر يوحنا مارون أول بطريرك لهذه الطائفة وهو الذى جعل من الموارنة شعبا ذا سيادة (يوسف مزهر، تاريخ لبنان العام ، ج١ ، بيروت ، ص ١٨٢)

الموارنة معهم بروابط وثيقة، فساعدوا ريمون دى سان جيل المعروف بالصنجيلي في حصار مدينة طرابلس، ويذكر الشدياق أن أمير المردة (أى الموارنة) أرسل ولده الأمير سمعان في سنة ١٢٥٠م (٦٤٨هـ) على رأس خمسة وعشرين ألفا من خيالة الموارنة الى لويس التاسع ملك فرنسا عند وصوله الى عكا نجدة له، وكان لذلك التصرف من جانبه أعظم الأثر في قيام علاقة ودية بينه وبينهم [1]. وكان الموارنة يسكنون الجبال المجاورة لمدينة طرابلس وهي اهدن وجبة بشرى والحدث ويقوقا وعكار والزاوية والضنية والبترون وجبيل والمنيطرة. ولقد قام الموارنة في جبل طرابلس وفي كسروان بمساعدة الصليبيين في حروبهم ضد المسلمين لاسيما في أواخر أيام الفرنج بالشام عندما اشتد نشاط سلاطين المماليك لتصفية مابقى من امارة طرابلس ومملكة بيت المقدس، وسيكون لهم دور عدائي واضح ضد المسلمين عندما أقدم قلاوون على حصار طرابلس، كما أوقعوا الهزيمة بجيش المماليك في سنة ٦٩١هـ (١٢٩١م)، كما أعلنوا خروجهم على طاعة الناصر محمد بن قلاوون بعد هزيمته على أيدى المغول في سنة ٦٩٩هـ (١٣٠٠م). ولقد كان الموارنة العنصر المحلى الرئيسى الذى اعتمد عليه الصليبيون في معاركهم ضد المسلمين، وكثيرا ما كانوا ينقضون من قراهم بأعالى الجبال ليقطعوا على جيوش المسلمين خط الرجعة ويفتكوا بهم. وقد ظهر تعاونهم مع الصليبيين بوضوح في غزوات بيبرس

(١) الشدياق (الشيخ طنوس بن يوسف)، أخبار الاعيان في جبل لبنان، ج١ بيروت ١٩٥٤، ص ٢٥١.

لاراضى كونتية طرابلس، ففى سنة ٦٦٥هـ سار بيبرس لحصار طرابلس بعد أن افتتح ثيرون فانسكب عليه الموارنة من قمم الجبال ، واضطر الى الانسحاب الى حصن الأكراد[1]. ولم تتهيأ لبيبرس الفرصة لتأديبهم وسيتولاها عنه فيما بعد السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون فى سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) .

وأما الاسماعيلية الحشيشية أو الباطنية أصحاب قلاع الدعوة بالشام فقد كانت لهم دويلة مستقلة تشغل القسم الجنوبى من جبال النصيرية المعروفة بجبال البهرة، وهى جبال شاهقة الارتفاع لها قمم شديدة الانحدار وأودية وعرة المسالك ودروب متشعبة ضيقة تنتصب بها القلاع والحصون ، وتتناثر فيها القرى والضياع. نشأت دويلة الاسماعيلية بادىء ذى بدء فى هذه المنطقة ا[illegible] بلية المنيعة، ثم اتسعت شيئا فشيئا، فضمت حصن القدموس سنة [illegible]٥هـ ، ثم احتلوا الخوابى والكهف فى سنة ٥٣١هـ ، واستولوا على [illegible]ة مصياف بعد أن قتلوا صاحبها فى سنة ٥٣٥هـ، وضموا حصن ال[illegible] سنة ٥٤٦هـ[2]. ولقد اعتمدت دويلة الاسماعيلية فى بقائها من [illegible]٥هـ الى ٦٧٠هـ على التوازن القائم بين قوتى المسلمين والصليبيين، فلما رجحت كفة المسلمين فى أيام الظاهر بيبرس ، فقدوا استقلالهم نهائيا، كما اعتمدوا فى الدفاع عن وجودهم فى هذه المناطق المنيعة على

(١) الشدياق ، نفس المرجع ، ج١ ص ٢٥١.
(٢) ميشيل لباد، الاسماعيليون والدولة الاسماعيلية بمصياف (٥٣٥ - ٦٧٠هـ) بيروت ١٩٦٢، ص ٨٩.

الاغتيالات السياسية، لافتقارهم الى جيش يتكافأ فى قوته مع جيوش خصومهم السلاجقة السنيين، وجيرانهم الصليبيين على السواء. وعلى هذا النحو اهتموا بتنظيم جماعة الفداوية لتنفيذ خططهم فى اغتيال من شاءوا من زعماء المسلمين السنة والصليبيين، فقتلوا جناح الدولة حسين أتابك أمير حمص سنة ٤٩٦هـ (١١٠٣م) وخلف بن ملاعب صاحب أفامية سنة ٤٩٩هـ (١١٠٥م) والأمير شرف الدين مودود أتابك الموصل سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) وأقسنقر البرسقى سنة ٥٢٠هـ (١٢٢٦م) [1]. كما حاولوا قتل صلاح الدين يوسف بن أيوب مرتين، ولكنهم أخفقوا فى سعيهم [2]. وكان طبيعيا أن يتقرب الاسماعيلية الى الصليبيين لعدائهم الشديد لأهل السنة، فقد سلم داعيتهم اسماعيل القائم ببانياس هذه المدينة الى الصليبيين فى سنة ٥٢٢هـ [3]، وعندما انتزع نور الدين محمود بن زنكى قلعة شيزر من الاسماعيلية، اتصل راشد الدين سنان شيخ جبل الدعوة الاسماعيلية بعمورى ملك بيت المقدس، وأرسل وفدا الى بيت المقدس،رحب به عمورى ترحيبا بالغا [4]. كذلك تبادل شيخ الجبل بمصياف مع لويس التاسع أثناء مقامه بعكا فى سنة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) بعد فشله فى حملته على مصر الرسل والوفود تحمل الهدايا والتحف لتوقيع

---

(١) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨ ص ١٤٢، ١٤٩، ١٨٧، ٢١٤.

(٢) أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، ج٥ ص ٧٧، ٨٠ – ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٢٧.

(٣) ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ٢٢٤.

(٤) ميشيل لباد، المرجع السابق، ص ١٠٧

معاهدة بين الطرفين [1]. أما في مصر المماليك فقد أثر النزاع الداخلي المتواصل لهذه الطائفة في قوتهم، وانحازت الى جانب الصليبيين، ودخلت تحت حماية فرسان الاسبتارية، وظلت تدفع لهم جزية سنوية [2] حتى أيام الظاهر بيبرس .

وكما وقفوا هذا الموقف العدائي من المسلمين السنة، فانهم لم يترددوا في ضرب زعماء الصليبيين عندما يتعارض موقفهم مع مصالحهم الشخصية، فقد قتل جماعة من الباطنية الكونت ريموند الثاني أمير طرابلس في سنة ٥٤٧هـ (١١٥٢م)، كما قتلوا المركيس صاحب صور (كوندار دى منتفرات) في بلدته [3]، وفي ٦١٠هـ (١٢١٣م) لقى ريموند الابن الأكبر لبوهيمند الثالث مصرعه بكنيسة انطرطوس على يدى فدائي من أتباع شيخ جبل الدعوة، ثم تغير موقف الباطنية بعض الشيء في عهد بيبرس ، ففي سنة ٦٦٥هـ ، عرضوا صداقتهم له وأرسلوا اليه بالأموال التي كانوا يدفعونها للاسبتارية [4]، ثم أرسل نجم الدين حسن بن الشعراني صاحب قلاع الاسماعيلية في سنة ٦٦٨هـ (١٢٦٩م) الى بيبرس يطلب منه أن يخفف عن شعبه الجزية التي يدفعها لبيت المال وقدرها ١٠٠ ألف درهم، فعزله بيبرس ونصب مكانه صارم الدين مبارك كنائب عن السلطان في قلاع الدعوة وهي قلاع الكهف والخوابي والمنيقة والعليقة والقدموس والرصافة. أما

(١) ميشيل لباد ، نفس المرجع ، ص ١١٠.
(٢) محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس في مصر ، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٩١.
(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٨١.
(٤) المقريزي ، السلوك، ج١ قسم ٢ ، ص ٥٥٧، السلوك، ج١ قسم٢ ، ص ٥٨٧.

مصياف فقد انتزعها بيبرس من الباطنية (١) ثم انتزع بيبرس من حصونهم حصن العليقة فى سنة ٦٦٩هـ (١٢٧٠م) (٢). ثم ضرب بيبرس ضربته التالية فى ٢٦ صفر سنة ٦٧٠هـ عندما أصدر أوامره بالقبض على شمس الدين بن نجم الدين صاحب قلاع الدعوة وعلى أصحابه وسيرهم الى مصر، واستولى على حصن الخوابى (٣). ثم استولى فى ٢٢ من ذى الحجة سنة ٦٧١هـ على بقية قلاع الدعوة وهى المنيقة والقدموس والكهف، وبذلك قضى الظاهر بيبرس على دويلة الاسماعيلية الحشيشية التى طالما عرقلت مشاريع زعماء الاسلام لتكوين الجبهة الاسلامية المتحدة باغتيالاتها السياسية وتآمرها مع الصليبيين ،كما أنها كانت عقبة كأداء أمام بيبرس لتحرير طرابلس، وكان وجودها سببا فى تأخر استرداد هذه المدينة.

هذا فيما يتعلق بالعامل الأول، أما بالنسبة للعامل الثانى وهو تعدد جبهات القتال فمن المعروف أن أعداء بيبرس كانوا من الكثرة بحيث لم تكن تمر سنة من سنى حكمه دون أن يوجه الحملات ضد القوى الصليبية فى الشام وضد المغول فى العراق، وضد النوبيين فى جنوب مصر، ومن استعدادات حربية لغزو صليبى مرتقب على مصر. فالخطر المغولى لم يكن قد انحسر تماما عن الشام ومصر، وكانت قوة الصليبيين فى الشام وقبرص وأرمينية الصغرى رغم ما اعتراها من وهن

---

(١) المقريزى ، السلوك، ج١ قسم ٢ ، ص ٥٥٧، السلوك، ج١ قسم ٢ ، ص ٥٨٧
(٢) أبو الفداء، المختصر ، ج٧ ص ١٠ - المقريزى السلوك، ج١ ، قسم ٢ ، ص ٥٨٧
(٣) السلوك ، ج١ ، ص ٥٩٣

بعد عين جالوت كانت لايستهان بها، ولقد صرف بيبرس جهوده كلها لمحاربة أعدائه، وقضى فترة حكمه كلها في جهاد متواصل في كل ناحية من نواحي دولته [1] ، فالمغول بعد هزيمتهم فى ٦٥٨ فى عين جالوت ظلوا يشكلون خطرا على بلاد الشام، بل ان خطرهم زاد زيادة واضحة في عهد أبغا بن هولاكو الذى تزوج من ابنة الامبراطور البيزنطى ميشيل باليولوجس، وحرص على دعم علاقاته بالقوى المسيحية في الشرق والغرب انتقاما من المماليك [2] .

وواصل المغول عدوانهم على بلاد الشام والاتصال بالصليبيين الذين لم يرتدعوا ولم يعتبروا بما آل إليه تحالفهم مع المغول من فشل، واتفقوا مع الصليبيين على القيام بهجوم مشترك على بلاد الشام، ولكن بيبرس حاربهم حربا لا هوادة فيها، انتهت بسقوط أنطاكية واقتطاع قسم كبير من أراضى طرابلس وفلسطين. وعلى الرغم من الصلح الذى عقده بوهيمند السادس فى سنة ٦٦٩هـ مع بيبرس ، فقد اتصل بأبغا خان عن طريق ممثله الدائم بارتلمى صاحب مرقية، واستنصره على المسلمين ولكن أبغا لم يأبه لذلك، بل عنفه على قدومه اليه لخوفه من أن يبث ذلك الذعر في قلوب عسكره .

وكانت الاوضاع فى كونتية طرابلس الصليبية قد ساءت للغاية بعد وفاة بوهيمند السادس فى ٩ رمضان سنة ٦٧٣هـ (مايو ١٢٧٥م)،

(١) سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤١، جمال سرور ، دولة الظاهر بيبرس ، ص ٩٤.
(٢) سعيد عاشور ، نفس المرجع ، ص ٤٣

فقد خلفه ابنه القاصر بوهيمند السابع (١٢٧٥م – ١٢٨٧م) فكلفته أمه الكونتيسة سيبيل الارمنية وأعانها فى ذلك برتلميو أسقف انطرطوس ، ولكن الكونتيسة لوشيا أرملة بوهمند الخامس كانت تسعى بدورها للظفر بالسلطان معتمدة على تأييد الجالية الايطالية بطرابلس وعلى أخيها بول أسقف طرابلس، ثم دخل الاسبتارية والداوية طرفا فى النزاع فأيد الاسبتارية الكونتيسة سيبيل بينما أيد الداوية لوشيا وحزبها الايطالى، وانضم الى هذا الفريق جى الثانى دى امبرياتشو المعروف فى المصادر العربية باسم سيركى صاحب جبيل، وترتب على ذلك قيام حرب أهلية طاحنة فى طرابلس وكان سيركى أو جى الثانى صاحب جبيل يطمع فى الاستيلاء على طرابلس فطلب من المنصور قلاوون، وكان قد انتزع السلطنة المملوكية من ابناء بيبرس سنة ٦٧٨هـ – ان يساعده فى ذلك على أن يقتسم معه طرابلس ، ولم يتردد قلاوون فى قبول هذا العرض المغرى ، فأمر سيف الدين بلبان واليه على حصن الاكراد بأن يمد سيركى بجماعة من المسلمين عرفوا بالجبليين ، وفى آخر شوال سنة ٦٨١هـ (١٢٨٢م) ركب صاحب جبيل سفنه مع أصحابه وجماعة من الجبليين ودخلوا ميناء طرابلس ليلا ، وكان بوهمند قد بلغته أنباء هذه المؤامرة، فأعد عدته للايقاع بالمتآمرين ، ونجح فى الايقاع بصاحب جبيل وأصحابه، كما قبض على سيركى وأودعه سجن طرابلس، فظل سجينا الى أن توفى ، واستولى بوهمند على جبيل وأصبحت تابعة لكونتية طرابلس [١] أما جماعة الجبليين المسلمين، فقد

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٣١٦ هامش ٢ .

سجنهم بوهمند فى برج منيع يطل على البحر فى بلدة مرقية، وظلوا فى هذا البرج الى أن أفرج عنهم بوهمند فى آخر سنة ٦٨١هـ [١] .

وكان قلاوون قد حرص منذ توليه السلطنة على مهادنة الصليبيين حتى يتفرغ لدفع العدوان المغولى على الشام، وحتى لايفاجئه الصليبيون بالهجوم على أراضى المسلمين فى الوقت الذى يكون فيه مشتغلا بمقاتلة المغول [٢] ، ولذلك لم يتردد فى الموافقة على تجديد الهدنة بينه وبين فرسان الاسبتارية بعكا فى ٢٢ من المحرم سنة ٦٨٠هـ (٣ مايو ١٢٨١م)، وبينه وبين بوهمند السابع لمدة عشر سنوات كاملة تبدأ فى ٢٧ ربيع الاول سنة ٦٨٠هـ [٣] . وقد أورد كل من ابن الفرات والنويرى وبيبرس الدوادار تفاصيل هذه الهدنة، وجاء من بين شروطها مايلى :

١- أن تعقد الهدنة على جميع البلاد التابعة للسلطان وعلى ما كان مجاورا منها لطرابلس، وعلى فتوحاته المستجدة والمستقبلة وعلى البلاد التابعة لبوهمند وما يدخل فيها .

٢- أن يتخذ برج اللاذقية وميناؤها مقرا لنواب السلطان وصاحب طرابلس للاشراف على استخراج الجبايات والغلات مناصفة بينهما وفقا لشروط الهدنة التى كان قد عقدها بيبرس مع بوهمند السادس .

٣- ألا تدخل طرابلس غلة للأمير بوهمند ولا غيره دون أن

---

(١) ابن تغرى بردى ، نفس المصدر ، ص ٣١٥ ، ٣١٦.
(٢) جمال الدين سرور دولة بنى قلاوون فى مصر ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٢٣٢.
(٣) المقريزى ، السلوك، ج١ قسم ٣ ص ٦٨٥.

يحصل عليها برسوم .

٤- على صاحب طرابلس والسلطان قلاوون ألا يقيما أبنية حربية أو قلاعا فى البلاد التى ورد ذكرها فى الهدنة .

٥- ألا تنقض الهدنة بموت أحد الطرفين المتعاقدين أو بتغييره [١] .

ثم عقد قلاوون فى العام التالى الهدنة بينه وبين الفرير كليام ديباجوك Guillaume de Bedjouk مقدم الداوية بعكا والساحل [٢] ، والاخوة الديوية بأنطرطوس لمدة عشر سنوات كاملة تبدأ من ٥ المحرم سنة ٦٨١هـ (١٢٨٢م) .

وما كاد خطر المغول يتبدد حتى ولى قلاوون وجهه شطر ماتبقى من امارة أنطاكية، ففاجأ حصن الاسبتارية فى المرقب بالهجوم فى المحرم سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) بعد أن اتهم أصحاب هذا الحصن بأمور منها نقضهم الهدنة [٣] . ولاشك فى أن قلاوون كان ينوى فى أول هذا العام انتزاع الحصن المذكور من أصحابه الاسبتارية ، ولكنه لم يفصح عن قصده وآثر أن يفاجىء الحامية الصليبية بالهجوم حتى لايبادر بوهمند السابع بنصرتها. وفى ذلك يقول ابن عبد الظاهر : « وجهز المجانيق من دمشق، ولايعلم أحد الى أين تسير، ولا الى أين المصير،

(١) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ج٧ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦.

(٢) محيى الدين بن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق د. مراد كامل القاهرة ١٩٦١، ص ٢٠ ومايليها ، وانظر ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج٧ ص ٢٦.

(٣) ابن الفرات ، المصدر السابق ، ج٨ ص ١٧

والرجال من البلاد مجهزة بأزوادهم ومقدميهم وعددهم، وهي كثيرة لاتحصى ، ومن الناس من يقول ان العزم الى قلعة الروم، ومنهم من يقول غير ذلك [1] ويذكر الحسن بن عمر بن حبيب صاحب « تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه » أن السلطان افتتح أيضا مع حصن المرقب مرقية وبلنياس ، وأن هذا الحصن الثاني كان في غاية العلو والامتناع لم يطمع أحد من الملوك الماضين في فتحه » [2] . وبعد أن افتتح قلاوون حصن المرقب أمر بالابقاء عليه لحصانته ورتب فيه حامية قوية من المماليك، وزوده بالمجانيق والآلات والنشاب والزردخاناه والنفط [3] ، أما بالنسبة لحصن مرقية المنيع فقد صمم قلاوون على هدمه، وتم هدمه تحت اشراف الأمير بدر الدين بكتاش النجمي ، وبحضور مقدم صليبي بعثه بوهمند على رأس جماعة من الحجارين [4] . وهكذا لم يبق أمام قلاوون سوى مدينة طرابلس نفسها وبرج اللاذقية فأخذ يتحين الفرص للاستيلاء عليهما .

وعلى الرغم من استمرار العمل بالهدنة التي كان عقدها قلاوون مع بوهمند السابع لمدة عشر سنوات، فقد هاجم الأمير حسام الدين طرنطاي اللاذقية آخر ماتبقى من حصون امارة أنطاكية البائدة واستولى عليها في صفر من سنة ٦٨٦هـ (ابريل ١٢٨٧م) . ثم توفي بوهمند

(١) ابن عبد الظاهر، تشريف الايام والعصور، ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) الحسن بن عمر بن حبيب ، تذكرة النبيه ، ج١ ص ٩٦ .

(٣) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق ، ص ٧٨

(٤) نفس المصدر، ص ٨٩ ، ٩٠ - ابن تغرى بردى ، ج٧ ص ٣١٧.

السابع فى ١٩ أكتوبر سنة ١٢٨٧، وكانت وفاته نذيرا بنهاية امارة طرابلس الصليبية ، اذ مات دون أن يعقب فى الوقت الذى كانت طرابلس فى أشد الحاجة الى قائد قوى وزعيم يتولى قيادتها، وفى نفس الوقت قام صراع بين لوشيا أخت بوهمند وبين سيبل الارمنية، وتغلبت لوشيا على منافستها الا أن أهل طرابلس كانوا يميلون الى سيبل، فلم يقبلوا هذا الوضع ،واجتالوا على استقدام برتلميو دى امبرياتشو ممثل سيبل الارمنية، فاستنجدت لوشيا بالاسبتارية حلفاء أخيها بوهمند فى حين استنجد الآخرون بجنوة، وبفضل الجنوية تمكنوا من اقامة قومون برئاسة صاحب جبيل. ويذكر أبو المحاسن أن بارتلميو (يسميه سيرتلميه) سأل من السلطان المنصور قلاوون المساعدة، وأن يتقدم للأمير بلبان الطباخى السلاحدار أن يساعده على تملك طرابلس على أن تكون مناصفة ويبذل فى ذلك بذولا كثيرة، فسوعد الى أن تم له مراده، ورأى أن الذى يذله للسلطان لايوافقه الفرنج عليه، فشرع فى باب التسويف والمغالطة، ومدافعة الأوقات ، فلما علم السلطان باطن أمره عزم على قتاله قبل استحكام أمره »[1]. غير أن المقريزى ويؤيده ابن الفرات يؤكد أن أهل طرابلس أقروا لوشيا أميرة على طرابلس، وأن الأمر خرج من يد بارتلميو وكان هذا هو السبب الذى دفعه الى لجوئه الى قلاوون ، وتحريضه له على فتح طرابلس، وبينما كان قلاوون يتردد فى نصرة بارتلميو بلغه أن الصليبيين فى طرابلس نقضوا الهدنة، وأسروا

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٣٢١.

جماعة من التجار» [1]، وكان هذا الخبر كافيا لحمله على التدخل عسكريا.

وكانت طرابلس قد اكتظت بمن وفد اليها من اللاجئين والمشردين من المدن الأخرى التى استولى عليها المسلمون، ولكنها مع ذلك كانت تعوزها القوة اللازمة للتصدى لقوات المماليك، وكانت الانقسامات الداخلية والفتن قد أوهنتها وسهلت على المسلمين مهمتهم فى السيطرة عليها. وحاولت لوشيا أن تنقذ مايمكن انقاذه وتكتلت قوى الفرنج للدفاع عنها أمام الغزو الاسلامى الوشيك، فتولى هذه المهمة عمورى دى لوزنيان صاحب صور، وهرع الفرسان الذين كان قد استبقاهم فى فلسطين الى طرابلس، وشارك فى الدفاع عن المدينة قوة هائلة من فرسان الاسبتارية كما أسهم الداوية وبعض البنادقة والجنوية والبيازنة [2]. وذكر المقريزى أنه قدم لنجدة أهلها ٤ شوانى بعثها صاحب قبرص [3]. واستقر عزم قلاوون على حسم القضية بالاستيلاء عليها لنكث أهلها بشروط الهدنة، فخيم السلطان بظاهر القاهرة فى ١٠ المحرم سنة ٦٨٨هـ تمهيدا لرحيله الى الشام، وكتب عند خروجه فى ١٥ المحرم الى جميع نوابه بالشام بتجهيز الجيوش الى طرابلس وارسال المجانيق وآلات الحصار [4]. وفى ١٣ صفر وصل

---

(١) ابن الفرات، المصدر السابق، ج٨ ص ٨٠ - المقريزى، السلوك، ج١ قسم ٣ ص ٧٤٦.

(2) Belaville le Roulx, les Hospitaliers en Terre sainte, et a Chipre (1100-1310), Paris, 1904.

(٣) المقريزى، السلوك، ج١ قسم ٣ ص ٨٤٧.

(٤) ابن الفرات، ج٨ ص ٨٠ - المقريزى، السلوك، ج١ قسم ٣ ص ٧٤٧.

قلاوون الى دمشق فأقام بها أسبوعا التماسا للراحة قبل المعركة، وتجميع جيوش الشام ، ثم زحف بحشوده فى ٢٠ من صفر متجها الى طرابلس على رأس ٣٣ ألفا من المشاة وعشرة آلاف من الفرسان. وشرع فى إحكام الحصار حولها فى مستهل ربيع الأول ٦٨٨ (١٧ مارس ١٢٨٩م) [١]. ونصب عليها ١٩ مجنيقا من الجهة الشرقية وبدأ يرمى الاسوار بالمجانيق حتى تشلمت، وبلغ عدد الحجارين والزراقين الذين يرمون بالمجنيق نحو ١٥٠٠ شخص . وظل قلاوون مقيما على حصاره لها مدة ٣٤ يوما [٢] تهدم خلالها برج الاسقف ، وبرج الاسبتارية الجديد مع السور الممتد بينهما، وأدرك المدافعون عبث الدفاع عن المدينة، ففر عدد كبير منهم الى الميناء وركبوا السفن الراسية الى قبرص ، ثم تدفقت جيوش قلاوون على السور المتهدم الى المدينة فى ٤ ربيع الآخر سنة ٦٨٨هـ (٢٦ أبريل ١٢٨٩م). أما سكان طرابلس فقد فروا الى جزيرة تجاه طرابلس قريبة من الساحل، بها كنيسة تسمى سنطماس [٣] ، وتعرف هذه الجزيرة باسم جزيرة النخلة، لايتوصل اليها الا فى السفن، وبينما يسميها المؤرخ ميشو بجزيرة سان توماس أو سنطماس [٤] ، يطلق عليها المؤرخ كنج اسم جزيرة سان نيكولاس [٥] . وأغلب الظن أن سنطماس وسان نيكولاس جزيرتان

---

(١) ابن تغرى بردى ، ج٧ ص ٣٢١. ولكن صاحب تذكرة النبيه يذكر أن خروجه من مصر حدث فى شهر ربيع الأول (ص ١٢٢) .

(٢) ابن الفرات، ج٨ ص ٨٠ – المقريزى ، السلوك ج١ قسم ٣ ص ٧٤٧ .

(٣) أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر ، ج٧ ص ٢٩ .

(4) Michaud, Histoire des crois ades, vol. 4, Paris, 1822, p. 857.

(5) King, the knights, Hospitaliers in Holy Land. P. 200.

مختلفتان ، الأولى بها كنيسة هي التي ذكرها أبو الفداء ، ولعل سان نيكولاس هي التي يعني بهـا ابن الفـرات جـزيرة النخلة. وحـدث أن انحسرت مياه البحر عن طرابلس فظهرت مخاضات عبرها فرسان المماليك الى هذه الجزيرة، وقتلوا الفارين من أهل طرابلس ممن لاذوا بكنيسة الجزيرة. وقد شهد أبو الفداء حصار طرابلس وفتحها، ويذكر أنه ركب سفينة الى هذه الجزيرة بعد أن فرغ الناس من نهبها ، فوجدها ملأى من القتلى بحيث لايستطيع الانسان الوقوف فيها من نتن القتلى (١). وكان بعض أهالي طرابلس قد بادر عند سقوط سورها بركوب سفينة في البحر، ولكن الريح قذفتهم الى الساحل ، فظفر الغلمان والأوقاشية بكثير منهم (٢). هذا وقد هلك من أهل طرابلس بعد سقوطها في أيدي المماليك عدد كبير يقدره المؤرخون بنحو سبعة آلاف (٣) كما وقع منهم في الاسر نحو ١٢٠٠ أسير (٤). وقد عاني المسلمون كثيرا أثناء حصار طرابلس من اعتداءات الموارنة أو المردة سكان الجبال المحيطة بطرابلس الذين هبوا لنجدتها ، وقتل بسببهم عدد كبير من قوات قلاوون، وكان قلاوون قد هاجم معاقلهم في بشري واهدن، وخرب هذه القلاع ، ففرت منهم جماعة يقدر عددها بالألوف الى جزيرة قبرص. ونتج عن سقوط طرابلس سقوط عدد من

---

(١) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر، ج٧ ص ٣٠ .

(٢) ابن الفرات ، ج٨ ص ٨٠ – المقريزي ، السلوك، ج١ ص ٧٤٧. والأوقاشية فرقة من خدم السلطان عملها ركوب الخيل للتسيير والرياضة (القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ج٥ ، القاهرة ، ١٩١٤، ص ٤٥٤).

(3) Michaud, op. cit. p. 448.

(٤) ابن الفرات، ج٨ ص ٨٠ – ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ص ٣٢٢.

الحصون الساحلية المجاورة فى أيدى المماليك من ذلك حصن أنفة وكان للاسبتارية، فأمر قلاوون بتخريبه ، ومنها حصن البترون وما جاوره من حصون ، ثم منح قلاوون لوشيا أخت بوهيمند قريتين من قرى البترون كما أقطع برتلميو دى امبرياتشو مدينة جبيل فى مقابل جزية يقوم بدفعها للسلطان [1] ويذكر أبو المحاسن بن تغرى بردى أن سيرتلميه صاحب جبيل كان قد اتفق مع قلاوون على أن يساعده نظير أن تكون طرابلس مناصفة، فساعده الى أن تم له مراده، ولما رأى سيرتلميه أن الفرنج رفضوا اتفاقيته مع السلطان شرع فى التسويف والمغالطة، فلما علم السلطان بباطن أمره، عزم على قتاله قبل أن يستفحل أمره ويشكل خطرا على المسلمين [2] . ولكن قول ابن تغرى بردى يتعارض مع الموقف الودى الذى وقفه السلطان نحو برتلميو بعد سقوط طرابلس، اذ كافأه باقطاع جبيل مما يدل على أن السلطان لم يكن متحاملا عليه بل يعبر عن تقدير قلاوون ، له يضاف الى ذلك أن برتلميو كان ابنا لجى الثانى (سيركى) الذى كان قد استنصر بقلاوون ، ووقع أسيرا فى يد بوهمند السابع ، فسجنه حتى مات .

وما ان دخل المسلمون مدينة طرابلس حتى أمر قلاوون بهدمها وتسويتها بالارض وانشاء مدينة أخرى لطرابلس تقع بعيدا عن الساحل حتى يزيل آثار مدينة الصليبيين، وحتى تتجنب المدينة الجديدة الأضرار التى قد تصيبها من غارات الفرنجة الذين تكتلوا بعد ذلك فى عكا وقبرص، واختار لذلك الريض الواقع بأدنى قلعة صنجيل،فى موضع يقال

(١) ابن الفرات ، ج٨ ص ٨١ .
(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٣٢١

له وادى الكنائس. أما الموضع الذى كانت تقوم عليه أطلال طرابلس القديمة فقد أقام عليه عددا من الابراج على طول الساحل الشرقى والشمالى من شبه جزيرة الميناء تمكينا للدفاع البحرى عنها.

وأحدث سقوط طرابلس فى أيدى المسلمين دويا هائلا خفقت له قلوبهم فى سائر أنحاء العالم الاسلامى، وكتبت البشائر الى الآفاق بهذا النصر العزيز، وزينت له المدن [1]، وأقيمت الافراح. أما فى الغرب الاوروبى فلم يكن لسقوطها فى أيدى المسلمين رد فعل عكسى، فان ملكى أرغون وصقلية بادرا بعقد تحالف مع قلاوون بعد استيلائه عليها تعهدا فيه بمساعدته ضد أى حملة صليبية يعدها الغرب، وحتى ضد القوى الصليبية الباقية فى الشام فى حالة خرقها للهدنة، أما ملوك فرنسا وانجلترا وقشتالة وقطالونيا فقد شغلوا بالمشاكل القائمة بين صقلية وأرغون. . . .

وكان قلاوون يزمع القيام بحملة كبرى لتحرير عكا [2] آخر معاقل الصليبيين فى الشام والمركز الرئيسى لمملكة بيت المقدس، ولكنه

(١) نفس المصدر، ج٧ ص ٣٢٢، ٣٢٣

(٢) يرجع السبب فى ذلك الى اقدام فرنج عكا على نكث الهدنة، عندما قتلوا جماعة من تجار المسلمين كانوا قد قدموا الى عكا بمتاجر تمسكا بالهدنة والعهد، ومن جملتهم تجار قدموا فى البحر ومعهم طائفة من المماليك ارسلوا هدية للسلطان قلاوون (صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعى وكمال سليمان الصليبى، بيروت ١٩٦٨، ص ٢٢) وحدث أن قدم الى عكا فى صيف عام ٦٨٩هـ محاربون صليبيون جدد يمثلون شراذم من رعاع الفلاحين والمتعطلين قدموا من لمباردیا وتسكانيا الى المغامرة، وعرفوا بالعربدة والشغب، فأخذوا يهاجمون تجار المسلمين وانطلقوا فى الشوارع يذبحون كل من وجدوه منهم، وعندما وصلت هذه الاخبار الى مسامع السلطان قلاوون صمم على القضاء نهائيا على آخر الامارات الصليبية فى الشام (رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية، ج٣ ص ٦٩٢). ورفض قلاوون اعتذار رسل عكا (السلوك، ج١ قسم ٣ ص ٧٦٢).

اعتل وهو يتأهب للخروج على رأس جيشه لتحقيق هذه الامنية وتوفى بظاهر القاهرة يوم ٦ ذى القعدة من سنة ٦٨٩هـ، وحمل جسده الى القلعة ثم دفن فى ضريحه الذى كان قد بناه فى شارع بين القصرين، وتم افتتاح عكا على يد ابنه السلطان الملك الاشرف صلاح الدين خليل، الذى لم يتردد فى تحقيق هدف أبيه. وقضى الاشرف خليل الشهرين الأولين فى توطيد سلطته، ثم تحرك على رأس حشوده فى ٣٠ ربيع الأول سنة ٦٩٠هـ (مارس ١٢٩١م) وقد زودها بكل آلات الحصار والقتال. ووصلت قواته أمام أسوار عكا فى ١٤ ربيع الآخر (٥ أبريل). وكان قد اجتمع بعكا من فلول الفرنج ومن لاذ بها من أهل طرابلس وأنطاكية وغيرها من المدن الصليبية التى استردها المسلمون عدد هائل [١]. ويضاف الى ذلك ان مدينة عكا كانت من أكثر مدن الشام حصانة ومنعة، واحتشد فى جيوش المماليك كذلك من الامم مالا يحصى كثرة، وكان المطوعة على حد قول ابن تغردى بردى أكثر من الجند ومن فى الخدمة [٢]. ثم نصب المسلمون المجانيق الكبار الفرنجية عليها وعددها ١٥ مجنيقا، وأما المجانيق الشيطانية وغيرها فكثيرة، وبلغ عدد المجانيق على حد قول المقريزى ٩٢ منجنيقا [٣]، فتكامل نصبها فى أربعة أيام، وأقيمت الستائر ووقع

(١) ذكر المقريزى فى السلوك: « وقد نمت .. ابن ٦٠ رنج الى عكا أرسالا من البحر، وصار بها عالم كبير » (ج١ قسم ٣ ص ٧٦٤).

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٨ ص ٠٠٦.

(٣) المقريزى، السلوك، ج١ قسم ٣ ص ٧٦٤ وعن أنواع المجانيق انظر: أربغا الزردكاش، الانيق فى المناجيق، تحقيق دكتور نبيل محمد عبد العزيز، القاهرة ١٩٨١، ص ٥ وما يليها.

الحصار، واستمر ٤٤ يوما حتى ١٦ جمادى الأولى، وكثرت النقوب والثغرات بأسوار عكا بسبب قذائف المجانيق، وفي يوم ١٧ من الشهر نفسه (١٨ مايو ١٢٩١م) عزم السلطان عزما صادقا على اقتحام المدينة، فرتب كوساته على ٣٠٠ جمل، وأمر أن تضرب كلها دفعة واحدة، فهال ذلك أهل عكا، وزحف بعساكره قبل أن تشرق الشمس، فلم ترتفع أشعتها حتى علت الصناجق الاسلامية على أسوار عكا، وهرب الفرنج في البحر، وهلك منهم خلق كثير في الازدحام، والمسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون، فقتلوا مالا يحصى عدده كثرة، وأخذوا من النساء والصبيان ما يتجاوز الوصف [1]، ثم شرع المماليك يهدمون الأسوار ويخربون الكنائس. ويسجل سقوط عكا المركز اللاتيني المنيع نهاية استعمار الفرنج للشام، ولقد قاتل الداوية والاسبتارية قتالا عنيفا دون جدوى، وفكر الداوية في نقل مركز المقاومة إلى صيدا حيث لجأ اليها نفر من الداوية نجوا من مذابح عكا مع قائدهم تيبوت جودان وطائفة قليلة من المدنيين، وحمل تيبوت معه كنوز الداوية وأموالهم وذخائرهم. واختير تيبوت في صيدا مقدما لجماعة الداوية بدلا من جيوم دى بوجيه الذى سقط صريعا في الهجوم الأخير الذى شنه المماليك على عكا.

وبينما كان المماليك يدمرون عكا ويخربون أسوارها وتحصيناتها ويسوونها بالأرض كانت قوات الأشرف خليل بقيادة الأمير علم الدين

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ قسم ٣ ص ٧٦٥ .

سنجر الشجاعي تسير نحو صور وكانت من أمنع مدن الصليبيين وأكثرها حصانة، واستعصت من قبل على صلاح الدين بن أيوب ، وكان قد وافاها جماعات المنهزمين من عكا، فحال علم الدين سنجر بينهم وبين الميناء، فطلب أهل صور الامان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم على أن يسلموا صور، فأجيبوا الى ذلك وتسلمها فى ١٩ من جمادى الاولى أى بعد يومين فقط من سقوط عكا، وبادر على الفور بتخريبها وهدم أسوارها وأبنيتها، ونقل الكثير من رخامها.

وتبع سقوط صور سقوط صيدا ، فما كاد علم الدين سنجر يدخل صور حتى كانت قواته تتقدم الى صيدا، وفكر الداوية باديء ذى بدء فى الدفاع عنها، ولكنهم عدلوا عن ذلك، فعندما وصلت طلائع قوات المماليك، تحصن الأهالى مع الداوية فى القلعة البحرية وتركوا المدينة، فدخلها المماليك فى ٢٠ من جمادى الاولى وحاصروا من لاذ بالقلعة، فركب ثيبوت سفينة حملته الى قبرص بعد أن وعد الأهالى المحصورين بالقلعة بأنه سيعود بامدادات تعينهم على الصمود، وطال انتظار المدافعين عن القلعة لهذه الامدادات المزعومة دون جدوى فى الوقت الذى أخذ المماليك يقيمون رصيفا بين القلعة والساحل كى يصلوا اليهم ، وعندئذ يئس المدافعون عن القلعة والحامون لها من الداوية والأهالى من وصول أى مدد ، وركبوا فى ليلة حالكة الظلام سفنهم الى قبرص، وتمكن المماليك من الاستيلاء على القلعة

المهجورة في ١٥ رجب سنة ٦٩٠هـ (١٤ يوليو ١٢٩١م) ودمروا تحصيناتها [1] .

وفي فتح صيدا على أيدى المماليك يقول المقريزى :« وفتحت صور وحيفا وعثليث وبعض صيدا بغير قتال، وفر أهلها خوفا على أنفسهم، فتسلمها الأمير علم الدين سنجر الشجاعي في بقية جمادى الأولى ، فقدمت البشائر بتسليم صور في ١٩ جمادى الأولى وبتسليم صيدا في العشرين منه ، وأن طائفة من الفرنج عصوا في برج منها (يقصد به قلعة البحر) فأمر السلطان بهدم صور وصيدا وعثليث وحيفا [2] . كذلك افتتح الأشرف خليل بقية المدن التي كانت في أيدى الصليبيين وهي عكار وعثليث وحيفا واسكندرونة وبيروت وجبيل وصرفند، وقد استغرق ذلك ٤٧ يوما، وقد أمر الأشرف خليل بهدمها جميعا فهدمت [3] ، وبسقوط هذه المدن أسدل الستار على الاحتلال الصليبي في الشام. ومع ذلك فان طرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام لايعني على حد قول الدكتور سعيد عاشور أن الفكرة الصليبية نفسها قد اندثرت وأن منطقة الشرق الأدنى لم تعد ميدانا لحروب صليبية جديدة بين المسلمين والمسيحيين، بل على العكس من ذلك ، فقد هيأ المجال لمحاربة دولة المماليك تجاريا وسياسيا، وتزعمت قبرص بحكم

(1) Rene Grousset, Histoire des Croisdes, tIII, Paris, 1936, P. 762.
Deschamp, ta Jefense du royaume de Jerusalem; Paris, 1928, P. 227.

وانظر رنسيمان ، الحروب الصليبية ج٣ ص ٧١١ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، ج١ قسم ٣ ص ٧٦٥ ، ٧٦٦

(٣) أبو الفداء ، المختصر . ج٧ ص ٣٢ - ابن الفرات ، ج٨ ص ١٢١

موقعها الاستراتيجي تجاه الساحلين الشامي والمصري دور الغارات التخريبية لسواحل مصر والشام، وقد ساعد على ذلك أن الاسبتارية والداوية الذين فروا من عكا وسواحل الشام وجدوا ترحيبا بالغا من ملكها هنري الثاني دي لوزنيان الذي وجد فيهم أداة صالحة لتنفيذ سياسته العدوانية ضد دولة المماليك [1] .

---

(١) سعيد عاشور ، مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٧١

(٦)

غارات القبارصة على طرابلس الشام والساحل

لم ينته الصراع بين الصليبيين والمسلمين نهائيا بعد تصفية الحركة الصليبية فى الشام بسقوط عكا وصيدا وصور وبيروت وجبيل فى أيدى المماليك فى مايو ١٢٩١م، فقد اتخذ الصليبيون من قبرص وأرواد قاعدة للعدوان يوجهون منها غاراتهم على سواحل الشام ومصر [١]. وكانت طرابلس أكثر مدن الساحل تعرضا لهذه الغارات الانتقامية، فمنذ عام ٦٩٨ تعرضت هذه المدينة لغارات الاسبتارية فى أرواد [٢] ، وقد تحرك المماليك على أثر ذلك للرد على تلك الغارة، فأمر الناصر محمد بن قلاوون بانشاء أربعة شوانى حربية فى المحرم سنة ٧٠٢هـ لفتح جزيرة أرواد ، فأعدت الشوانى وشحنت بالمقاتلة وأدوات الحرب والسلاح، وأبحرت الى طرابلس بقيادة الامير سيف الدين كهرداش الزراق المنصورى ، وساهم الامير أسندمر كرجى نائب طرابلس والفتوحات الساحلية فى هذه الغزوة، وتمكن أسطول المماليك

---

(١) حاول الفرنج فى شعبان سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨م) مهاجمة سواحل الشام ، فوصلت الى بيروت ثلاثين بطسة تحمل كل منها سبعمائة مقاتل ، ولكن هذه الغزوة فشلت تماما بسبب تعرض السفن لرياح عنيفة أغرقت معظمها (صالح بن يحيى، تاريخ بيروت وأخبار الامراء البحتريين من بنى الغرب، تحقيق لويس شيخو اليسوعى بيروت ١٨٩٨ ص ٤٨). وفى جمادى الأولى من سنة ٧٠٤ هاجم اسطول صليبى ساحل صيدا ودخلها الفرنج فقتلوا وأسروا عددا كبيرا من سكانها ونهبوها (تاريخ بيروت ص ٥١) .

(٢) جزيرة تقابل أنطرطوس كان قد تجمع فيها اعداد هائلة من الفرنج وسكنوها وسوروها وشيدوا بها القلاع والحصون ، وكانت مركزا للعدوان الصليبى على ساحل طرابلس .

من فتحها بالسيف عنوة [1]، وقتلوا ما يقرب من ألف شخص من سكانها وغنموا غنائم كثيرة [2]. وعلى الرغم من وقوع أرواد فى أيدى المسلمين فقد واصل الصليبيون غزواتهم على الساحلين الشامى والمصرى، متخذين قبرص مركزا للاعتداءات على سواحل المسلمين.

وكان هنرى الثانى دى لوزنيان (١٢٨٥ - ١٣٢٤م . ٦٨٤-٧٢٥هـ) قد رحب بجماعة الاسبتارية الذين كانوا يتولون الدفاع عن عكا، فأنزلهم فى ليماسول ،وبفضلهم تمكن من الاستيلاء على جزيرة رودس فى سنة ١٣١٠ (٧١٠هـ) واتخذها الاسبتارية قاعدة لهم لتوجيه اعتداءاتهم على سواحل المسلمين بهدف استرجاع الأراضى المقدسة [3]. وأصبح القيام بحرب صليبية ذريعة لتبرير ابتزاز أموال من الكنيسة ولهذا فان فيليب الرابع ملك فرنسا نذر نفسه للحرب المقدسة منذ أن تمكن من السيطرة على البابا عقب انتقال كرسى البابوية من روما الى أفنيون بفرنسا فى ١٣٠٥م (٧٠٥هـ) وقوبل ذلك بترحيب بالغ من رجالات الطبقات المختلفة فى مجتمع العصور الوسطى الذين نظروا الى موضوع الحرب المقدسة على أنه أمر جدى ، وعرضت على البابا

---

(١) تم فتح الجزيرة فى ٢ صفر سنة ٧٠٢هـ . راجع فى فتحها: النويرى (شهاب الدين أحمد) نهاية الأرب فى فنون الادب الجزء ٣٠ من المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٩ لوحة ٥٤ ، وانظر أيضا :ابن أيبك الداوادارى ، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، ج٩ تحقيق هانز روبرت رويمر ، القاهرة، ١٩٦٠ ص ٤١ - أبو الفداء ، المختصر ، ج٧ ص ٥٧ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج٨ ص ١٥٦.

(٢) يجعل النويرى عدد القتلى ألفين والأسرى خمسمائة .

(3) Aziz Surial Atia, the crusades in the later middle ages, london, 1939 p. 289.

وملك فرنسا والمجلس الكنسى المنعقد فى فيينا سنة ١٣١١ - ١٣١٢م (٧١١هـ) العروض المختلفة من رجال قضوا سنين عديدة فى الشرق ومن آخرين لم يخرجوا الى ما وراء البحر (١) . وأنعشت فكرة القيام بحرب صليبية أدب الدعاية للحرب المقدسة، وبينما كان المجلس الكنسى منعقدا فى فيينا سنة ١٣١١ للنظر فى مشروع القيام بحملة صليبية ، كتب فولك دى فياريه مقدم فرسان الاسبتارية بردوس الى فيليب الرابع معبرا عن رغبته فى الاشتراك فى الحملة، وأبلغه مبالغة منه لاثبات جديته فى الطلب أنه أمر بانشاء سبع بطسات فى قطلونية، و ٣ بطسات فى أربونة، و ١٦ فى مرسيليا و١٢ فى جنوة بالاضافة الى أربعة سفن كبرى راسية فى بيزه وستة فى البندقية، هذا الى عدد من السفن جهزها الاسبتارية فى جنوة والبندقية بمختلف الاسلحة والعدد بحيث أصبحت جميعا تحت أهبة الابحار قبل أن يحل ربيع ١٣١١م (٢) .

وفى أثناء ذلك بعث هنرى الثانى دى لوزنيان ملك قبرص رسولين الى البابا كليمنت الخامس والمجلس الكنسى بغرض وجهة نظره عن الحملة وما تهدف اليه من إضعاف قوى المماليك الحربى وذلك عن طريق حصار بحرى يقوم به الصليبيون ضد مصر والشام، ومنع الخونة النصارى الذين يتعاملون تجاريا مع المماليك ويزودونهم بالسلاح ومواد

---

(١) دولة بنى قلاوون فى مصر القاهرة ١٩٤٧، ص ٢٤٤ Aziz surial, op, cit. p. 54. وانظر محمد جمال الدين سرور

(2) Ibid. P. 60

الحرب. واقترح لضمان إنجاح هذا الحصار المطالبة بعدم اشتراك قومونيات البندقية وبيزة وجنوة وغيرها من الجمهوريات الايطالية التى يشك فى اخلاصها للحركة الصليبية بسبب ارتباط مصالحها بالاسلام، فاذا ما وفق الصليبيون فى تطبيق هذا الحصار لمدة سنتين أو ثلاثة فان ذلك سيقضى حتما على قوة البحرية المصرية ومواردها [1] . ونصح هنرى دى لوزنيان باتخاذ قبرص قاعدة للحملة المزمع تسييرها حتى اذا ما جاءت اللحظة المناسبة، يتهيأ للحملة أن تنفذ خطتها فى مهاجمة مصر أولا باعتبارها المصدر الرئيسى لجميع الكوارث التى حلت بالصليبيين ثم الشام بعد ذلك [2] . وعلى الرغم من أن البابا لم يعمل بهذه الخطة التى رسمها هنرى دى لوزنيان فان بطرس الاول دى لوزنيان حفيد هنرى سينفذها بالنسبة للاسكندرية فى سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٥م) [3] .

ثم كان اعتلاء بطرس الاول دى لوزنيان بن هيو الرابع عرش قبرص فى سنة ١٣٥٩م (٧٦١هـ) فاتحة عهد جديد فى تاريخ الحركة الصليبية المتأخرة التى بلغت ذروة نشاطها فى سنة ١٣٦٥ (٧٦٧هـ) بغزوة القبارصة للاسكندرية .كان بطرس هذا من أشد ملوك الصليبيين عداء للاسلام اذ كان شديد التحمس للقضية الصليبية. وكان موقع

---

(1) Ibid. P.. 58.
(2) Aziz surial, op. cit, p. 57.

(٣) جمال سرور ، دولة بنى قلاوون فى مصر ، ص ٢٤٦ - سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية، القاهرة ، ١٩٥٧ ص ٥٤ ، ٥٥ .

قبرص الاستراتيجى قد أتاح لملوكها أن يظهروا فى صورة الأبطال الحقيقيين للمسيحية. وعلى الرغم من أن بطرس قد وضع كل ثروات جزيرته تحت تصرف الصليبيين ، فان حاجته الى مزيد من الرجال والاموال لضمان إنجاح خطته كان واضحا ،وهذا يفسر رحلاته الطويلة الى بلاطات أوربا استجداء لمساعدة ملوكها له بالمال والعتاد (١) . ومنذ بداية حكمه صمم بطرس على نذر نفسه للحرب المقدسة أملا فى تحطيم قوة الاسلام الممثلة فى آسيا الصغرى ومصر والشام، ويعتبر استيلاؤه على الاسكندرية فى سنة ١٣٦٥م (٧٦٧هـ) ونهبها خلال أربعة أيام -كما سنذكر ذلك بالتفصيل فى حينه - أعظم حدث وقع فى تاريخ الحركة الصليبية فى القرن الرابع عشر الميلادى. وقد مهد بطرس لحملته على الاسكندرية بغزوة تمهيدية لسواحل الشام لايهام المماليك فى مصر بنيته فى مهاجمة الشام بهدف استرجاع بيت المقدس. واشترك فى هذه الحملة فرسان رودس والبنادقة، ونجح فى دخول طرابلس فى نيابة منجك اليوسفى فى أول عام ٧٦٧هـ وأضرم النيران فى أبنيتها، كما هاجم اللاذقية وأنطرطوس بعد ذلك (٢)، ويبدو أن بعض نصارى طرابلس قدموا المساعدات للغزاة، فما أن انسحب القبارصة من طرابلس حتى أمر الأمير منجك اليوسفى بالقبض على البطريرك جبرائيل الحجولاوى المتهم بذلك، وأحرقه خارج طرابلس عند جامع طينال .

(1) Aziz Surial, op cit. p. 322.

(٢) جورجى ينى ، تاريخ سوريا ، بيروت ، ١٨٨١ ، ص ٣٩٥ .

ثم تعرضت طرابلس لحملة قبرصية في أوائل المحرم سنة ٧٦٨هـ (نوفمبر ١٣٦٦م) وذلك للضغط على السلطان المملوكي الأشرف شعبان وارغامه على قبول الصلح مع القبارصة، وهذه الحملة كانت تتألف من ١١٦ سفينة ما بين شواني وبطسات ، ولكن عاصفة عاتية فصلت وحدات هذا الأسطول بعضها عن بعض فلم تصل منه سوى ١٥ سفينة أطلق رجالها يد النهب في طرابلس ثم عادوا الى قبرص،[1] ومع ذلك فقد تجددت محاولات بطرس لطلب الصلح في يونيو سنة ١٣٦٧م (٧٦٩هـ) ولكن هذه المحاولات لم تكلل بالنجاح، وعلى أثر ذلك عاد القبارصة يغيرون من جديد على طرابلس في سبتمبر من نفس العام، واشترك في هذه الغزوة مقاتلون من البنادقة والجنوية والقبارصة والخرابطة (الكريتيين) والروادسة والفرنسيين والهنكر (الهنغاريين) بلغ عددهم ١٦ ألف مقاتل ، في ١٣٠ سفينة ما بين شيني وقرقوره وغراب وطريدة وشختورة، منهم ألف فارس والباقون مشاة. وشارك بطرس نفسه في هذه الغزوة هو وصاحب رودس ، ووصلت سفن القبارصة سليمة الى ميناء طرابلس ، وكان نائبها ومعظم عسكرها غائبين عنها في ذلك اليوم [2]، فاغتنم القبارصة الفرصة ونزلوا من سفنهم الى ساحل البلدة. ويبدو أن أهل طرابلس لم يفاجأوا بنزول الفرنج لكثرة طروق القبارصة لمدينتهم وعيثهم على سواحل الشام. فتصدى لهم جماعة من أهل طرابلس ومن بقى من عسكرها وترامى

(1) Aziz Surial, op. cit. P. 373.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج٣ قسم ١ ، تحقيق د. سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٤٩ .

الفريقان بالسهام، ثم اشتبك المسلمون معهم فى قتال عنيف، فتقهقر المسلمون واقتحم المدينة طائفة من المغيرين ، فنهبوا بعض الاسواق ولكن المسلمين تقاطروا من كل ناحية لطلب الجهاد ومغازاة القبارصة، ووقعت بينهم وبين المغيرين عدة وقائع استشهد فيها من المسلمين نحو الاربعين بينما قتل من الفرنج قرابة الألف حسب رواية ابن تغرى بردى [1]، ثم انسحب القبارصة منهزمين الى سفنهم، وحاولوا النزول فى جبلة ولكن ريحا عاصفا فرق سفنهم فى البحر وصرفهم عن الاغارة على جبلة، ثم اتجه اسطول بطرس الى اللاذقية، فاستعصت عليه المدينة لمناعة التحصينات ، ووجود سلسلة فى الميناء كسرت عددا من سفنهم، ثم أغار بطرس ببقية سفنه على بلنياس وأحرقها وأحرق ما كان راسيا بها من السفن [2].

واستمر التوتر بين المماليك فى مصر والشام وبين القبارصة الى أن لقى بطرس مصرعه على أيدى جماعة من النبلاء فى ٧٧١هـ (١٣٦٩م)، ولم يؤثر موته فى تخفيف حدة التوتر فى العلاقات بين قبرص وبين مصر المملوكية، فقد واصل القبارصة غاراتهم المدمرة على سواحل الشام ومصر فى بداية عهد خلفه بطرس الثانى (١٣٦٩-١٣٨٢): ففى العام الأول من حكمه خرج القبارصة فى أربع بطسات بقيادة جان دى موروف أغار بها على سواحل صيدا والبترون

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج١١ ، ص ٥٢ ، ٥٣ .
(2) Aziz Surial, op cit. P. 374.

الواقعة جنوبي طرابلس وأنطرطوس واللاذقية [٢] ولم يمض شهر واحد على هذه الغارة المدمرة حتى هاجم القبارصة الاسكندرية للمرة الثانية في وضح النهار، ولكنهم اتجهوا بسفنهم الى رشيد وحاولوا النزول بها ولكنهم أخفقوا بسبب الرياح العاصفة، فأبحروا من رشيد الى صيدا وأغاروا عليها ثم رجعوا الى جزيرتهم خائبين. ولم يجد السلطان المملوكي بدا من عقد الصلح مع ملك قبرص بعد كثرة ما عاناه أهل السواحل الشامية والمصرية لكثرة مباغتة الفرنج لبلادهم، وتم الصلح في سنة ٧٧٩هـ (أكتوبر ١٣٧٠م) [١] .

(١) المقريزى ، السلوك ، ج٣ قسم ١ ص ١٨٩ ، ١٩١

حملة القبارصة على الاسكندرية فى ٧٦٧هـ وآثارها

١- قبرص، قيام بطرس الأول دى لوزنيان بالحملة :

كان اعتلاء بطرس الأول عرش قبرص فى سنة ٧٥١هـ (١٣٥٠م) فاتحة عهد جديد فى الحركة الصليبية المتأخرة كما سبق أن أشرنا، واتفق عهده مع فترة من الضعف والانحلال كانت تجتازها مصر عقب وفاة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وتولية عدد كبير من أولاده وأحفاده العرش، مما هيأ المجال لكبار أمراء المماليك الاستبداد بشؤون الدولة، وقام النزاع بين هؤلاء الأمراء من أجل الاستئثار بالسلطة، وشغلوا بذلك الصراع عن العناية بشؤون البلاد الداخلية والاهتمام بالبحرية. فلما تولى بطرس دى لوزنيان حكم قبرص فى الفترة من ١٣٥٠- ١٣٦٩ عمل على استغلال حالة الضعف التى آلت اليها السلطنة المملوكية، وهى فرصة مواتية قد لاتتاح له بعد ذلك لتسديد ضربته الى مصر مصدر المتاعب للقوى الصليبية، ولكن مثل هذه الضربة كانت تحتاج الى استعداد مسبق، وقدرات وامكانيات وفيرة أدبية ومادية، فقام برحلة طويلة استغرقت ثلاث سنوات الى دول غرب أوروبا لاقناع ملوكها وأولى الأمر فيها بضرورة مساعدته، فزار البندقية وأقنع أميرها بامداد حملته التى يزمع القيام بها بالسفن اللازمة ثم قصد جنوة، ورحل منها الى افنيون حيث قابل البابا أوربان

الخامس ، ثم قابل حنا الثاني ملك فرنسا، وطاف بعد ذلك بعدد من الامارات والدول مثل فلاندر ونورمندى وبريتانى وانجلترا، وعاد الى باريس مرة ثانية حيث قابل شارل الخامس ملك فرنسا الجديد ثم اجتمع بالامبراطور شارل الرابع فى براغ، وبملكى بولندا وهنغاريا فى كراكاو. وفى كل هذه الاقطار كان بطرس يحظى بتأييد بالغ، وأبدى الملوك استعدادهم التام لمساعدته فى حملته. وقبل أن يعود بطرس لقيادة الحملة كتب الى أخيه حنا بقبرص يطلب منه أن يعد السفن والرجال والعبرة، ويسيرها الى رودس ، وينتظر قدومه هناك. ثم مر بطرس بالبندقية، وعادرها بعد ذلك الى رودس فوصلها فى اغسطس ١٣٦٥م (٧٦٧هـ) [1]، وهناك تباحث مع رجاله وخاصته فى هدف الحملة، فنصحه بارسيفال دى كولونى بتوجيهها الى الاسكندرية ومهاجمتها يوم الجمعة والمسلمون يؤدون الصلاة، واقتنع بطرس بنصيحته، ولكنه عمل على كتمان هذا السر حتى لايتسرب خبر الحملة الى المسلمين فيستعدون له. وكان قد مهد لحملته هذه بغزوة من قبيل التمويه والايهام على سواحل الشام سبق أن أشرنا اليها، لايهام المماليك بنيته فى مهاجمة الشام لاسترجاع بيت المقدس ، واشترك فى هذه الحملة فرسان رودس والبنادقة، ونجح فى دخول طرابلس الشام فى نيابة منجك اليوسفى على النحو الذى أشرنا اليه. وعلى الرغم من تكتمه الشديد، وصلت أخبار الحملة الى مسامع المماليك فى مصر قبل أن تقوم

(١) سعيد عاشور . قبرص والحروب الصليبية ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

من رودس بوقت طويل [1] فقد ذكر النويرى السكندرى أن الأخبار كانت ترد الى الاسكندرية بأن العمارة عند القبرسى ، فاستهم نائب السلطان وهو الأمير زين الدين خالد ، فرفع سورها القصير من جهة الباب الأخضر، وصار يجتهد فى العمارة ويرسل يطلب من الأمير يلبغا الخاسكى مقدم الجيوش المنصورة الاعانة على عمارة السور، ويخبره بخبر عمارة القبرسى للمراكب الحربية، فيقول : ان القبرسى أقل وأذل من أن يأتى الى الاسكندرية [2] ولكن الأمير يلبغا الخاسكى استهان بالقبارصة ولم يكترث للأمر . ويعلل النويرى السكندرى غزو القبارصة للاسكندرية بالأسباب الآتية :

١ – أن السلطان الملك الصالح صالح بن الناصر محمد كان قد منع النصارى الذميين من تقييد أنفسهم فى الديوان سنة ٧٥٥هـ باستثناء من أسلم منهم، وأنه فرض على من بقى على نصرانية أن يلبس خشن الثياب، وتقصر أكمامه وأذياله وتصغر عمامته الزرقاء ، ويركب الحمار على شق واحد ،وقد دعا الفرنج الى السفر الى بلادهم، فكان ذلك سببا من أسباب هياج القبرسى الذى جعل من نفسه بطلا مدافعا عن المسيحية [3] .

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ج٣ قسم١ ص ١٠٨ أشيع ذلك حتى أن الناس فى القاهرة منذ أعوام كثيرة تجرى على ألسنتهم جميعا « فى يوم الجمعة تؤخذ الاسكندرية » .
(٢) النويرى السكندرى ، مخطوطة الالمام بما جرت به الاحكام المقضية فى وقعة الاسكندرية، نسخة مصورة من مخطوطة دار الكتب المصرية المقيدة برقم ١٤٤٩ تاريخ مكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية تحت رقم ٧٣٧، ص ٧٤ أ
(٣) النويرى السكندرى ، ص ٧١ ب

٢ - أن ببير (بطرس) لما خلف أباه على العرش أرسل الى الناصر حسن بن الناصر محمد يستأذنه فى التوجه الى صور ليجلس على عمود بها كجارى عادة من تملك جزيرة قبرص ، فاستهان السلطان حسن بأمره ومنعه من دخول صور .

٣ - أطمع ضعف القوة البحرية الاسلامية فى الاسكندرية بطرس على غزوها، اذ بلغه أن قراصنة من الفرنج قدموا فى غراب (مركب) الى ميناء الاسكندرية فى شوال سنة ٧٥٥ هـ وأغاروا على مينتها، ونهبوا ما استطاعوا نهبه منها، كما أغاروا على سفينة تجارية قادمة من بر التركية، وأخذوا يتجولون بين المينوين ، فأرسل الأمير سيف الدين بلاط نائب السلطنة بالاسكندرية قناصلة الفرنج المقيمين بها يستخبرون أصحاب الغراب عن أمره، فأجابوهم بأنهم يريدون طعاما وشرابا ثم يرحلون. فأرسلوا اليهم ما طلبوه. ولكنهم بدلا من أن يرحلوا شاكرين للمسلمين ما قدموه لهم، هاجموا مركبا تجاريا قادما من الشام، فوثبوا عليه ، واستولوا على بضائعه، وقذفوا برجاله فى ميناء أبى قير [١] .
ويسوق النويرى أمثلة أخرى تعبر عن ضعف البحرية المملوكية وخلو ساحل الاسكندرية من السفن المعدة للدفاع عن المدينة.

٤ - قدم الى جهة أبى قير ليلا ٦ أعربة من البنادقة ضلت طريقها فأرست برشيد، ونزل من ثلاث منها جماعة الى الساحل، ففطن اليهم المسلمون، فهرب الفرنج طالبين غرابا من الثلاث ، فسبقهم أحمد

(١) نفس المصدر ، ص ٧٢ ب

الجداوى المعروف بالباشق الى الغراب ، وأخذ المسلمون يرمونهم بالسهام، فترامى الفرنج فى البحر ليعوموا الى الغراب فغرقوا، وكان عددهم ثمانين رجلا قذف البحر بجثثهم فأحرقها أهل رشيد . فلما بلغ البنادقة ما فعله أهل رشيد بأصحابهم ساعدوا بطرس دى لوزنيان على غزو الاسكندرية .

ويعتقد الدكتور سعيد عاشور أن تفكير بطرس فى غزو الاسكندرية لم يكن بالأمر الجديد، فقد سبقه الى هذا التفكير عدد من دعاة الحروب الصليبية، بل أن هنرى الثانى دى لوزنيان سبق أن قدم الى كليمنت الخامس مشروعا لفتح مصر كخطوة تمهيدية لاستخلاص الأراضى المقدسة، وقد تأثر بطرس به الى حد كبير عندما فكر فى جعل الاسكندرية هدفا لغزوته [١] وأعتقد شخصيا أن حملة بطرس لم يكن الهدف منها فتح مصر، لأن القبارصة مهما بلغت درجة انتصارهم فى الاسكندرية ومهما حققوا من مكاسب فى هذه الوقعة لم يمكثوا بها أكثر من بضعة أيام، ثم جلوا عنها بعد أن نهبوا الفنادق والحوانيت والخانات، وجردوا المدينة من تحفها، واعتدوا على النساء والبنات وخربوا الدور والمساجد والأربطة، وقتلوا وأسروا أعدادا هائلة من السكان. وأميل الى الاعتقاد بأنهم استهدفوا من وراء ذلك العدوان البشع ارهاب سلاطين المماليك واشعارهم بالخزى والعار أما الرأى العام الاسلامى ، واضعاف هيبة مصر فى الداخل والخارج، وبث روح

---

(١) سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية، ص ٦٠

الهزيمة في قلوب المسلمين، وممارسة نوع من الضغط على أولى الأمر في البلاد عن طريق المساومة بالأسرى الذين شحنوا بهم سفنهم الى قبرص، يملون بهم شروطهم على المماليك، والاطاحة بالاقتصاد المملوكي بنهب السلع والبضائع المكدسة بمخازن الصادر أو بالفنادق [1]، وعن طريق اثارة المسلمين على البنادقة ودفع المسلمين الى عدم السماح لهم بالمتاجرة في البلاد الإسلامية. وواضح أن القبارصة لم يكن في هدفهم الاستيلاء على الاسكندرية والتحصن داخل أسوارها، ولو كان ذلك في نيتهم لما أحرقوا بابي رشيد والزهري، بل كان لزاما عليهم سدهما وتحصينهما بالبناء. واعتقد أن حركة القبارصة هذه - وقد تجددت بعد ذلك بعامين في طرابلس الشام - لم تكن تعدو نوعا من القرصنة البحرية، وهي الصورة الحقيقية لوجه القبارصة الذين كانوا يخفونه تحت قناع ديني زائف، وقد أكد النويري السكندري هذه الصورة بقوله: «والقبرسي الملعون جمع من اللصوص النصرانية، وأتى الى الاسكندرية، سرقوا أتاها على حين غفلة من حماتها..» [2]، وقوله أيضا: «فماذا عسى فعل القبرسي الملعون، الكلب الدون، بالاسكندرية التي دخلها لصا وخرج منها لصا [3]».

---

(١) لاشك أن نهب بهار الاسكندرية وحليها وثروتها وشحنه في سفن القبارصة منذ اللحظة الاولى لدخولهم بها يدل دلالة واضحة على نيتهم في الاقلاع بهذه الشحنات وهذا يرجح رأينا في أنه لم تكن لديهم النية في البقاء بالاسكندرية، وأن حملتهم على الاسكندرية كان لها أهداف أخرى أشرنا اليها بأعلى الصفحة.

(٢) النويري السكندري، الالمام ص ١١٣ ب (نسخة الهند).

(٣) النويري، المصدر السابق، ص ٥٦ ب (نسخة الهند)

ب - أحوال الاسكندرية عند وصول الحملة :

وفق بطرس لوزنيان كل التوفيق فى اختيار الوقت المناسب لغزوته فقد كانت الظروف السياسية الداخلية فى دولة المماليك وقتئذ فى غاية السوء للأسباب الآتية :

١- كان السلطان الأشرف أبو المعالى زين الدين شعبان بن حسين (٧٦٤ - ٧٧٨هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦م) وقت وصول الحملة ما يزال طفلا لايتجاوز من العمر ١٣ سنة فقد ارتقى عرش السلطنة سنة ٧٦٤هـ وعمره عشر سنين ، وكانت السلطة الفعلية فى يد الأتابك يلبغا العمرى الخاسكى ، الذى استبد بشؤون الدولة، وارتكب من الفظائع وضروب العسف والاستبداد ما أشاع الفوضى فى البلاد، وأصبحت القاهرة مسرحا للمعارك، ومرتعا للفساد [١] .

٢- قاست مصر كثيرا من وباء الطاعون الذى تفشى فى ديارها فى سنى ٧٤٩ ، ٧٥٤ ، ٧٦١ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ هـ ، واستنفذ هذا الوباء قوى مصر ومات بسببه عدد هائل من السكان .

٣- كان نائب السلطان على ثغر الاسكندرية وهو الأمير صلاح الدين بن عرام يؤدى فريضة الحج فى الحجاز، وكان ينوب عنه فيها أثناء غيبته الأمير جنغرا، الذى لم يكن أهلا للولاية لجهله بتدبير الأمور، وعدم معرفته بمواقع الحروب ، وقد أساء جنغرا اذ ولى ضعاف الرجال

(١) سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية، ص ٦٢ ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٧٢ .

٤- كانت الأنباء تصل الى بطرس لوزتيان قبل خروجه من قبرص على رأس حملته الى الاسكندرية بأن بهذه المدينة طوائف قاعات يبيتون بساحل مينتها، لا خبرة لهم بالقتال ، ولا هم لهم الا التأنق فى الزى وارتداء فاخر الثياب ويصفهم النويرى السكندرى بأنهم « لم يعرفوا الحرب ولا باشروه ابدا، بل يخرجون منها الى البحر يحرسون ، وكلهم بملبوسهم متزينون ، قد تطلسوا من فوق العمائم التى على الرؤوس أحسن زى وملبوس ، يتبخترون فى مشيتهم كالمشى فى زفة العروس ، وروائحهم بالطيب تفوح، يحيى بشمها كل روح، فتزرغت لهم النسوان ، ويصير كل واحد بزينته فرحان ، ومعهم الاسلحة الثقال، ولكن ليس تحتها لوقت الحرب رجال ، مع كل واحد سيف تقلده ، بجوهر النصل جيده، حفيره مزخرف بالذهب كجمرة نار ملتهب ، ومع ذلك صاحب جبان ، يفزع من نعيق الغربان، فلما علم القبرسى حالهم طمع فيهم [١]» . وكان جنغرا عندما يشاهدهم يجوبون الميناء بقسيهم الموترة وأعلامهم الحرير المنشورة مع ما بأيديهم من المزاريق والرماح والدرق والصفاح يغتر بمظهرهم وينخدع بما عاينه من بريق أسا حتهم ويتراءى له أنهم قوة هائلة بامكانهم البطش بالاعداء ورد أى عدوان . وكان جنغرا يبكى عند مشاهدته لهم ويقول :« هؤلاء أهل الجنة لرباطهم وجهادهم فى سبيل الله، قد طاب والله العيش بقوة هذا

(١) النويرى ، ص ١١٣ ب (نسخة الهند)
(٢) النويرى ، ص ٧٤ ب

الجيش، لو أتى الى الاسكندرية جميع نصارى الرومية، ما قدروا مع هذا الجيش على الاسكندرية، بل يكسرون النصارى ويصيرونهم قتلى وأسارى »[1]. فأقام جنغرا بالاسكندرية من شهر شوال سنة ٧٦٦هـ الى شهر المحرم يشاهد هذه الطوائف وهى تتبادل الحراسة لساحل الميناء، وكثيرا ما كان يبيت فى الغرفة التى كانت تعلو تربة الأمير طغية، وكانت تقع خارج باب البحر فى مقبرة الميناوين بشبه جزيرة المنار ليمتع ناظريه بطائفة الزراقين وهم يطلقون النفط فيشاهد شرره المتطاير بالالوان النارية فينشرح صدره وتسر نفسه .

٥- كان الدفاع عن الاسكندرية قاصرا، اذ كانت الأسوار المطلة على الميناء الشرقية خالية من المدافعين عنها، ولم يكن يتقدمها خندق يمنع العدو من ارتقاء السور[2]. وكان الخندق الوحيد الذى يحيط بالسور يمتد من الباب الاخضر فى اقصى الغرب حتى قلعة ضرغام فى مسافة قصيرة، فاكتفى شمس الدين بن غراب كاتب الديوان ، وشمس الدين بن أبى عذيبة الناظر بغلق باب الديوان الذى يطل على داخل المدينة حتى لايتمكن أحد من نهب البضائع المكدسة. وعلى هذا النحو اطمأن متولى الثغر الى تلك الناحية وتركها بدون حراسة[3]، وهكذا كان الدفاع السكندرى أنذاك فى غاية السوء عندما ظهرت فى الافق مراكب القبارصة يوم الاربعاء ٢٠ من المحرم

(١) النويرى ، المصدر السابق ، ص ٧٧ أ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٨١ أ .
(٣) ونلاحظ أنه كان فى مقدور القبارصة اكتشاف مواضع الضعف فى الدفاع عن المدينة بنظرة شاملة واضحة، وذلك لمجرد قدومهم فى السفن من جهة البحر

سنة ٧٦٧هـ ، وعندما أقبلت هذه السفن ظن أهل الاسكندرية وقد لاحت لهم شرعها من بعيد انها لتجار البندقية ، وكانوا يتوقعون وصولهم بمتاجرهم جريا على عادتهم كل عام، وكان تجار المسلمين قد جلبوا لهم من اليمن أصناف البهار يبيعونها عليهم ويتعوضون عنها من متاجرهم. فلما لم يدخلوا الميناء بات الناس فى قلق بسببهم [1] .

وفى صباح يوم الخميس ٢١ من المحرم سنة ٧٦٧هـ (٩ اكتوبر ١٣٦٥م) أقبل أسطول القبارصة فى سبعين قطعة ما بين غربان وقراقر نحو ساحل شبه جزيرة المنار، وقد نشرت قلوعها وملأت البحر من كل ناحية، ثم حطت قلوعها ببحر السلسلة وهو الميناء الغربية فى قول النويرى، والميناء الشرقية فى قول الدكتور عزيز سوريال [2] ، والدكتور سعيد عاشور، فأيقن أهل الاسكندرية بأنها حملة بحرية قادمة من قبرص فتأهبوا للقتال وانتشر الرماة على الأسوار، وحاولت سفينة من سفن القبارصة التقدم للاستطلاع ،فبادرها المسلمون بقذفها بالسهام، فولت هاربة ، وظل الأمر على هذا النحو طوال اليوم الى أن كان المساء فنصبت الفوانيس على السور لاضاءته، وقضى المدافعون الليل ساهرين. وفى الصباح أقبلت على الساحل بشبه جزيرة المنار أعداد كبيرة من المسلمين قد تسلحوا بكل ما استطاعوا حمله من سلاح، كما قدمت حشود كثيرة من فرسان العربان للمشاركة فى الدفاع عن

(١) النويرى ، المصدر السابق ، ص ٧٨ أ

(2) Aziz Surial op cit, p 353

المدينة ولكن المدافعين عن الاسكندرية استخفوا بالقبارصة، وقدخدعهم مارد ده المسؤولون من التأكيد باحكام الدفاع وقوة الجيش وتوافر السلاح وصمود الأسوار. وانتهز الباعة المتجولون فرصة تجمع الجند واحتشادهم خارج باب البحر في المنطقة الواقعة بين المیناوین بشبه الجزيرة لبيع أطعمتهم وأشربتهم دون أن يعتريهم خوف من مرابطة أسطول العدو بالميناء، فخرج الباعة بطباليهم وقدورهم ودسوتهم ملآنة بالطعام، يبيعونها على من بالجزيرة من الخاص والعام وذلك في ليلة الخميس، ليكسبوا معاشهم وهم معلنون بلعن كل راهب وقسيس ، وذلك من غير خوف من المراكب التي رؤيت يوم الاربعاء في البحر "(١) وهكذا كان القوم على سجيتهم ، العامة والحرافيش يسبون القبرصي بكل ألفاظ السباب القبيح، والباعة يبيعون مالديهم على طوائف العسكر والمتطوعة ورماة قاعة القرافة، والجميع لايعبأون بالأسطول القبرصي المرابط في مياه الاسكندرية. ويبدو أن بطرس دي لوزنيان سيّر جماعة من عيونه المستعربين، وقد تنكروا في زى المسلمين، أثناء الليل الى البر، فاختلطوا بالمسلمين ، واطلعوا على ضعف الدفاع، وفطنوا الى استخفاف الأهالي بسفن القبارصة، واشتغال العسكر بالأطعمة والأشربة، وتخليهم عن أردية الحرب، وتعرى الكثير منهم من اللباس. وقبل أن تشرق شمس الجمعة أقبلت حشود العربان من كل مكان، وقد ركبوا الخيول ، ومروا بالكيمان الواقعة بغرب الاسكندرية، وانطلقوا خارجين

(١) النويرى ، الالمام بما قضت به الأحكام ، ص ٧٨ أ

عرايا من الباب الأحصر ، لايحمل الواحد منهم سوى سيفه ورمحه، والناس موقنون بأنهم من القوة والبأس منتصرين ، وأن نتيجة المعركة المقبلة معروفة بدون مجرد الحدس والتخمين. وأشار أحد تجار المغاربة ممن له خبرة بالحروب بأن يتحصن القوم داخل الاسوار، ولكن أصحاب الأربطة والمقابر المقامة بين الميناوين سخروا منه واستخفوا بنصحه

جـ- موقعة الجزيرة خارج باب البحر وهزيمة المسلمين :

كان القبارصة يترقبون عملا حاسما من جانب المسلمين، فلما أدركوا عدم اكتراثهم للأمر، قدموا غرابا الى الساحل، فتصدى له جماعة من المغاربة المجاهدين [1] خاضوا في الماء، وناوشوا من فيه القتال، وتمكنوا من الامساك بالغراب في أيديهم، ثم طلبوا من الزراقين أن يرودوهم بالنار ليحرقوه ولكن للأسف لم يهتم أحد بذلك، لقلة همتهم، وتهاونهم وغفلتهم، وظل المغاربة ينادون فى طلب النفط والنار، دون جدوى ، ولما لم يجد بحارة الغراب من يمنعهم من المضى في مسيرهم نحو الساحل تابع سيره وتبعه آخر من خلفه يحميه برمى السهام على المسلمين. فلما وصل الغرابان الى البر تتابعت الغربان من مناطق متفرقة حتى يرتبك المسلمون ويستعصى عليهم تركيز قذفها بالنار والحجر ،وسرعان ما نزل الى البر ضحى يوم الجمعة

---

(١) أسهم المغاربة مساهمة فعالة فى الجهاد ضد الصليبيين وفى المرابطة على سواحل مصر والشام مند عصر مبكر، كما شاركوا فى الجهاد بالاسكندرية فى بداية قيام الدولة الايوبية، وقد اشترك كثير منهم فى الدفاع عن الاسكندرية فى وقعة القبارصة، واستشهد منهم عدد كبير ، وكان يلبغا الخاصكى يقدرهم ويسيرهم فرسان البحر .

وأخذ خيالتهم يرمون على المسلمين بالسهام، وقد زحف فى مقدمتهم أصحاب الدرق والسيوف مشاة على الاقدام مسربلين بالزرد وصفائح الحديد، وعلى رؤوسهم الخوذ وبأيديهم السيوف وقد تنكبوا القسى ، ورفعوا أعلام الصلبان. وأحدث نزول القبارصة على الساحل موجة من الذعر والهلع فى نفوس المسلمين، فترك الباعة موائدهم وأطعمتهم وفرواخائفين ، والفرنج يضربون أقفيتهم بالسهام ويوجهونها على خيل العربان، فهاجت الخيل وجفلت ، وتفرقت على غير هدى، وطار العربان من رمى السهام « طيران الحمام » ، وانهزموا الى ناحية السور، وتدفقوا على أبواب المدينة فدخلوها ولما رأى أهل الاسكندرية ما أصاب طلائع العربان من القتل فروا بأنفسهم الى الابواب ، وتزاحموا فى الدخول فهلك منهم كثيرون وآثر البعض القتال والموت فى ساحة المعركة. ويسوق النويرى أمثلة من بطولات فردية أبداها جماعة من المصريين ، من ذلك أن محمد الشريف الجزار هجم على الفرنج بساطور المجزرة « جعل عظام جماعة منهم مكسرة » وهو يقول : الله أكبر قتل من كفر ، الى أن تكاثر عليه منهم جماعة كثيرة العدد، فاستشهد بالجزيرة. ويذكر النويرى أيضا أنه لما حوصر جماعة من رماة قاعة القرافة المتطوعين فى رباط ابن سلام الواقع خارج باب البحر، صعدوا الى سطح الرباط وأخذوا يرمون الفرنج بسهامهم فقتلوا منهم جماعة، فلما نفذت سهامهم عمدوا الى شرفات الرباط وأخذوا يهدمونها ويرمون الفرنج بأحجارها الى أن نفذت شراريف الرباط ، فانقطع رميهم، وعندئذ كسر الفرنج شبابيك الرباط وصعدوا اليهم

وذبحوهم عن آخرهم .

د - موقف جنغرا بعد الهزيمة :

رأى جنغرا وهو مشرف على المعركة من خارج باب البحر ما أصاب المسلمين على أيدى القبارصة، وشاهد هزيمتهم وسهام العدو تصيب ظهورهم فترديهم، فندم على مخالفته لنصيحة المغربي، وأسف على سماحة للمسلمين بالخروج الى الجزيرة والتعرض لسهام العدو بدلا من التحصن داخل الأسوار ومقاتلة الفرنج من منافذ هذه الاسوار الى أن تصل النجدات من القاهرة. وكان أهل الاسكندرية وقد أصابهم الذعر والهلع قد شرعوا في الفرار من أبواب البحر الى بلدة البسقلون [١] والكريون وغيرهما من القرى الدانية والقاصية، ويبدو أن جنغرا لم يتمكن من دخول المدينة من باب البحر لكثرة تزاحم الناس على الدخول، فاضطر الى السير ناحية المطرق المحاذى لدار السلطان غربى الاسكندرية من ظاهر سورها، خائضا بفرسه في الماء، وبصحبته عدد من الجند، فدخل الاسكندرية من باب الخوخة وهو باب صغير كما يبدو من اسمه يقع بين باب البحر والباب الأخضر [٢] فأتى الى بيت المال، وحمل ما كان فيه من الذهب والفضة خشية أن يقع غنيمة

(١) لعلها البلقطر وهى قرية صغيرة من كورة البحيرة (ياقوت، معجم البلدان، مادة بلقطر).

(٢) اكتشف منذ سنوات أثر يقع على مقربة من الباب الاخضر بشارع اسكالة الغلال بميناء البصل وقد قمت بدراسة هذا الاثر دراسة دقيقة وتبين لى أنه باب صغير بسور الاسكندرية الشمالى من جهة الغرب ورجحت أنه باب الخوخة. وقد سجلت ذلك في بحث علمى ألقى باللغة الاسبانية في مؤتمر الدراسات الاندلسية بمدينة بايرة سنة ١٩٨٣ ، وأعددت دراسة باللغة العربية عن هذا الكشف بالاشتراك مع الاستاذ يوسف الغريانى المدير السابق للمتحف اليونانى الرومانى ، مازال تحت الطبع بالمجلة الاثرية بالاسكندرية.

بأيدى القبارصة، ثم خرج من باب البر [1] ، وأمر باعتقال تجار الفرنج وقناصلتهم بالثغر وكان عددهم خمسين رجلا واخراجهم من باب البر الى دمنهور. ولما حاول أحدهم الاعتراض على ذلك ضرب أحد المماليك الجلبية عنقه بسيفه فأذعوا بالخروج وقد قيدهم المسلمون بالسلاسل .

د - اقتحام القبارصة أسوار الاسكندرية وعيثهم فى المدينة :

اقترب القبارصة من سور الاسكندرية، ولكن المسلمين أمطروهم من أعلى السور وابلا من السهام، فتوقفوا عن مواصلة الزحف ، وعمدوا الى استخدام ابنية خشب ملأوها حريقا، وقصدوا بها حرق باب البحر بكركرتها بأسنة الرماح ، ولكن السهام تساقطت عليهم من أعلى السور وأرغمتهم من جديد على التوقف، فتركوا الابنية وقد اشتعلت فيها النار، وتراجعوا بعيدا عن مرمى سهام المسلمين ناحية الميناء الشرقية وتفحصوا السور من تلك الجهة، فألفوا ممشاه العلوى دون بقية الأسوار خاليا من المدافعين وأدركوا أن بامكانهم الصعود الى ذروته، خاصة وأنه لم يكن يتقدمه خندق يعوقهم عن الصعود اليه ، فمضوا الى ناحية باب الديوان فأحرقوه من غير أن يمنعهم مانع من تلك الجهة، ودخل بعضهم المدينة عن طريقه بينما تسلق البعض الآخر سلالمهم الخشبية المفصلة المركبة بعضها فى بعض ، وصعدوا الى أعلى السور ، ولم يكن يفصل المسلمين عن القبارصة الذين صعدوا بأعلى السور سوى

(1) من المعتقد أنه باب سدرة بالقرب من باب الجوعة ثم أنه أقرب أبواب البر الى قصر الوالى

حصن لامنفذ فيه يؤدى الى القبارصة، فلما رأى المسلمون نجاح القبارصة فى الصعود الى السور وفى دخول المدينة من باب الديوان فت فى عضدهم، وأيقنوا بتغلب الفرنج على المدينة، ففروا طالبين النجاة بأنفسهم ، فقتل الفرنج من أدركوه منهم، ولم ينج الا من أسعده الحظ بالخروج من باب البر[1] .

- وبينما كانت قوات القبارصة تنتشر فى الاسكندرية ، كان أهل المدينة يهرولون فى طرقاتها يقصدون الخروج من منافذها البرية وهى باب السدرة وباب الزهرى وباب رشيد، حيث تجمعت الألوف، فاشتد الزحام هناك، وفقد الأهالى فى دفعة الازدحام ما كانوا يحملونه من ذهب ومصاغ ومتاع، فمنهم من نجح فى الخروج من تلك الأبواب، ومنهم من أدركه القبارصة بباب السدرة فقتلوه ، ومنهم من وقع فى أسرهم، ومنهم من تدلى من أعلى السور فى الحبال والعمائم، فنجا بنفسه، وهلك البعض. أما من تمكن من الفرار من أهل الاسكندرية فقد لجأ الى القرى والحقول، وتدفق الفرنج فى شوارع الاسكندرية ينهبون متاجرها وفنادقها وحوانيتها بعد أن كسروا أقفالها وأحرقوا أبوابها وحملوا ما فيها على ظهور الجمال والبغال والحمير، وقتلوا من وجدوه مختبأ فيها صغيرا كان أو كبيرا ، واعتدوا على النساء والبنات وأحرقوا القياسر والخانات، وكسروا قناديل الجوامع والمساجد، وقتلوا الشيوخ والعجزة فى داخل بيوت الصلاة، وأسروا الرجال والنساء والأطفال،

(١) النويرى ، الالمام ، ص ٢٨١.

واستمروا على تلك الحال من ضحى يوم الجمعة الى مساء يوم السبت، أحرقوا خلال هذا الوقت « حوانيت الصرفة بكمالها وسوق القشاشين بالمعاريج، والحوانيت الملاصقة لقيسارية الاعاجم من خارجها من الجهة الشرقية بوحوانيت شارع المرجانيين وبعض فنادقه، وفندق الطيبية مع فندق الجوكندار وفندق الدماميني بسوق الجوار، ووكالة الكتان المقابلة للجامع الجيوشي بالقرب من المطارين مع سوق الخشابين، وأحرقوا أيضا دارا بزى مدرسة ابن حباسة مع سقف الايوان، وعبثوا بكل ناحية ومكان، وأحرقوا باب مدرسة الفخر القريبة من باب رشيد [1]. ولم يستثن القبارصة من الحرق فنادق الفرنج بالاسكندرية فأحرقوا « فندق الكيتلانيين وفندق الجنويين ، وفندق الموز ، وفندق المرسيليين فصارت النار تعمل فى الفندق والبضائع التى لم تجد الفرنج لها محملا منهم لاشحان مراكبهم بما أخذوه من أموال الاسكندرية » [2] . ثم أتى القبارصة على قياسر البزازين، ونهبوا أقمشة التجار المصريين والشاميين المحزومة والمعدة للتصدير الى الشام والمنسوجات الحريرية التى وردت مع تجار الاعاجم وغيرهم الى الاسكندرية، وكانت تزن عدة قناطير، وهاجموا حوانيت الشماعين، فكسروا أبوابها ودمروا ما فيها من أوعية وأوانى وأحقاق وبرانى ، فأصبحت « ملقاة مطروحة فى الطرقات، قد سال ما فيها من زيت وعسل وسمن وغير ذلك ». وهاجموا سوق الصاغة، واقتحموا حوانيته ونهبوا كل ما فيها من الذهب والفضة. وسطا

(١) نفس المصدر، ص ٨٢ ب .
(٢) النويرى ، ص ٨٣ آ .

عدد من القبارصة على الدور، ونهبوا مافيها من أموال وثياب ومصاغ وفرش وبسط ونحاس ، واقتلع آخرون باب المنار الذى كان قد عمره الأمير صلاح الدين بن عرام قبل الوقعة على الأساس الذى كان قد أسسه الملك الناصر محمد بن قلاوون، وبطلت عمارته، فعمل ابن عرام على أساسه حصنا دائرا وعمل له الباب المذكور. كما اقتلعوا نوافذ قبة ضريح الامير طغية المقام بمقبرة الميناوين خارج باب البحر، وكسروا شاهدى قبر الامير طغية نفسه وقبر الامير بلاط وهما على شكل عمودين مموهين بالذهب واللازورد يحملان تاريخ وفاتهما، كما أحرقوا أسقف الاربطة القائمة فى شبه الجزيرة وكسروا قناديلها وقناديل المشاهد والمزارات، وخربوا قصور شبه الجزيرة ، وكسروا أعمدة قبة منبر مصلى الأعياد ، واقتلعوا حلقتى باب المدرسة الخلاصية التى كان قد عمرها نور الدين على بن خلاص، وكانت من النحاس المخرم المنزل بالفضة ، وأخذوا منها كرسى الربعة وبيتها، وكان من النحاس الاندلسى المخرم المنزل بالفضة، بينما طرحوا الأجزاء الثلاثين للربعة بالمدرسة، وصعدت طائفة من القبارصة الى مئذنة المدرسة النابلسية، فوجدوا بأعلاها جمال الدين ابن مؤسسها مختبأ منهم، وكان شيخا ضعيف البنية، فألقوه على رأسه منها الى الارض ، فاندق عنقه ومات شهيدا [1] كذلك أحرقوا باب البحر الأول والثانى، وأبواب الباب الأخضر الثلاثة وباب الخوخة والمجانيق التى كانت بالصناعتين الشرقية والغربية، وأحرقوا السفن التى كان المسلمون قد أخرقوها بدار الصناعة الشرقية حتى لايستولى عليها القبارصة، ثم أحرقوا دار الطراز والديوان بعد أن

(١) نفس المصدر ، ص ٨٣ ب

نهبوا ما كان بدار الطراز من الاستعمالات رفيقة الأثمان ، وأحرقوا أيضا باب قلعة ضرغام والمكان المعروف بالكدس ، وكان أيضا برسم الاستعمالات ، ولكنهم مروا أمام قصر السلاح، ولم ينتبهوا الى حقيقته، وظنوا أنه أحد أبواب المدينة، لأنه كان يجاور السور من جهة البر،فخافوا من كبير بابه خشية أن يكون خلفه كمينا يطبق عليهم [1] .

وعاث القبارصة في الاسكندرية فقتلوا من وجدوه من الاهالي مختبأ في المساجد، وقتلوا الناس في الدور والحمامات والشوارع والخانات بحيث بلغ عدد القتلى من أهل الاسكندرية وفقا لما ذكره المؤرخون نحو أربعة آلاف شخص [2] .

وكان القبارصة يحملون ماينهبونه من الحوانيت والفنادق والدور والقياسر على ظهور الابل والخيل والبغال والحمير حتى اذا ما انتهت هذه الدواب من مهمتها طعنوها بالرماح، وعرقبوها بالصفاح، وظلت مطروحة في الطرقات فهلكت وجيفت، واضطر أهل الاسكندرية بعد عودتهم اليها مؤخرا الى احراقها بالنار حى تزول رائحة جيفها. وما ان حقق الفرنج هدفهم من غزو الاسكندرية بعد ثمانية أيام من وصولهم اليها في ٢١ من المحرم الى خروجهم عنها يوم الخميس ٢٨ من المحرم، ووقروا سفنهم وشحنوها بما نهبوه منها حتى تحصنوا في مراكبهم، بعد أن تركوا على الساحل فضلات البهار التى لم يجدوا لها موضعا على سفنهم، فعادت الى أصحابها بعد خروج القبارصة. وكانت مراكبهم قد ثقلت بشحناتها ، فاضطروا الى تخفيفها في طريق عودتهم

(١) نفسه ، ص ٨٤ أ .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج١١ ، ص ٢٩

بالقاء بعض هذه الشحنات ، وقد عثر الغواصون بمنطقة أبى قير بعد خروج القبارصة من الاسكندرية على تحف نحاسية وغيرها فى قاع البحر. وحمل القبارصة معهم من الاسرى نحو ٥ آلاف شخص ما بين مسلم ويهودى ومسيحى ، نساء ورجالا وأطفالا.

و - استرجاع المماليك للاسكندرية :

تواصل القبارصة عيثهم فى الاسكندرية أثناء نهار الايام الثمانية التى احتلوها خلالها، وكانوا يرحلون الى سفنهم اذا ما أقبل الليل ، بسبب تفتح أبواب المدينة للداخلين اليها، ولذلك خاف القبارصة من المبيت فى داخل المدينة لتوقعهم وصول النجدات المملوكية من القاهرة. وأعتقد كذلك أنهم كانوا يخشون الاصابة بالطاعون بسبب تجيف الجثث العديدة المطروحة فى الطرقات والشوارع. وكان عربان هوارة وفزارة وغيرهما من القبائل النازلة بظاهر الاسكندرية يتسللون الى المدينة فى ساعات الليل عند خلوها من القبارصة، فينهبون ما يجدونه فى المخازن والفنادق والحوانيت وقد دمرت جميع أبوابها وأصبحت السلع والبضائع والتحف متاحة لكل لص وسارق."(١) .

وجاء خبر الاعتداء القبرصى على الاسكندرية الى يلبغا الخاصكى يوم السبت والسلطان فى سرياقوس ، فأبلغ من فوره ، فقفل عائدا الى القاهرة وصعد الى القلعة ، ثم أمر العسكر بالرحيل الى الاسكندرية وركب السلطان ومعه الأتابك يلبغا والعسكر، واتجهوا الى الاسكندرية

(١) النويرى ، ص ٩٣ .

من غير ترتيب أو تعبئة حتى وصلوا الى الطرانة احدى قرى مركز حماد- بالبحيرة، وهناك أخذت الاجناد تتوافد وتتجمع، فأرسل السلطان جاليشا (أي طليعة من العسكر) يتقدمون الجيش الى الاسكندرية، وأقبل الجيش المملوكي في ٢٥ من المحرم بقيادة الامير صلاح الدين بن عرام الذى كان قد عاد من الحجاز، ومعه يلبغا الخاصكى ، ودخل يبيغا الاسكندرية ، فرأى ما حل بها من تخريب وهدم، وعاين جثث المسلمين قد انتفخت وانت . . ، فبكى بكاء شديدا ، وأقسم على الانتقام من القبارصه وعزم على تجهيز أسطول يوجهه فى حملة الى قبرص . وكان أول ما فعله ابن عرام متبنى الاسكندرية بعد دخوله لها أن نزع أعلام صلبان القبارصة من أعلى أسوار المدينة ونصب اعلام المسلمين عليها، ثم أصدر أمره بدفن الموتى ز . وفى دمشق شق على أهلها ما فعله القبارصة فى الاسكندرية ، ووصف الخطيب فى الجامع الاموى يوم الجمعة ما ارتكبوه فى ثغر السكندرية من جرائم فتباكى الناس ، وصدر المرسوم من مصر الى نائب السلطنة بدمشق بالقبض على النصارى والفرنج دفعة واحدة وايداعهم فى الحبوس بالقلعة . أما فى الغرب المسيحى فقد ابتهج المسيحيون لهذه النزوة وهللوا لها، وبادر البابا بتهنئة بطرس دى لوزنيان، وأرسل الى ملوك أوروبا وأمرائها يحثهم على تقديم العون والمساعدة الى ملك قبرص « الاسد الشجاع » على حد تعبيره ، ووعد شارل الخامس ملك فرنسا بارسال جيش كثيف الى قبرص ليشارك فى تحطيم قوة المسلمين. وتسابق المغامرون والطامعون ومحترفو القرصنة فى الغرب الى قبرص

(١) النويرى ، ص ٢٥٢ ب

للدخول في خدمة ملكها عندما بلغهم كثرة ما غنمه القبارصة من ثروات الاسكندرية، ومع ذلك فان أحدا من ملوك أوروبا لم يلب دعوة البابا لمساعدة بطرس تلبية جدية، بل أن كثيرا منهم وجهوا اليه اللوم على الفرار من الاسكندرية عند قدوم جيش المماليك ، واعتبروا ما فعله مماثلا لما يفعله اللصوص، لأنه دخلها لصا وخرج منها لصا .

أما البندقية وغيرها من الجمهوريات الايطالية التي كانت ترتبط مع دولة المماليك بعلاقات تجارية فقد قابلت وقعة القبارصة بالاسكندرية باستنكار شديد لخشيتها من ردود الفعل الاسلامية المضادة على تجارتها التي هي المورد الرئيسي لحياتها. ولذلك حرصت البندقية على ارسال وفد الى السلطان شعبان يؤكد أن السفن التي أغارت على الاسكندرية لا علاقة لها بالبندقية [1] . ولكن السلطان أصر على ايقاف التعامل مع البنادقة أو غيرهم مادام لم يصف حسابه بعد مع ملك قبرص ، ولهذا السبب أخفقت السفارة البندقية، وتوجه البنادقة بعد ذلك الى قبرص لمفاوضة بطرس في ايقاف حملاته العدوانية على مصر والشام، وطلب الوفد البندقي أن يقدم بطرس بمفاوضة السلطان المملوكي في الصلح، وتعهد البنادقة بدفع الاموال التي أنفقها بطرس في اعداد حملته التي كان ينوي ارسالها الى بيروت، فعدل بطرس عن مهاجمة بيروت، ولكن مفاوضات الصلح مع مصر تعثرت وامتد أمرها الى أن تغلب الجنوية على قبرص سنة ٧٧٥هـ وأقدموا على نفي الملك بطرس الثاني والوصي نظير اعترافهما بتغلب الجنوية على الجزيرة.

(1) Makhairas, Recital concerning the sweet land of Cyprus, entitled "Chronicle", ed by Dawkins, vol. I, Oxford, 1932, p. 157.

(٨)

غزوة القبارصة للاسكندرية فى سنة ٧٧٠هـ

أغار القبارصة فى سنة ٧٦٩هـ على بلدة الصرفند بساحل صيدا ولكنهم لم يخرجوا من هذه الغزوة الا بعدد قليل من الاسرى عدتهم ١٣ أسيرا، واتجهوا بسفنهم الى مياه الاسكندرية للتلصص فى بحرها فى ١٢ شعبان سنة ٧٦٩هـ، فظفروا هناك بمركب للمغاربة قد اكتمل وسته كان راسيا بأقصى الميناء، مجهزا للاقلاع الى طرابلس الغرب، يحمل سلعا يقدر ثمنها ببضعة عشر ألف دينار، فقتلوا من فيه من المغاربة ومن كان معهم من رماة الاسكندرية نذكر من بينهم ابن معلا أحد رؤساء دار الصناعة [1]. وفى العام الاول من حكم بطرس الثانى هاجم القبارصة من جديد مدينة الاسكندرية بثلاثة أغربة كبيرة الحجم وطريدة كبيرة أيضا وسلورتين وذلك فى ٦ من ذى الحجة سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٩م) بقيادة سنجوان دمرف القبرصى عم بطرس الثانى والوصى عليه، ونزل جماعة من رجاله على ساحل المنار، فتقدم اليهم على سيالة المنار بهاء الدين أصلان الحاجب بعساكره، فبادر القبارصة برمى المسلمين بالسهام، ورد عليهم أصلان وقواته، وأرغموهم على الفرار الى غرباتهم. ثم أرسل القبارصة فى عصر ذلك اليوم قاربا الى الساحل به جماعة من القبارصة زعموا للمسلمين المواجهين لهم بأنهم يحملون كتبا الى السلطان وأنهم يرغبون فى تسلم الرد عليها. وتبادل

---

(١) النويرى، الالمام، ص ٩٩أ، ١٠٠ب

الفريقان الحديث ، ووعد القبارصة باحضار الكتب اليهم فى الغداة ولكن القبارصة بدلا من اعداد الكتب التى زعمون أنها للسلطان وارسالها الى الحامية الاسلامية، رفعوا مراسيهم فى سحر يوم ٧ ذى الحجة وأقلعوا من الميناء الشرقية الى صدر البحر، ثم انعطفوا قاصدين بحر السلسلة وهو الميناء الغربية، وكان بها قرقورة وغراب وسلورة للمسلمين، وعندئذ استعد المسلمين لقتالهم، فجهزوا المجانيق بالاحجار وأعدوا المرامى للرمى بها، وصعد القواد ورماة الجرخ الى القرقورة ، فى حين صعد الرئيس ابراهيم التازى رئيس دار صناعة الاسكندرية الى الغراب هو ورجاله، بينما صعد الرماة الجرخية أيضا الى السلورة بقسيهم ، كذلك تعمر السور بالرماة واصطف التركمان والرماة المجردة والاجناد على الساحل وفى المطرق الغربى المتقدم للسور من جهة الباب الاخضر كما اصطف الرماة المتطوعة بطوارقها على ضفة البحر يرمون من جوانبها بالسهام. وبدأ القبارصة بالعدوان ، وقذفوا المسلمين بسهامهم بقصد تنفيرهم حتى يتيسر لهم جر السفن الاسلامية بالكلاليب، فثبت المسلمون ورموهم بالمثل، فارتد القبارصة لكثرة ما أصابهم من سهام المسلمين، وأقاموا نحو ساعتين ثم جذفوا من جديد نحو الساحل لمعاودة القتال، فرماهم الترك بالقسى العربية والقياد والرماة المتطوعة بالقسى الجرخية ، فتقهقروا للمرة الثانية .

كل ذلك كان يحدث وأهل الاسكندرية يشاهدون القتال الدائر من شراريف السور، وهم عزل لايحملون معهم أسلحة ، بينما جلس رماة السور خلف منافذ السور بقسيهم الجرخ فرمى القبارصة أهل

الاسكندرية بمدافع تداهم حجره، ووقع بشبه جزيرة المنار، فلم يصب أحدا من المسلمين، ورد المسلمون عليهم بالمدافع فأخطأتهم أيضا [1]. ولما أعيت القبارصة الحيلة ربطوا سفنهم بعضها في بعض وحاولوا جر غربان المسلمين، وعندئذ أدرك ابراهيم التازى الحيلة، وربط غربان المسلمين الثلاثة المربوطة بعضها في بعض بالسرياقات في مراسى الحديد الموثوقة شعبها على الارصفة، ورسم خطة بمقتضاها يقفز المسلمون وعددهم ٢٥٠ رجلا عندما يرمى القبارصة الكلاليب على غراب المسلمين دفعة واحدة على غراب التقدمة القبرصى، ويقوم البعض بالقتال، بينما يقطع البعض الآخر سريافات الفرنج المربوطة بغربانهم الثلاث. فاذ انقطعت السرياقات يصبح فى امكان المسلمين أن يظفروا بالغراب القبرصى المتقدم، ولكن القبارصة فطنوا الى خطة المسلمين فبدلا من تكليب غراب المسلمين اقتربوا من مراكب المسلمين، وبدأوا يرمونهم بالسهام، فرمى المسلمون عليهم أيضا، فأخذ القبارصة يحمون وجوههم المقابلة للبر بالدرق تاركين ظهورهم للبحر، وعندئذ اندفع عليهم رماة المسلمين من منافذ السور وتراشقت عليهم السهام من منافذ السور ومن المطرق والاحجار من شراريف السور، وأحاط بهم البلاء من كل جهة، ثم قذف المنجنيق المقابل لهم على الساحل حجرا ضخما هشم مجاذيف غرابهم. فتوقفت المجاذيف، واحتمى القبارصة تحت الطوارق. وفى صباح يوم ٨ ذى الحجة رفع القبارصة صوارى غرابين ليقلعوا بهما وجروا غرابين خاليين من النواتية خلفهما ورجعوا من حيث أتوا.

---

(١) النويرى، الالمام، ص ٢٧٦ أ، ٢٧٦ ب (مخطوطة الهند)

منشآت المماليك البحرية

كتب المؤرخون كثيرا من حكم المماليك وصفاتهم، ولكن كتاباتهم لم تتعرض الا قليلا لما قدموه من أعمال فنية ومعمارية خلدت عهودهم، ورفعت من قدراتهم. فقد تخلفت من عصر المماليك آثار قائمة وتحف نفيسة تؤكد كلها أقوال المؤرخين من أن هؤلاء القوم برغم ظروف نشأتهم وطباعهم الشرسة، وبالرغم من اكتظاظ عهودهم بالدسائس والثورات والحروب والفتن فانهم كانوا سواء في ذلك سلاطينهم أم امرائهم يستمتعون بجميع ألوان الترف في الحياة، وكانوا يحيطون أنفسهم بجميع مظاهر الفن والجمال، ولهذا كان عهدهم عهد ازدهار للفنون جميعا، وليس أدل على ذلك من آثارهم المعمارية التي امتلأت بها القاهرة، والتحف الفنية التي اكتظت بها المتاحف من تحف خشبية ومعدنية وزجاجية وخزفية ومن منسوجات حريرية وموشاة بالذهب حتى قيل أن المماليك كانوا يتخذون الفن مظهرا من مظاهر سلطانهم، وأداة لترضية أطماعهم واشباع طموحهم. ولعل الفن الاسلامي في مصر والشام لم يبلغ في أي عصر من العصور ما بلغه في عصر المماليك، من حيث تنوع المصادر والاشكال وتعدد الالوان ما بلغه في عصر المماليك من حيث تنوع المصادر والاشكال وتعدد الالوان واختلاف العناصر، وخاصة في القاهرة التي أصبحت في

العصر المملوكى أهم عواصم العالم الاسلامى وأبعدها أثرا فى العمارة والفنون الصناعية. ويكفى لاثبات تفوق القاهرة على غيرها من عواصم العالم الاسلامى كدمشق وحلب والقدس ومراكش وبغداد وقرطبة استعراض قائمة الاثار المعمارية المتخلفة من العصر المملوكى فى القاهرة وحدها دون الأخذ فى الاعتبار فخامة هذه الآثار والعناية الفائقة التى خص بها المماليك مبانيهم. والثابت أن المماليك كانوا يشجعون على الدوام رجال الفن ويبسطون حمايتهم على الفنون، ويخصون أعمال البناء بالعناية والرعاية والتشجيع، واذا كان هناك من يزعم أن المشرفين على المنشآت فى عصر المماليك كانوا يشهرون السوط على العبيد، ويكرهون العمال على العمل، فليس من المعقول أن نصدق هذا الزعم أو نتخيل أن المبانى التى تبقت من هذا العصر والتى تظهر فى شكل متزن اتزانا رائعا بالرغم من ضخامتها، والحليات البديعة التى تكسو بنيانها قد صيغت وتمت تحت ضربات الاسواط، ولكن لنا أن نتصور أن هذه الأعمال الجليلة والتحف الرائعة التى تخلفت من هذا العصر انما تنطق بما لايدع مجالا للشك بأن الحياة التى كان يحياها هؤلاء القوم كانت ميسرة يسودها الهدوء والوداعة وأن وسائل العيش كانت سهلة بحيث حببت الى رجال الفنون أعمالهم وذللت لهم أن ينتجوا أعمالا فنية رائعة، وليس فى تصميم الواجهات المعمارية الشاهقة والتى تتخللها المقرنصات المتداخلة والزخارف الهندسية والنباتية المتداخلة، وفى انتصاب المآذن الرشيقة وارتقاء القباب ما يوحى بفكرة الضغط والاستعباد الفنى، بل انها تعبر تعبيرا صادقا على انها انجزت فى

عصر يسوده الرخاء المادى وحرية الفن والاصالة؛ ثم ان تخطيط المبانى وتصميمها فى هذا العصر يدل دلالة واضحة على مقدرة رجال البناء ومعرفتهم الدقيقة بأصول الهندسة والرسم والحساب، ومن أمثلة الآثار المملوكية فى القاهرة :

١- مسجد الظاهر بيبرس :

هو أول مساجد مصر الجامعة من عصر دولة المماليك البحرية، ويتميز بعظم بنيانه واتساع مساحته، شيده السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس خارج أسوار القاهرة فيما بين عامى ٦٦٥ ، ٦٦٧هـ (١٢٦٦ ، ١٢٦٩م) [١] ، شرع فى بنائه فى جمادى الآخرة سنة ٦٦٥هـ ويتخذ الجامع من الخارج مظهر القلاع، اذ يبدو خلوا من القباب والمآذن كأنه حصن حصين ، ولعل ذلك كان سببا فى احتلال الفرنسيين له أثناء الحملة الفرنسية، كما اتخذ مركزا عسكريا أيام الحرب العالمية الأولى . ويذكر المقريزى أن الظاهر بيبرس سار الى الشام فى أول جمادى الآخرة سنة ٦٦٦ ونزل على مدينة يافا واستولى عليها من الفرنج بأمان فى ٢٠ جمادى الآخرة، وأجلى أهلها عنها، وشرع فى هدمها ، وباشر السلطان الهدم بنفسه وبخواصه ومماليكه، واستخلص من أنقاض القلعة والابراج كميات كبيرة من الخشب والرخام؛ ووسق منها مركبا سيره الى القاهرة ورسم أن يعمل من ذلك الخشب مقصورة بالجامع الظاهرى والرخام بالمحراب . وتم بناء الجامع

(١) المقريزى ، الخطط ، ج٣ ص ٢٦٢

في عام واحد وافتتحه السلطان بيبرس في شوال سنة ٦٦٧هـ [1]. وقد سجل تاريخ البناء في أربعة نقوش كتابية ثلاثة منها على أبواب المسجد الشرقية والغربية والبحرية والنقش الرابع يحدد تاريخ انشاء القبة في لوحة حجرية تعلو المحراب، هذا بالاضافة الى نقوش قرآنية أخرى تحيط بالجدران الداخلية. ويحتفظ هذا المسجد بنفس نظام المساجد الجامعة الأولى اذ يشتمل على بيت للصلاة وصحن ومجنبات تحيط بالصحن المركزي وهو في ذلك يماثل النظام التخطيطي للمساجد الجامعة الأولى مثل جامع عمرو بن العاص وابن طولون والجامع الازهر وجامع الحاكم بأمر الله، ويشغل بناء الجامع مربعا طول جدار القبلة فيه من الخارج ١٠٨ مترا وطول الجدار البحري المقابل لجدار القبلة من الخارج ١١٠ مترا. أما الجدار الشرقي فطوله الخارجي ١١١ مترا والجدار الغربي ١١٠,٥ مترا. وطول بيت الصلاة ١٠٢ مترا وعمقه ٣٦ مترا ويشتمل على ستة أروقة موازية لجدار المحراب تنقسم الى ١٩ رواقا أو بلاطا عموديا على جدار القبلة. وصحن الجامع مستطيل الشكل وكانت تحيط به من كل من الجانبيين الشرقي والغربي مجنبة من ثلاثة أروقة، أما من الجهة البحرية من رواقين . أما عقود الجامع فمدببة. ويتميز الجامع بوجود ٣ بوابات رئيسية بارزة على غرار بوابات جامع الحاكم بأمر الله

(١) المقريزي ، الخطط ، ج٣ ، ص٦٦٣ يقول المقريزي : « فلما كملت عمارة الجامع في شوال منها ركب السلطان ونزل الى الجامع وشاهده فرآه في غاية ما يكون من الحسن وأعجبه انجازه في أقرب وقت ومدة مع علو الهمة، فخلع على مباشريه وكان الذي تولى بناءه الصاحب بهاء الدين بن حنا والامير علم الدين سنجر المسروري متولي القاهرة »

٢- جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة :

شيده الناصر محمد بالقلعة بعد بناء مسجد الظاهر بيبرس بنحو خمسين سنة وكان ذلك في سنة ٧١٨هـ (١٣٠٨م) وهو مسجد أقل اتساعا من مسجد بيبرس ولكنه مطابق لنظامه ، يشتمل بيت الصلاة فيه على ٤ أروقة عرضية تمتد في موازاة جدار القبلة و ١١ رواقا طوليا، وتتكون كل من مجنبات الصحن الثلاثة من رواقين. وأعمدة الجامع أعيد استخدامها من آثار مصرية قديمة، ونلاحظ أن أسطوانة المحراب أو مقصورته تمتد على مساحة ٩ اسطوانات عادية شأنها في ذلك شأن مسجد بيبرس .

٣- الجامع المنصوري الكبير بطرابلس :

أقيم في مدينة طرابلس المحدثة على الضفة اليسرى من نهر أبي علي، وهو من أعظم المساجد الجامعة بطرابلس ، أقامه السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل في سنة ٦٩٣هـ (١٢٩٤م)، وكان موضع هذا الجامع كنيسة أقيمت في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي تعرف باسم سان جان، في الوقت الذي كان ريموند دي سان جيل يحاصر مدينة طرابلس القديمة من حصن صنجيل القائم على تلة الحجاج .وقد تهدمت هذه الكنيسة في جملة ما تهدم من أبنية طرابلس القديمة عقب الزلزال العنيف الذي وقع في سنة ١١٧٠م (٥٦٦هـ) وشاهد بنيامين التطيلي آثاره المدمرة عند زيارته لتلك المدينة [1] . وقد

(1) Viajesde Benjamín de Tudela, trad espanola por Ignacio Gonzale. Liubera, Madrid, 1915, p. 67.

عمل بوهمند الخاصكى بالاموال لعمارة ما خرب منها، وقام بمصادرة جميع النصارى والرهبان بالديار المصرية كرد فعل لغزوة القبارصة، وجرد الأديرة من أموالها وذخائرها..

ز - صدى غزوة القبارصة فى العالمين الاسلامى والأوروبى المسيحى:

أحدث العدوان القبرصى الوحشى على الاسكندرية أصداء هائلة فى العالم الاسلامى، ففى الاندلس انتهز السلطان محمد الخامس الغنى بالله فرصة انشغال الملك بدرو الأول ملك قشتالة بمحاربة أخيه غير الشرعى هنرى دى تراستمارا الذى ينافسه على العرش وقام بهجوم واسع النطاق على بعض مدن الاندلس فى سنة ٧٦٩هـ (١٣٦٣م)، وذكر ابن الخطيب فى رسالة كتبها على لسان سلطانه الى السلطان المستنصر بالله الحفصى أن مسلمى غرناطة عندما هاجموا مدينة جيان انطلقوا يهتفون بعبارة: « يالثارات أهل الاسكندرية » [1]. تعبيرا عن غضبهم على الجرائم الوحشية التى ارتكبها القبارصة. وفى بغداد أبدى الخان المغولى أويس بن الشيخ حسن المبه عندما علم بما ارتكبه القبارصة فى الاسكندرية من مذابح شنيعة ونهب وسلب، وصادر المنسوجات التى أدت بها طائفة من الفرنج فى سنة ٧٦٧هـ كانت من بين ما نهبه القبارصة من الاسكندرية على ترميم الكنيسة الفرنجية الخربة وترك مهندسوه الايطاليون طابع بلادهم فى البرج اللومباردى الذى مايزال

(١) ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى، القاهرة، ١٩٥١، ص ١٦٢ - القلقشندى، صبح الاعشى فى صناعة الانشاء ج٦ ص ٥٥١ - أحمد مختار العبادى، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس الاسكندرية ١٩٦٨، ص ٤٤٥.

قائما حتى اليوم ويقوم مقام المئذنة بالنسبة للجامع المنصورى . وتهدمت الكنيسة تماما على أثر دخول جيوش المماليك الظافرة فى سنة ٦٨٩هـ (١٢٨٩م) وبقيت منها أجزاء استغلها مهندس الجامع فى بنائه ، ولا نستبعد أن يكون قلاوون قد قنع ببناء بيت الصلاة فى نطاق جدران الكنيسة حتى يفيد من برجها اللومباردى فيتخذها مئذنة للجامع، ولعله استغل جدران الكنيسة وبابها الرئيسى وبرجها بعد ان انتزع منه النوافيس، غير أن ابنه وخليفته الأشرف خليل حول البوابة القوطية الطراز التى تتوسط الجدار الشمالى للجامع الى باب اسلامى الاسلوب [1] . والنقش التاريخى سجل على لوحة من الخشب مثبتة على عتب الباب ، ويرجع النقش بناء الجامع الى الأشرف خليل فى سنة ٦٩٣هـ (١٢٩٤م) وتقرأ فى النقش النص التالى :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بانشاء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الأعظم سيد ملوك العرب والعجم، فاتح الأمصار ومبيد الكفار، الملك الأشرف صلاح الدنيا والدين خليل ، قسيم أمير المؤمنين ، ابن مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين

(1) Sobernheim (mortiz), Corpus Inscriptionum Arabicarum, t. xxv, 1909, p. 51.

وربما تكون هذه البوابة قد انتزعت من الكنيسة القديمة ونصبت فى موضعها لتكون تسجيلا لانتصار قلاوون على الصليبيين كما فعل الأشرف خليل بعد ذلك ببوابة كنيسة سان جان بعكا التى انتزعها الأمير علم الدين الدواداري متولى تخريب عكا وصور وعثليث وغيرها من قلاع الفرنج التى افتتحها الأشرف خليل ، ثم حملت البوابة الى القاهرة ونصبها العادل زين الدين كتبغا فى المدرسة التى نسبت فيما بعد الى الناصر محمد بن قلاوون بالنحاسين (السلوك ، المقريزى ، ج١ قسم ٣ ص ٩٥١) .

قلاوون الصالحي خلد الله ملكه في نيابة المقر العالي الأميري الكبيري العزى عز الدين أيبك الخزندار الأشرفي المنصوري نائب السلطنة بالفتوحات والسواحل المحروسة ، عفا الله عنه وذلك في سنة ثلاث وتسعين وستمائة والحمد لله وحده) [1] .

والجامع بناء اسلامى لا أثر فيه للتأثيرات المسيحية مما يدل على أنه بنى بناء جديدا ، وانه لم يبن داخل كنيسة، وتخطيط الجامع يماثل النظام القديم للمساجد الجامعة فيشتمل على ثلاث مجنبات تحيط بصحن مستطيل، وفى بيت الصلاة وتعلو المجنبات قبوات متعارضة، وتطل المجنبات على الصحن بعقود منكسرة ترتكز على دعائم ضخمة مربعة القاعدة .

والمظهر العام للجامع لايدل على عناية ببنائه، فجدران الجامع كلها مغطاة بطبقة بيضاء من الجير والجدران كلها خالية من الزخرفة .

٤- المدرسة القرطائية بطرابلس :

تعتبر مدينة طرابلس اهم مدينة فى الشام تحتفظ بعدد كبير من آثار المدارس المملوكية، وقد وصل الينا الكثير منها فى حالة ممتازة من الحفظ ولكن بعضها قد تخرب وتهدمت منها أجزاء . وتعتبر المدرسة القرطائية أجمل آثار طرابلس وأفخمها جميعا، وتقع لصق الجامع الكبير من الجهة الجنوبية الشرقية وينسب بناؤها الى الامير سيف

(1) Combe, Sauvaget, wiet, Repertoire chronologique d' Epigraphie arabe, ta xIII, le Caire, 1944, p. 122.

الدين قرطاى بن عبد الله الناصرى، وتعتبر بوابة المدرسة القرطائية من أروع امثلة البوابات المملوكية، اذ تنطق خطوطها بما تتميز به من جمال ودقة لانظير لها، فهى حلقة متصلة متزنة الاجزاء وتعبر عن ايقاع وتوازن ، ويتوسط عتب الباب لوحة عليها نقش كتابى نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، ان المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين) وتنقسم المدرسة من حيث التصميم الى قسمين : الرواق الشمالى ويتوسط هذا الرواق حوض مربع يقابل مدخل المدرسة بداخله نافورة ، ويحيط بالحوض قناة تجرى فيها المياه الجارية من الحوض ، وبأعلى الحوض قبة. أما الرواق الثانى فتعلوه أمام المحراب قبة قائمة على مقرنصات مثلثة .

٥ - تحصينات الاسكندرية :

يرجع الفضل فى تحصين الاسكندرية بعد وقعة القبارصة الى نائبين للسلطنة هما سيف الدين الاكز (شوال ٧٦٧ - شوال ٧٦٨هـ) وصلاح الدين خليل بن عرام الذى تولى نيابة السلطنة فى الاسكندرية خمس مرات أهمها المرة الأولى (من شوال ٧٦٨ الى ١٣ ربيع آخر ٧٦٩هـ). وأول ما فعله سيف الدين الاكز ازالة تراب الخندق المردوم من جهة الابواب الجنوبية والباب الشرقى وفى أيامه ركب على الباب الأخضر أبوابه الثلاثة المستحدثة بعد أن كان قد سد بالحجر والجير عقيب الوقعة القبرصية. أما صلاح الدين خليل بن عرام

فقد قام بكثير من أعمال الاصلاح والتعمير في الاسكندرية بعد أن خربها القبارصة فجدد المباني المخربة ، وعمل على تمكين وسائل الدفاع عن المدينة بحيث تستطيع أن تصمد أمام الاعداء اذا ما حاولوا غزوها مرة ثانية. وكان للاسكندرية قبل وقعة القبارصة خندق واحد يمتد من الباب الاخضر عند قلعة ضرغام ولم يكن يمتد أبعد من ذلك لأن أمواج البحر كانت تضرب سور الاسكندرية عند قلعة ضرغام الواقعة قرب الطرف الشمالي الغربي من سور الاسكندرية، ثم انحسر البحر عن السور وظل هذا الموضع بدون خندق ، ونسى ولاة الاسكندرية أمره وأهملوا اقامة خندق هناك، اذ لم يكن في حسبانهم أن يكون هذا الموضع نقطة ضعف في دفاع الاسكندرية ولذلك السبب حرص الأمير صلاح الدين بن عرام في نيابته الاولى للسلطنة بثغر الاسكندرية أن يعمر خندقا غربى الاسكندرية وهو ما عرف بالمطرق الغربي، ويبدأ من قلعة الباب الاخضر وينتهي بالقلعة المجاورة لدار السلطان وباب الخوخة. وأوصل هذا الخندق بالخندق القبلي المحيط بالاسكندرية من جهة البر. وفي هذه المرحلة أيضا أقام ابن عرام أبواب البحر الأول والثاني عوضا عن البابين اللذين أحرقهما الفرنج، كما أقام بابي رشيد اللذين أحرقهما أهل الاسكندرية عند الوقعة تسهيلا لدخول عسكر النجدة من القاهرة ،كما أقام أبواب دار الصناعة الشرقية . وأعتقد أنه أقام في هذا العام أيضا الخندق الشرقي بحذاء السور الذى توصل منه الفرنج الى دخول الاسكندرية من جهة باب الديوان. ولم يكن بهذا الموضع خندق من قبل، فعمره في أسرع وقت بدليل أن السلطان

الأشرف شعبان شاهد عند زيارته للاسكندرية فى جمادى الاولى سنة ٧٧٠هـ المكان الذى صعد منه القبارصة السور والخندق الجديد الذى أنشأه الأمير صلاح الدين بن عرام مكان صعودهم [١] وبعد أن أتم ابن عرام حفر الخندق المذكور أوصله بالخندق الاصلى الذى كان يبدأ من ساحل بحر السلسلة والباب الأخضر الى قلعة ضرغام، وقد عرف هذا الخندق بالمطرق الشرقى [٢] .

وفى نيابة صلاح الدين بن عرام للسلطنة للمرة الثانية سنة ٧٧١هـ (٢٦ شعبان ٧٧٠ حتى ٢ ذى الحجة ٧٧٢هـ) اهتم بتحصين الميناء الغربية المعروفة ببحر السلسلة لحماية سفن المسلمين، فعمل على تضييق فوهة الميناء عن طريق القاء كتل ضخمة من الحجارة فى مدخل الميناء وسد قسم كبير منه بهذه الحجارة حتى تشبه السياج الدائر على الميناء من جهة المدخل، فلا تصله بالبحر الا فوهة ضيقة أقام بها أبنية محكمة ذات سلسلة ضخمة قوية تغلق بقفل ثقيل، وجعل بموضع القفل كوى ومنافذ لرمى السهام على من يقصد السلسلة من الفرنج .

وبالاضافة الى تحصين الميناء الغربية أمر صلاح الدين بن عرام فى هذه المرحلة الثانية بتحصين باب السدرة وذلك ببنيان ضخم شديد الارتفاع أشبه ما يكون بالطابية. وفى نيابته الرابعة (من ١٩ رجب ٧٧٧هـ الى أول شعبان ٧٧٩هـ) تم انشاء مشط جديد ضخم لباب

(١) النويرى ، الالمام ، ص ١٤٩ أ .
(٢) نفسه ص ١٢٥ أ .

الصناعة الغربية من جهة المطرق الغربي زنتة عدة قناطير تخرج منه الرماة إلى الجزيرة وتدخل منه وقت الحرب فى حماية رماة السور بأعلاه فى الوقت الذى تكون فيه أبواب الاسكندرية مغلقة، وكان هذا المشط الحديدى يرخى عندما يتم دخول الجند، أما فى حالة خروجهم فيرفع من أعلى السور عن طريق سرياقات تدور حول لوالب الأتراس ذات الأضراس [(١)] .

وقد تبقى من تحصينات الاسكندرية قطاعان من سورها الشرقي والجنوبي الشرقي ، فأما الأول فمازال قائما فى حدائق الشلالات شمالي الخوضع الذى كان يشغله باب رشيد أو الباب الشرقي، وهذا القطاع يتمثل فى برجين أحدهما نصف اسطوانى والآخر مستطيل الشكل . أما البرج المستطيل فقد بنى بكتل حجرية مسنمة، ولايختلف نظام البنيان عنه فى بناء قلعة الجبل من العصر الايوبى . كذلك يتمثل القطاع الثانى فى أستاد الاسكندرية ويتمثل فى برجين أحدهما برج صغير نصف اسطوانى والثانى برج ضخم نصف اسطوانى ،كذلك كان يكتنف الجانب الأيمن من باب الزهرى .

وتبقى فى طرابلس برج ضخم يقع بين برج السراى وبرج رأس النهر، وقد اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ انشائه فبينما يعتقد فان

---

(١) نفسه ، ص ٢٠٨ب ، ١٣٥ آ. وقد لاحظت موضعين للسرياقات التى كان يُرفع منها المشط المذكور فى الكشف الاثرى بشارع ابكالة التلال بمينا البصل، وكان الظن بادىء ذى بدء أن ما اكتشف هو باب الخوخة القريب من الباب الاخضر ولكن يغلب على الظن من خلال وصف النويرى أن ما اكتشف يتعلق بدار الصناعة الغربية .

برشم أنه أقيم فى حدود سنة ١٤٠٠م (٨٠٢هـ) وينسبه الى الأمير أيتمش البجاسى أتابك العساكر فى سلطنة الظاهر برقوق ، ويستند فان برشم فيما ذهب اليه على نص للسخاوى فى الضوء اللامع، جاء فيه «وهو صاحب البرج الذى بطرابلس على ساحل البحر»[1] ، يعتقد سوفاجيه أنه يرجع الى السلطان قايتباى للشبه الكبير بين قاعة استقبال السلطان قايتباى بأعلى قلعة حلب التى يرجع تاريخها الى سنة ١٤٧٥م[2] ويرى بروس كوندى أن البرج أقيم فى أواخر القرن ١٣م أو بداية ١٤م ثم جدد فى أواخر القرن ١٥م أيام قايتباى لمواجهة أى غزو قد يقوم به العثمانيون[3] واعتقد شخصيا بعد دراستى لبناء البرج المذكور ومقارنته بالابراج الأخرى المجاورة والمطلة على الميناء وهى برج الشيخ عفان وبرج السراى وبرج رأس النهر أن برج السباع أنشىء فى طليعة القرن ٨ الهجرى (١٤م) للتشابه الكبير بين بوابة البرج بعقدها وبين بوابة قلعة صنجيل من جهة وبوابة مدرسة الخيرية حسن من جهة ثانية وكلتاهما يرجع تاريخه الى أوائل القرن الرابع عشر ، والمعروف أن بوابة قلعة صنجيل من انشاء الأمير أسندمركرجى نائب السلطنة بطرابلس وأنها أقيمت سنة ٧٠٦هـ (١٣٠٧م) وكذلك أقيمت مدرسة الخيرية حسن فى نفس السنة. ولانستبعد أن يكون أسندمر كرجى هو مؤسس برج السباع ونستند فى ذلك أيضا الى نص

(1) Van Burchem, E Fatie, Voyagen syrie, danr K.I.F.A.O C.T 37, Le Caire, 1914, p. 122.
(2) J. Sauvaget, Notes sur is de fenor de la marine de tripeli B.M.B., Paris, 1936.
(3) Bruce Conde, Tripoli of lebanon, Beirout, 1961 P 137

تاريخي نقله سوبر نهايم عن النويري جاء فيه « فوضت نيابة السلطنة الى الأمير سيف الدين أسند مركرجي المنصوري فاستمر بها إلى سنة تسع وسبعمائة ، وعمر بها حماما عظيما أجمع التجار ممن يجوبون البلاد أنه ما عمر مثله في بلد من البلدان (١)، وعمر قيسارية وطاحونا.. وعمر أيضا بعض القلعة وأقام أبراجا (٢) . كل ذلك يساعدنا على نسبة أنشاء هذا البرج الى أسندمر كرجي ، وهو أمر تؤكده ضرورة انشاء أبراج ضخمة على الساحل بعد تهدم طرابلس العتيقة، ونعتقد أيضا أن برج السباع وبرج أيتمش شيء واحد، لأنه كان قائما قبل فتنة ابن بهادر المؤمني وبين نائب طرابلس الخارج على السلطان برقوق بدليل أن أنصار ابن بهادر اتخذوه حصنا لهم .

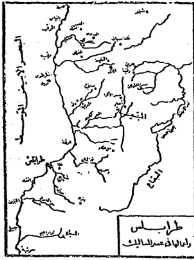
والبرج بناء ضخم لايقل ضخامة عن برج قايتباي بالاسكندرية مكعب الشكل على أساس مستطيل طوله ٢٨،٥٠ مترا وعرضه ٢٠،٥٠ مترا مشيد بالاحجار المسنمة بطريقة منسقة ويندمج في سمك البناء أبدان من الأعمدة لدعم الجدران. ويعتبر هذا البرج من أهم الآثار الاسلامية بطرابلس وأجمل مثال لفن العمارة العربية في عصر المماليك لما يتضمنه من عناصر معمارية وزخرفية متنوعة وموزعة جميعا في ايقاع وتصميم متناسق .

تم بحمد الله

---

(١) وهذا الحمام مايزال قائما ويعرف بحمام الحاجب أقامه في سنة ٧٠١هـ بجوار المدرسة الزريقية، ويؤدي الحمام وظيفته حتى يومنا هذا .

(٢) نص النويري عن سوبر نهايم ص ٤٧



طرابلس
المرقب
عرقة
طرابلس
وأعمالها في عصر المماليك



مدينة طرابلس
في عهد المماليك



الإسكندرية في عصر
الأشرف شعبان



اللاذقية
شيزر
حماة
بانياس
حصن الأكراد
حمص
طرابلس
بعلبك
بيروت
صيدا
دمشق
صور
بانياس
عكا
حيفا
طبرية
الناصرة
بيسان
عين جالوت
قيسارية
أرسوف
نابلس
يافا
عسقلان
بيت المقدس
غزة
الكرك
الشوبك
بلاد الشام الجنوبية



عكا
حيفا
عثليث
قيسارية
صفورية
حطين
طبرية
الناصرة
الفولة
بيسان
صفد
مخاضة يعقوب
بحر الجليل
اليرموك
موقعة حطين